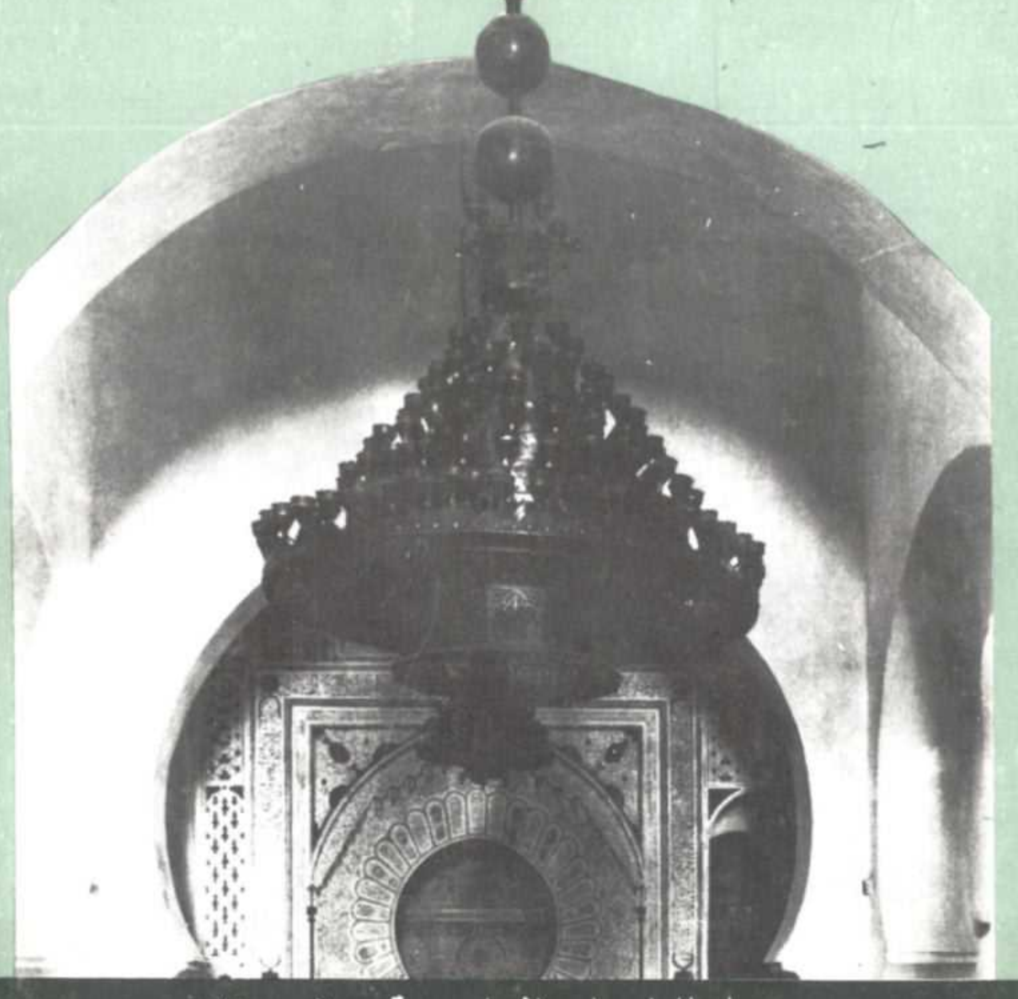
60 دج

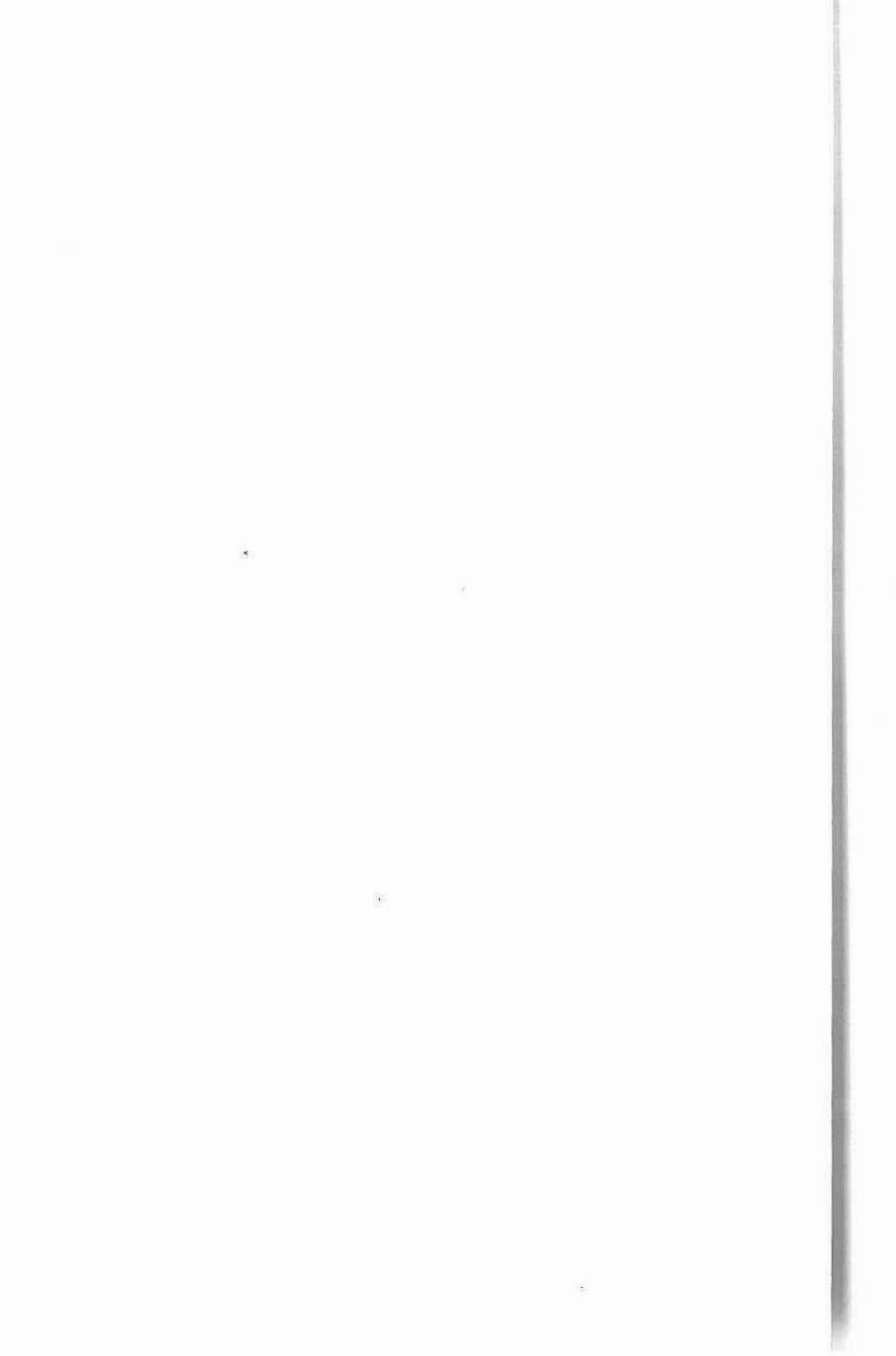
اسماعيل العربي

دولة بني زيري

ملوك غرناطة



ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر



دولة بني زيري

طبع على مطابع الكرمل الحديثة

بيروت ـ لبنان تلفون ٨٣٠٠١٧ ـ تلكس LE٢٠١٨٨

اسماعيل العربي

دولة بني زيري

ملوك غرناطة

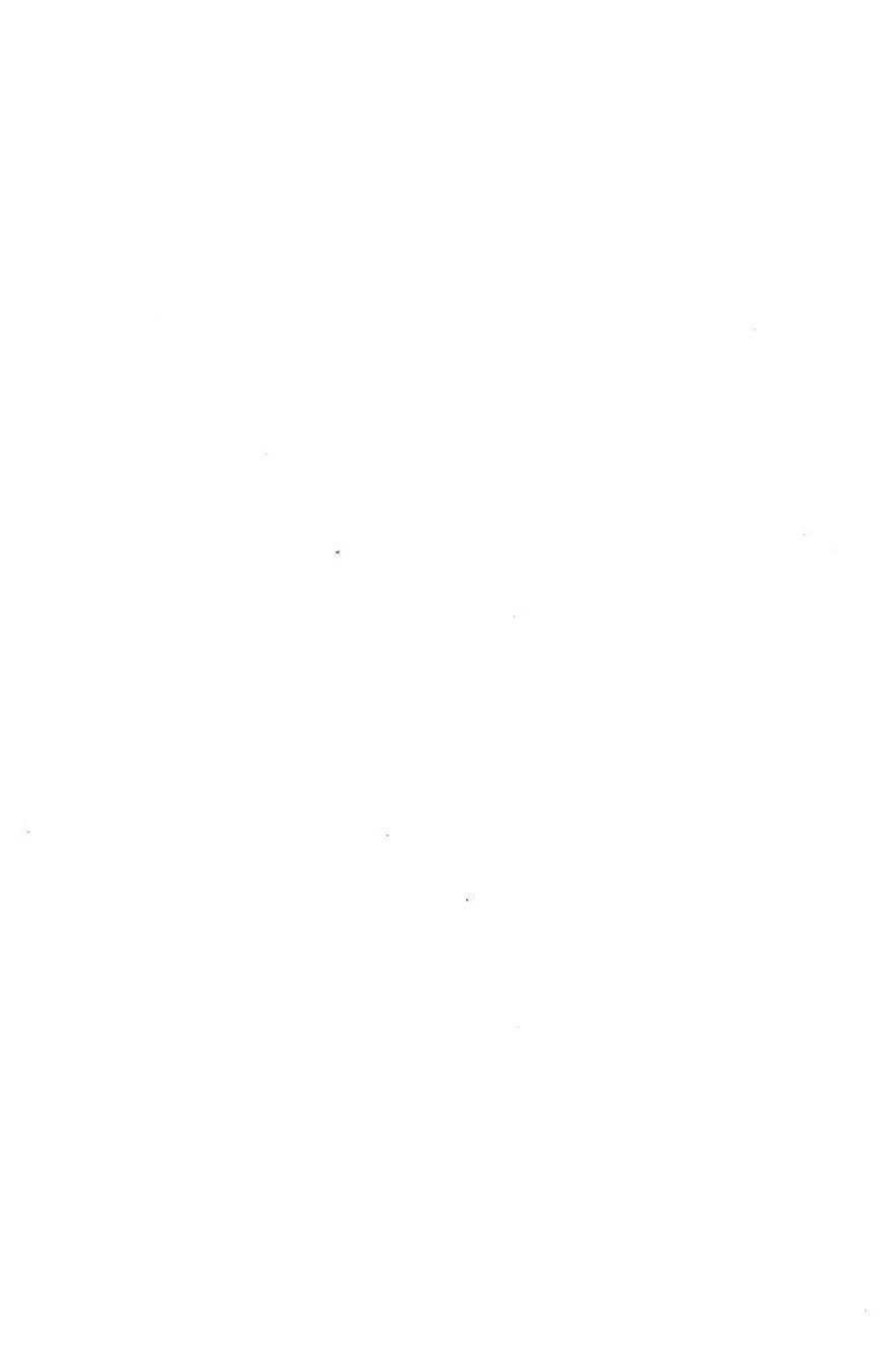
الجزائر في عام 1982

ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر



الباب الأول

عهد زاوي وحبوس



الفصل الأول

الزيريون
بين أشير وقرطبة

عرف مناد بن منقوش بين قبيلة صنهاجة بكثرة البنين ووفرة المال ، وكان معطاء ومضيافا ، فشاع ذكره بذلك واشتهر اسمه في الآفاق .

كان لمناد بن منقوش مسجد يأوى اليه عابر السبيل ويقصده المحتاج ، فاذا خرج مناد للصلاة ، سلم على من يحل بالمسجد من الضيوف والغرباء ودعاهم الى داره ليكرمهم ويؤ انسهم ثم يمدهم بالزاد عند الانصراف .

يقول النويري ، صاحب نهاية الارب ، إن مناداً أُبلغ ذات يوم أن في مسجده رجلا غريبا وصل وقت الظهر ، عائداً من الحج ، فسارع الى لقائه وسأله عن أحواله ، ومن يكون ؟ ومن أين اقبل ؟ فقال الرجل انه من أهل المغرب وصل من الحج وخرج عليه لصوص وأخذوا ما كان معه ، فانقطع عن اصحابه ؛ ولما سمع بمناد وباحسانه لأبناء السبيل قصده ليعينه على الوصول الى أهله .

قال له مناد : وصلت فابشر بالخير ، ثم مضى به الى منزله فاطعمه ونام ، ثم أمر بشاة فذبحت وعمل له طعاماً آخر فاحضر اليه وأكل منه ، ثم نظر الى كتف الشاة ، فاخذه وقلبه وراح ينظر فيه تارة وينظر الى مناد تارة أخرى في تعجب .

فقال له مناد : لأي شيء تنظر في الكتف وتنظر الي ؟
فقال الغريب : ألك امرأة حامل ؟
فقال مناد : بلى !

فقال الغريب : فلك منها أولاد ؟
قال مناد : لا ، ولكن من غيرها
قال الغريب : اعرضهم علي ، فعرض مناد أولاده على الغريب
ثم قال له : ألك غير هؤلاء ؟
فقال مناد : ليس لي ذكر الا من رأيتهم .
قال الغريب : احتفظ بالمرأة الحامل ، فوالله لتلدنّ ولداً يملك المغرب جميعه ويملك بنوه من بعده .

ورد مناد على الغريب بما معناه انه وجد قبله من تنبأ بذلك لأسلافه .

وتمضي الرواية فتقول ان زوجة مناد وضعت حملها فجاء ذكراً وسماه أبوه زيري(1) .

تلك هي قصة مولد زيري ، وهي قصة لا نضمن صحتها ، ولكنه لا بد وان تكون قد عرفت حظا من الرواج والانتشار في أوساط صنهاجة ، وان تكون قد دعت مركز الاسرة بين تلكاتة ؛ لأنها تجعل من زيري بن مناد الزعيم المنتظر والقائد الطبيعي الذي بشّرت به الرؤيا الغيبية ليقوم بدور في قيادة شؤون بلاد المغرب .

وفيما عدا هذه القصة وحواشيها ، فان المصادر التي بين ايدينا لا تذكر شيئاً عن سيرة مناد ولا عن أي دور سياسي اوعسكري قام به ـ هذا ، اذا استثنينا اشارة غامضة او ردها بعض المؤرخين المغاربة وردد صداها ابن خلدون ، مؤداها ان مناداً كان والياً للعباسيين من قبل الاغالبة عن المغرب الاوسط ، وهي قصة أخرى لا بد من تلقيها بكل حذر وتحفظ (2) .

زيري بن مناد يجمع الرواة على ان زيري بن مناد كان يلفت الانظار منذ

---

1 ـ النويري (ص233) . والجدير بالاشارة ان رواية النويري لهذه القصة وغيرها من المعلومات التي تتصل ببني زيري ، قد استقاها من عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس ، في تاريخه المعنون بالجمع والبيان في اخبار المغرب والقيروان ، وهو كتاب يعتبر مفقودا .
2 ـ العبر (6 / 153) .

صباه بجمال الطلعة وحسن البنية والنضوج المبكر ، بحيث يبدو ، وهو لا يتجاوز العاشرة من العمر ، وكأنه في سن العشرين وكذلك أبدى زيري ، منذ نعومة أظفاره ميلا الى المغامرة والقيام بدور الرائد بين اقرانه ، فكان يركب عمودا من الخشب ويتقدم زملاءه في اللعب ليخوض بهم معارك خيالية ويسجل انتصارات وهمية (3) .

وهذا الميل الى القيادة والزعامة ، نما وتطور لمّا أصبح الصبي يافعا ، الى حب المنازلة والعراك ، فكان زيري يجمع أصحابه ويسير على رأسهم للقيام بغارات في اراضي زناتة ، فيقتل ويسبي وينهب كأي قاطع طريق عادي ، ويعود مثقلا بالغنائم التي يتقاسمها مع رفقائه دون ان يميز نفسه ، مع ذلك ، عنهم في شيء .

وكذلك اشتهر الشاب في محيطه بالشجاعة والاقدام والانصاف وبحسن معاملة من قدر له الوقوع ضحية لغاراته ولمغامراته .

ولكن الشهرة كانت في كل وقت سببا الغيرة والحسد ، ولو اقتنع زيري بما ورثه عن ابيه من كرم المحتد والثروة ، لكان من المرجح ان يغفر له خصومه ما كان يتمتع به من الشهرة ، ولكن زيري ابى الا ان يكسب لنفسه صفات اخرى تؤهله حق الرئاسة والزعامة ، الامر الذي سيثير عليه الكثيرين من منافسيه بين تلكاته ، وغيرها من فروع صنهاجه التي تطمح الى ان يكون « القائم » واحداً من ابنائها . (4) .

وكذلك وجد زيري نفسه منذ المراحل الاولى من زعامته المحلية امام معارضة قوية من عناصر من صنهاجة ، ودخل معها في معارك عديدة ظفر فيها كلها ، فيما تقول الرواية ، بعد ان عمل في اعدائه قتلا وسبيا .

ولما بلغت اخبار هذه المعارك زناتة ، اعداء صنهاجة كاتبوا من خالف زيري من ابناء قبيلته وحالفوهم على محاربته . على ان زيري لم يترك الوقت

---

3 ـ ننقل هنا كثيرا من المعلومات من الفصل الاول من كتابنا « دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية » وذكر لتوفير خلفية لبني زيري ملوك غرناطة .

4 ـ قارن النويري (ص 231 - 232) ، الكامل (246/8) .

الضروري للمتآمرين ضده ليستكملوا استعدادهم وتقوى جموعهم ، بل عاجلهم تحت جنح الظلام ، فضرب على أرض (مغيلة) من زناتة وشتت جموعهم وسبى وقتل رؤساء كثيرين ، ورجع الى جبل تيطري مقر اسرته ، مثقلا بالغنائم ، وقد اخذ من خيل زناتة ثلاثمائة فرس وزعها على اصحابه وكانت نواة لما يمكن تسميته بخيالة زيري(5) .

وقد شاع خبر هذه المعركة وتسامع الناس بها في مختلف انحاء المغرب ، فاستهالوها وعظموا أمر زيري الذي اجتمع اليه خلق كثير ضاق بهم المتسع ، وقالوا له :

لو رأيت مكانا أوسع من مكاننا هذا ؟

وبعد ما رأى رسوخ زعامته واعتراف معظم فروع صنهاجة به ، اخذ يفكر في بناء مدينة يدير منها شؤون القبيلة وتكون مقراً لحكمه .

بناء مدينة أشير :

كانت صنهاجة قد التزمت موقف الحياد ، إن لم نقل موقف العزلة في الاحداث الخطيرة التي هزت المغرب الاقصى وجزءاً من المغرب الاوسط ، وكان القتال يجري اثناءها في ظاهر الامر بين الادارسة ، وموسى بن أبي العافية ردحا من الزمن ، ولكن الصراع في الحقيقة كان صراعاً بين قرطبة حيث تربع عبد الرحمن الثالث ، الناصر لدين الله على عرش الخلافة (سنة 300 هـ ـ 912 م) والقيروان ، في عهد عبيد الله المهدي ، وابنه القائم من بعده ، وفي هذه المعارك اعتمد العبيديون كثيراً على كتامة ومكناسة التي كان واحد من ابنائها من كبار قادة عبيد الله العسكريين ، والذي سيطارد الادارسة حتى يلجئهم الى حجر النسر .

ولما اطمأن العبيديون الى موسى بن ابي العافية واتخذوا منه حاجزاً في المغرب الاقصى ضد توغل النفوذ الاموي في هذه المنطقة ، عمل العبيديون لتركيز نفوذهم في المغرب الاوسط واصطفوا صنهاجة التي كانت تنتظر القيام بدورها التاريخي تحقيقاً لهذه الغاية ، ولكن صنهاجة كانت في حاجة الى قاعدة

---

5 ـ الكامل (246/8) .

تكون مقراً لزعامتها ومركزاً لاشعاع نفوذها .

وكذلك قرر زيري بناء مدينة على احدى قمم الجبل الاخضر (الكاف) يبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 1400 متر وتشرف على سهول التل الغربية ، ومنطقة بلاد القبائل الشرقية ، في مكان منيع وصفه البكري بانه « ليس في تلك الاقطار أحصن منه ولا ابعد متناولا ولا مراما ، ولا يصل الى شيء من القتال منه الا من موضع يكفي لحمايته عشرة رجال ، وهو في شرقيه »(6) . ثم بعث زيري في احضار البنائين والنجارين والفعلة من سوق حمزة (البويرة) وطبنة والمسيلة وطلب من القائم العبيدي ان يمده بالخبراء والفنيين ، فبعث اليه بمهندس معماري ، يقول النويري انه لم يكن في افريقية أعلم منه ، وشرع في بناء مدينة أشير في سنة 324 هـ .

وهذه المدينة لم تلبث أن أصبحت ، على الرغم من صعوبة الوصول اليها ، انعاصمة الحقيقية التي خلفت تيهرت ، للمغرب الاوسط . فبعد تجهيزها وتعميرها ، أخذ العلماء والفقهاء(7) والتجار يتقاطرون عليها وتسامع الناس بها من مختلف انحاء العالم الاسلامي ، ونظراً لبعد النفوذ الفاطمي عن هذه المنطقة في هذه الفترة ، فقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة ، وليس

---

6 ـ قارن المغرب للبكرى (ص60) ومقتبس نهاية الارب للنويري (ص232) **معجم البلدان** لياقوت(1/286 - 287) **العبر** لابن خلدون (6/153) والمغرب وارض السودان للادريسي المغرب (ص85) وفيات الاعيان لابن خلكان (2/343 - 344) **الكامل** ؟ (الفهرست) **مراصد الاطلاع** تحقيق علي محمد البجاوي (1/70) . راجع ايضا مقالنا في مجلة الثقافة « بنو زيري بين اشير والقيروان » عدد جوان / جولية ، 1974 ، وكذلك Revue Africaine (13/116 وما يليها) ،

Berbruyger , epoques militaires (P 163)
pelissier , mèmoire historique et Geographique sur L'Aigerie , (P . 413) .

7 ـ من اشهر رجال الحديث والفقه الذين ينتمون الى أشير ، نذكر ، خصوصا ، أبا محمد الاشيري امام حلب **والشام عامة** ، استدعاه الوزير عون الدين ابو المظفر ، يحي بن هبيرة ، وزير المقتفى ، والمستنجد ، فقربه اليه واكرمه ، وكان الاشيري يقيم عند العادل نور الدين محمود بن زنكي . توفي الشيخ الاشيري في سنة 561 هـ (1165 م) في بعلبك (راجع ترجمته في التكملة لابن الابار (2/917 - 918) ومعجم البلدان (1/203) وتاريخ الجزائر العام (1/ -400 399)

بالنقود أي على أساس البقرة او الحمل او الشاة ؛ ولكي يسد هذه الفجوة في نفوذ صنهاجة السياسي عمد زيري بن مناد الى ضرب السكة التي كانت ولا تزال رمز السيادة ، كما بسط العطاء في الجند ، وجعل لهم الارزاق ، فكثرت الدنانير في ايديهم ، وازدهرت التجارة واطمأنت نفوس أهل البادية .

وفي هذه الاثناء ، عمل زيري على بناء جيش قوي وعُني بحفظ الامن العام في المنطقة في المرحلة الاولى ، ثم اتجه الى مواجهة زناتة في حروب متصلة في مرحلة تالية(8) .

ومضى زيري يقاتل زناتة ويطارها من المغرب الاوسط ومن المناطق الشرقية حتى وصل الى جراوة(9) حيث لقيه موسى بن أبي العافية (وكان قد انتقض على العبيديين واعترف بسلطان المروانيين) وقدم اليه هدايا وجواري وقال له : يا مولاي ، انما استعملت نفسي لبني أمية لارهب بهم زناتة ، وإذْ قد أتي الله بك وجمع بيني وبينك ، فاني عبدك ومنقطِع اليك ، وعونك انت مني قريب ،وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد عني ، فقربه زيري وأدناه ، وقال له : اكتب لي بما يعنُّ لك ، فانا أمدك بالعساكر متى أردت(10) .

وكذلك تضافرت مجموعة من العوامل لتجعل الصلة تزداد متانة مع مرور الايام ، بين زيري والخليفة الفاطمي في المهدية ، فبعدما أنقذ زعيم صنهاجة المهدية من السقوط ، بعد القيروان في يد الخارجي أبي يزيد مخلد بن كيداد(11) ، وأمدها بحمل ألف بعير من الزاد والمؤ ن ووفر لها الوسائل للصمود للحصار الذي ضربه عليها الخوارج ، قدم للقائم العبيدي خدمة لا تقل عن الاولى شأنا ، بدحره قبيلة زناتة التي اتجهت الى الامويين ، وباعادة ابن

---

8 ـ النويري (ص233) .

9 ـ أسس مدينة جراوة ابو العيش عيسى بن ادريس في سنة 291 هـ903 م) وخرج منها الى تلمسان ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 325 هـ936 م) راجع وصف مختلف الجغرافيين العرب لمدينةَ جراوة في كتابنا : المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي طبع الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع .

10 ـ النويري (ص234) .

11 ـ قارن نص النويري (ص235) المؤ نس (ص73- 74) الكامل (460/8) .

ابي العافية الى حظيرة العبيديين بحيث يمكن القول بأن زيري بن مناد كان الدعامة الاساسية لنفوذ المهدية ، لا في المغرب الأوسط فحسب ، ولكن ايضا في المغرب الأقصى .

ولما قرر المعز لدين الله الفاطمي استعادة نفوذ الفاطميين في المغرب الذي أذعن لضغوط الامويين من جديد ، وجه قائده المشهور ، جوهر الصقلي ، في حملة لهذه الغاية في سنة 347 هـ (958 م) وأمره بان يصطحب معه زيري بن مناد .

وقد زحف جيش الخليفة بمرافقة جيش من صنهاجة بقيادة زيري ، واتجه الجيشان الى فاس التي كان عليها ابو بكر الجذامي ، عامل الامويين ، وبعد حصار المدينة وقتا من الزمن ، أدرك القائد الفاطمي صعوبة الاستيلاء عليها بالقوة ، ولما أخذ اليأس يتطرق الى رجاله ، قام زيري بوضع خطة محكمة وقام بالدور الاول في تنفيذها ، حيث تسلّق مع رجاله اسوار المدينة وفتح ابوابها لجيش جوهر الذي أخذها عنوة في شهر رمضان من السنة (12) .

وبهذه الحملة التي دامت بين صفر سنة 347 هـ وشعبان سنة 349 هـ تمكن جوهر من استعادة جميع اطراف بلاد المغرب ، بمساعدة صنهاجة ، الى طاعة العبيديين ، وذلك فيما عدا سبتة وطنجة .

واثر ذلك ، شرع زيري الذي اضيفت الى عمله تيهرت وأراضيها ، في تدعيم نفوذه ببناء مدن جديدة ، فأمر ابنه وولي عهده ، بلكين بتخطيط مدينة جزائر لبني مزعنة على البحر ، ومدينة مليانة،على الضفة الشرقية لنهر شلف ، ومدينة المدية غير بعيد من أشير .

على ان الهدوء الذي أعقب حملة جوهر في المغرب الاقصى ، لم يدم الا وقتا قصيرا ، ولم تلبث الفتنة ان اندلعت في أكثر من مكان واحد ، فاذا كانت قرطبة قد فقدت أملها في تحريك عناصر الاضطراب التقليدية ، مثل بعض أمراء الادارسة وابن أبي العافية ، فان عناصر جديدة ظهرت على المسرح ، وستربط مصيرها هي الاخرى ، بالأمويين الذين لن يغدقوا عليها

---

12 ـ المصدر السابق .

الاموال بلا حساب ، لمقاومة العبيديين وصنهاجة .

وأبرز هذه العناصر وأشدها خطراً في تلك الظروف ، هو جعفر بن علي عامل العبيديين على المسيلة (وكان ابوه هو الذي بنى هذه المدينة)(13) الذي كانت بينه وبين زيري بن مناد ضغائن وعداوة قديمة ، زاد من حدتها طمع جعفر في الولاية على افريقية ، عندما قرر المعز الانتقال الى القاهرة .

وفي سنة 361 هـ زحف جعفر على رأس جيش يتكون من فرسانة ومن قوات مغراوة على أراضي صنهاجة التي يبدو انها أُخِذَتْ على غرة ، ومع ذلك ، فقد تمكن زيري من جمع رجاله بسرعة وواجه العدو ببسالته المعهودة ، غير ان جموع صنهاجة لم تلبث ان تفرقت حوله ، بينما ظل هو صامداً في المعركة في ثلة من اتباعه ، حتى كَبَا بِهِ جواده ، وانقض عليه اعداؤه وحزوا رأسه ، وبعث به جعفر مع أخيه يحيى ، الى قرطبة ليعرض في أسواق المدينة ثم ليحتفظ به الخليفة الحكم المستنصر الاموي في قصره جيلا كاملا ، حتى يحصل عليه زاوي بن زيري ويبعث به ليدفن في افريقية(14) .

أبناء زيري بن مناد :

ان المصادر التي بين ايدينا ضنينة بالمعلومات عن أولاد زيري . واذا استثنينا ابنا صغيرا له يسمى كباب ، أبدى ضروبا من الشجاعة في الدفاع عن أشير ، وهو لم يبلغ الحلم ، عندما تعرضت هذه المدينة لهجوم مفاجىء ، فان بلكين الذي تولى الامر في افريقية بعد رحيل العبيديين ، والذي كان معروفاً بشجاعته وحنكته ، هو الوحيد الذي تتحدث عنه الرواية ، وبلكين الذي خلف والده في زعامة صنهاجة ، هو الذي سيأخذ بثأر ابيه من زناتة التي أعمل فيها السيف وقتلهم قتلا ذريعا وسبى نساءهم واطفالهم وأجلاهم عن البلاد .

ونحن نعرف ان ولاية بلكين بن زيري لم تكن مثارا لأية معارضة من

---

13 ـ جعفر بن علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الاندلسي ، هو ممدوح الشاعر ابن هانيء الاندلسي الذي مدح أيضا أخاه يحيى ، يمكن مراجعة اخبار هذه الاسرة في البيان (242/2 - 244) وأعمال الاعلام لابن الخطيب (ص60 - 62) والمغرب لابن سعيد (97/2 - 98) . وهذه الاخبار يكملها ابن الابار في الحلة السيراء (305/2 - 306) .

14 ـ راجع نص النويري (ص237) والمؤنس (ص74) .

اخوته ، بل ان معارضة بني زيري الآخرين لنظام الحكم الوراثي لم تظهر الا في الجيل الثالث ، أي عند اعلان ولاية باديس بن المنصور بن بلكين واعتلائه على عرش افريقية .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن في هذا السياق ، هو : لماذا أجل ابناء زيري مطالبتهم بالعرش أو الاشتراك في الحكم مدة تزيد عن ربع قرن بعد موت أبيهم (بويع باديس في سنة 386 هـ ـ 996 م) ؟

الجواب عن هذا السؤال ، فيما يبدو لنا ، ذو شقين :

أولا : فان زاوي الذي كان أكبر الاخوة الثلاثة الثائرين سناً قد شارك في ثورة البربر بعد عبوره الى الاندلس ، كما سنرى ، وتحالف مع علي بن حمود حينما استولى على الحكم في قرطبة ، وكان حاجبا في غرناطة في دولة القاسم بن حمود . وقد هزم الخليفة الاموي ، المرتضي في سنة 418 هـ . ، ثم رحل عائدا الى افريقية في سنة 414 هـ وهو فيما يبدو ، في حالة صحية جيدة .

ما معنى هذا ؟

معناه ان ٣٠ سنة قد مرت بين الحدث الاخير (الرحيل عن غرناطة) وبين وفاة زيري بن مناد في سنة (360 هـ كما قلنا) ، واذا افترضنا ان زاوي بن زيري قد عاد الى افريقية وهو فوق الستين بقليل ، يكون معنى ذلك ان عمر اكبر الاخوة الثائرين ، كان أقل من عشر سنوات عند مقتل أبيه .

وعندما مات أخوهم الاكبر ، بلكين ، في سنة 373 هـ ، كانت سن الاخوة الثائرين أقل من العشرين ، وبالتالي ، فلم يكونوا في وضع يسمح لهم بالمعارضة في ولاية ابن اخيهم المنصور بن بلكين الذي كان يتمتع بخبرة واسعة في ادارة سياسة الدولة ، والذي اعترفت بشرعية ولايته القاهرة .

والشق الثاني في الرد عن تساؤلنا ، هو أن ولاية باديس قد تمت في ظروف خاصة ، ففي المكان الاول كان باديس طفلا صغيرا لا يتجاوز عمره 12 سنة (ولد في سنة 374 هـ) ، عندما توفي والده (في سنة 385 هـ) وهذا الاعتبار وحده كاف لاغراء اولئك الذين يشعرون ان وراثة العرش توشك ان

تنتقل نهائيا من نسل زيري الى نسل بلكين . وبالفعل ، فان ابن غذارى يخبرنا بان ارتقاء باديس عرش القيروان كان مثاراً لنزاع ، وان بني زيري وبني حمامة قد هموا بأمور وخالفوا من جاء معهم على ما عقدوه ، فما تركهم عبيد باديس وعبيد ابيه الى شيء مما أرادوا(15) ، وذلك على الرغم من تعيين المنصور له ومن اعتراف بلاط الفاطميين بالقاهرة بهذا التعيين رسميا .

ومن جهة اخرى ، فان زناتة قد ضمدت جراحها وضمت صفوفها تحت زعامة تتمتع بالشجاعة والذكاء ، زعامة زيري بن عطية ، وأخذت شوكتها تشتد من جديد على صنهاجة في المغرب الاوسط .

ولا بد وان تكون الرغبة درء الخطر المزدوج (خطر زناتة وخطر بني زيري) هو الذي دفع مستشاري باديس الى حمله على تعيين عمه ، حماد بن بلكين ، والياً على أشير (في سنة 387 هـ) وقد « اعطاه خيلا كثيرة وكسىً »(16) .

وبعد ما بسط زيري بن عطية سلطانه على المغرب الاقصى واستولى على مدينة فاس ، زحف على رأس جيشه في سنة 389 هـ على تيهرت التي كانت تحت يطّوفت وحاصرها .

ولما كان يطوفت في وضع لا يسمح له بالدفاع عن مدينته ، استنجد بباديس الذي أمده بجيش بقيادة ابي العرب ، سار حتى بلغ أشير ، حيث جهز حماد جيشاً آخر واتجه مع ابي العرب الى تيهرت ، وهناك اجتمع القائدان بيطوفت وتباحثا معه حول الموقف .

ولما اشتبكت الجيوش الصنهاجية الثلاثة بجيش زيري بن عطية الذي كان يعسكر في مكان يسمى أمنان(17) ، لم يلبث جيش تلكاتة الذي كان على رأسه حماد ، ان ولى الادبار . ولما رأته بقية جيوش القيروان يتخاذل حَذَتْ حذوه ، فكانت هزيمة شنيعة ، على الرغم من حسن بلاء ابي العرب .

---

15 ـ البيان (طبعة صادر 355/1) ، راجع أيضا الكامل (90/9) .

16 ـ نص النويري (ص249) .

17 ـ كذا في معظم الروايات ، وفي البيان : أمسار .

وفي نفس الوقت قام مغامر آخر اسمه فلفل بن سعيد بن خزرون الزناتي ، الذي كان واليا من قبل باديس على طبنة بثورة عليه ، مما اضطر باديس الذي استعد لأخذ الثأر من زيري بن عطية الى تحويل اتجاهه لمطاردة هذا الزناتي الآخر . وبعد ذلك سار الى تيهرت ، وعندما علم زيري بن عطية بمقدمه هرب وسار باديس في اثره حتى أتخذ طريق فاس .

وهذه الاضطرابات في المناطق الغربية ، هي التي شجعت أبناء زيري على محاولة الصيد في الماء العكر .

فلما عاد باديس من ملاحقته لزيري بن عطية ، توجه الى تيهرت ثم الى أشير ، وعين واليا على المدينتين عمه يَطّوفت . ومن أشير سار الى المسيلة التي غادرها بعد عيد الفطر ، تاركاً مع يطوفت ابناء زيري ، زاوي وماكسن ومغنين .

ولكنه لما استأنف مطاردته لفلفل بن سعيد ، بلغته اخبار بأن ابناء زيري ثاروا على يطوفت في اشير وأخذوا جميع أمواله واعتقلوه على ان يطوفت تمكن من الفرار وأفلت من ايديهم ، عندما كانوا يستعدون لقتله ، والتحق بباديس .

على ان ابا مناد لا يبدو انه انزعج كثيرا لهذه الانباء ، لأنه بدلا من ان يسير لاستعادة السيطرة على عاصمة صنهاجة اتجه الى القيروان .

وفي يوم الاربعاء لعشر بقين من ذي القعدة سنة 391 هـ ، وصل باديس أبو مناد الى المنصورية ، وهناك بلغته اخبار خطيرة منها ان فلفل بن سعيد قد هزم جيش أبي زعبل وقتل هذا القائد ، كما أسر محمد بن أبي زعبل وان الزناتي يتمادى في اتجاه القيروان بعد ما عقد محالفة مع زاوي واخوته الثائرين .

وعلى أثر ذلك ، سار باديس لمواجهة زناتة والتقى بفلفل في وادي أغلان (18) في معركة صمدت فيها صنهاجة واسفرت على هزيمة زناتة بعد ما قتل سبعة آلاف من رجالهم (19) .

وبعد ذلك سار نصير الدولة ، باديس الى رقادة ، ومنها رحل في طلب ابناء زيري الثائرين . ولما انتهى الى قصر الافريقي (20) ، علم أن أبناء زيري

---

18 ـ كذا ورد هذا الاسم في نص النويري ولم أهتد للتعرف على هذا المكان .

19 ـ كذا في البيان ، وفي نص النويري : تسعة آلاف .

20 ـ يقع قصر الافريقي على مرحلة من القيروان راجع وصف هذه المدينة في المغرب للادريسي . (ص120) معجم البلدان (355/4) وقد وصفها البكري بقوله : « مدينة جامعة على شرف من الارض ذات مسارح مزراع كثيرة » (ص53)

رجعوا أدراجهم الى المغرب الاوسط ، خوفا منه ، ولو ان ماكسن وولده محسناً بقوا مع فلفل ، ولما كان قد انتهى من أمر فلفل أو كاد ، فقد قفل راجعا الى المنصورية (21) .

وفي خضم هذه المعارك والاضطرابات ، ورد على باديس خبر ان مهمان ، أحدهما مؤداه ان زيري بن عطية الزناتي قد توفي (في رمضان 391 هـ) . والخبر الثاني ورد اليه من عمه حماد بن بلكين يقول : بانه زحف على أعمامه الثائرين ، وأنه بعد معارك شديدة قتل ماكسن واولاده محسن وباديس (22) .

واما زاوي بن زيري وبقية الثوار الناجين فقد اعتصموا بالجبال الواقعة خلف شرشال (23) ، في شمال مليانة ، حيث بقوا ينتظرون الاذن لهم بالدخول الى الاندلس للجهاد . وهناك اضطروا الى الانتظار طويلا للأذن الذي لم يصلهم الا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (في رمضان سنة 392 هـ) (24) .

وفي هذه الغابات بقي زاوي وحاشيته مدة تزيد عن سنة بدون عمل ولا امل او مشروع سوى أمل العبور الى الاندلس،ونحن اذا عرفنا ان زيري قد اصطحب معه الى جانب افراد عائلته والمقربين اليه عددا كبيرا من الاعيان والزعماء الذين اصطفوا الى جانبه في ثورته الفاشلة ، أدركنا مدى ثقل وطأة هذا الانتظار على زيري ومن معه ، بعدما قطعوا خط الرجعة على انفسهم ، ورفضوا الحل الذي اختاره أخو زاوي الآخر ، ابو البهار وهو : الاستسلام واعلان

---

21 ـ اعتمدنا هنا رواية النويري ، وأما سرد ابن غذاري لهذه الاحداث فيشوبه شيء من الاضطراب .

22 ـ كذا في البيان ، وهو الاصح ، وفي نص النويري والكامل لابن الاثير . اولاده محسن وباديس وحباسة ، وأما ابن خلدون فيقول ان حمادا قتل ماكسن « وابنه » دون تحديد بالاسم .

23 ـ كتلة جبال بني مناصر التي تمتد في جنوب شرشال ، وتقع المدينة على طرفها الشمالي .

24 ـ قارن البيان (1/361) نص النويري (ص254) العبر (6/171) راجع أيضا كتابنا : دولة بني حماد ، وروجي ادريس:(289 note 97 - 1) La berberie orientale sous les zirides

التوبة وطلب العفو من السلطان باديس .

ولكن من هم أفراد اسرة زاوي الذين وجدوا أنفسهم في هذا الوضع وينتظرون رحمة بلاط قرطبة ؟ تختلف الروايات الثلاث التي بين أيدينا في الموضوع اختلافا يصعب معه محاولة التوفيق بينها .

فأما ابن الاثير الذي يذكر حادث رحيل زاوي غلطاً ضمن حوادث سنة 373 هـ ، فيقول ان أولاد زيري الذين انتقلوا الى الاندلس هم : زاوي وجلالة وماكسن ، أخوة بلكين(25) ولكن هذا المؤرخ نسي انه سيخبرنا بعد ذلك بقليل ان حرباً شديدة وقعت بين حماد وماكسن (في سنة 391 هـ) وان حماداً قتل في هذه الحرب ماكسن وأولاده ، محسناً وباديس وحبَّاسة(26) .

وأما ابن خلدون الذي يذكر مقتل ماكسن وابنه ، فيقول ان زاوي رحل الى الاندلس « في بنيه وبني اخيه وحاشيته ونزل على المنصور بن أبي عامر(27) (ونحن نذكر عابرين بان المؤرخ الكبير اختلط عليه الامر ، لان زاوي انما نزل على عبد الملك بن أبي عامر) .

وأما ابن غذارى ، فيذكر انه « بعد مقتل ماكسن بن زيري رهب الباقون من اخوته صولة باديس ، فكتب شيخهم زاوي الى المظفرين ابي عامر ليجوزوا الى الاندلس ، فأذن لهم في ذلك فدخل منهم جماعة مع شيخهم ، ومعه ابناء اخيه ماكسن ، حباسة ، وحبوس الخ ،(28) .

وأما ابن بسام ، فانه لا يذكر سوى زاوي بن زيري « عم أبي المعز وصاحب الفرقة الخارجية عليه من أهل بيته »(29) .

ورواية ابن الخطيب تتفق مع ما ذكره ابن غذارى في جميع التفاصيل ، ولذلك نكتفي بالاشارة اليها(30) .

---

25 ـ الكامل (23/9) .

26 ـ نفس المصدر (153/9 ـ154) .

27 ـ العبر (179/6) .

28 ـ البيان (252/3) .

29 ـ الذخيرة (61/4/1/ـ62) .

30 ـ الاحاطة (440/1) .

وهذه الرواية هي التي نرجحها ، أولا لأننا عرفنا ان ماكسن قد بقي على محالفته لفلفل وأنه هو الذي قاتل حماداً وقتل في العراك معه ، بينما هرب بقية اخوته رهبة من باديس وفي المكان الثاني ، فنحن سنجد آثار ابني ماكسن ، حباسة الذي قتل في فتنة البربر ، وحبوس الذي سيرتقي عرش غرناطة ، بعد رحيل زاوي عنها ويحكم البلاد نحو خمسة عشر عاما .

وفيما يتعلق باخوي زاوي مغنين وجلالة ، فنحن نجهل مصيرهما ولو ان اسم جلالة ورد بصفة عابرة مرة او مرتين في وثائقنا في الاندلس ، ولكننا لم نستطع التحقق بشأن ما اذا كان هو نفس الشخص .

ومن جهة اخرى ، تختلف الرواية أيضا ، فيما يتصل بالمكان الذي أبحر منه زاوي ورجاله الى الاندلس ، فان ابن الاثير يخبرنا انهم « توجهوا الى طنجة ومنها الى قرطبة »(31) .

ولكنه نظراً لأن هؤلاء الهاربين قد التجأوا الى المنطقة الجبلية الواقعة بين شرشال ومليانة ، فاننا نستبعد ان يقوموا بقطع المنطقة الشاسعة التي تمتد بين مليانة وطنجة ويعرضوا انفسهم لخطر القبض عليهم لغير سبب معقول ، ولذلك فنحن نرجح ان يكون مجازهم من ميناء تنس ، او من ميناء مجاور له ، في اتجاه قرطاجنة (او المرية) ومن هناك ساروا برا الى قرطبة .

وأما وسائل التنقل (السفر) فلا بد من ان يكون المظفر بن أبي عامر قد بعث اليهم بها ؛ حيث ان عدد المهاجرين كان كبيراً ، ومن الصعب ان تستوعبه سفن الشحن العادية التي تتردد على ميناء تنس ، خصوصا وان الزيريين قد رحلوا بدون نية في الرجوع وأخذوا معهم ، هم والاعيان الذين رافقوهم ، كل ما لديهم من الاموال والعبيد والجواهر ، وهو فيما يقول ابن الاثير ، شيء كثير .

---

31 ـ الكامل (32/9) .

الفصل الثاني

الإمارة في غرناطة
بعد ثورة البربر

بعدما فشلت ثورتهم اليائسة على باديس بن المنصور ، في محاولة لاعادة حقوق وراثة العرش التي استقرت الآن في سلالة بلكين ، الى بني زيري ، قرر ابناء زيري (باستثناء ابي البهار الذي اعلن انضمامه الى صفوف الشرعيين) الالتجاء الى الاندلس ، حيث كانت اصداء فتوحات المنصور بن ابي عامر الرائعة لا تزال تدوي في كل مكان ، فان الاندلس التي توفر الفرصة للجهاد والاستشهاد ، تمثل ايضا مسرحا واسعا للمغامرين وطلاب الملك ، وكان زاوي بن زيري رئيس الثوار على باديس وشيخهم هو الذي تقدم باسم هؤلاء بطلب الأذن الى المنصور بن ابي عامر حاجب هشام بن الحكم ، بالسفر للجهاد .

وعلى الرغم من ان ابا الخليفة (الحكم بن عبد الرحمن) كان قد فتح باب الهجرة على مصراعيه للمغاربة منذ نحو ثلث قرن ، بعدما اصبح المغرب الأقصى ولاية من ولايات الاندلس[1] ، فان المنصور بن ابي عامر لم ير الاسراع بالاذن للزيريين وعرض ضيافة قرطبة عليهم ، كما صنع عبد الرحمن الناصر من قبل ، حينما تقدم اليه ابو العيش الادريسي بطلب مماثل . وهذا التردد من الحاجب شيء طبيعي ، لان الحالتين مختلفتان فعلاً ، فان مصلحة قرطبة في تشجيع ابي العيش على طلب الاستشهاد والتخلي عن امارته التي هي آخر معقل الادارسة لكي تتدحرج الى منطقة نفوذ الخليفة ، مصلحة واضحة .

---

1 ـ اعمال الاعلام ـ القسم الخاص بالاندلس (ص 261) .

ولكن أية فائدة لقرطبة في هجرة هؤلاء الثوار الى الاندلس ؟

وهل كان هدف زاوي الاستشهاد حقيقة أم المطالبة بثأر ابيه (زيري) الذي لا يزال رأسه معلقا على جدار قرطبة ؟ أم لمجرد محاولة اقتطاع أمارة له في الاندلس ، بعد ما عجز عن ذلك في افريقية ؟.

وكذلك كان من حق المنصور بن ابي عامر ، هذا السياسي المحنك ، ان يتردد و« يلتوي » في الاذن لزاوي بن زيري ولرفقائه في السفر الى الاندلس ، ولا سيما وان الحاجب كان يحذر دهاء زاوي وما بلغه عنه من ذكاء ومكر وبُعْد صيت في المغرب(2) .

ولكنه بعد موت المنصور بن ابي عامر بمدينة سالم ، وبعد ما آلت الحجابة الى ابنه عبد الملك (المظفر)(3) تغيرت نظرة حكام قرطبة الى بني زيري ، فان ما كان يتخوف منه المنصور من ذكاء زاوي ودهائه ، أصبح يبدو في نظر ابنه فضيلة وميزة ، حيث انه سيتاح له استخدام ما يتمتع به الامير الافريقي من السمعة والبراعة لصالح دولته ولرفع سمعته شخصياً ، وهو في بداية عهده بالحجابة(4) وعلى كل حال ، فان الاحداث قد بررت بعد نظر المظفر الذي أحسن استقبال بني زيري وأكرمهم « اصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته

---

2 ـ راجع الذخيرة (1/4/60 - 62) .

3 ـ هو عبد الملك (المظفر) بن محمد (المنصور بن ابي عامر) . كان في أيام أبيه ينوب عنه في الحجابة للمؤيد ، وقد رافقه في كثير من غزواته ، بما في ذلك غزوته الاخيرة التي مات فيها . وقد كتب له المؤيد بولاية الحجابة في سنة 392 هـ ، فقام بشؤون البلد على سنة ابيه ، وكان من بين الاصلاحات الادارية التي استحدثها ، اسقاط سدس الجباية في البلد . ومثل ابيه كان شجاعا وسياسيا محنكا فكان يستبد بأمور الدولة بدون رقيب . وقد قاتل الافرنج وانتصر في عدة معارك ومات في غزوته السابعة بمقربة من أرملاط سنة 399 هـ ، راجع سيرته في الجذوة د (ص 271) والمغرب لابن سعيد (1/207) ، وبغية الملتمس د (ص106) الذخيرة د (1/4/55 - 66) البيان د (3/1 - 9) نفح الطيب د (1/423) الحلة السيراء د (1/269 - 270) .

4 ـ اعتمدنا رواية ابن الخطيب في اعمال الاعلام (ص261) وابن بسام في الذخيرة (1/4/61) وابن عذاري في المغرب (3/262) وابن الخطيب في الاحاطة (1/521) وجميع هؤلاء ذكروا صراحة ان مقدم زاوي الى الاندلس كان في عهد المظفر . وأما ابن خلدون فيذكر في =

وأوليائه على ما يرومه من قهر الدولة والتغلب على الخلافة ، ونظمهم في طبقات زناتة ورجالات البربر الذين أدال بجموعهم من جنود السلطان وعساكر الاموية وقبائل العرب »(5) .

ولكن ماذا حدث لمشروعات الجهاد التي حاول زاوي ان يبرر بها رغبته في العبور الى جزيرة الاندلس ؟ .

ان المعلومات المتوفرة لدينا تترك في نفسنا انطباعاً قويا بان زاوي انما قصد الى الاندلس للبحث عن مسرح لذكائه وعبقريته السياسية التي لم تمكنه

= العبر (179/6) ان زاوي وجماعته قد نزلوا على المنصور بن ابي عامر . وهذه الرواية الاخيرة هي التي اعتمدها عبدالله عنان في كتابه عن دول الطوائف ، لانها ، فيما يقول ، تتفق مع ما اورده الامير عبد الله بن بلكين في مذكراته (دول الطوائف ص 121) . وانا اعتقد ان قراءة متمعنة لنص ابن خلدون تكشف لنا بسهولة على انه ينطبق على المظفر الذي « يروم قهر الدولة والتغلب على الخلافة الخ . » لان المنصور كان لدى وفاته قد استقر له الامر منذ وقت طويل . وقد يقتضي الامر تصحيح هذا النص (وطبعة بولاق مليئة بمثل هذه الاغلاط) بحيث يكون ، ونزل (على عبد الملك بن المنصور) . وأما مذكرات الامير عبدالله فانها تشكو من عيب كبير وهو عدم ايراده التواريخ ، كما لاحظ ذلك محقق الكتاب ، ومتى ورد ذكر تاريخ فيها ، فينبغي ان نأخذه بكل تحفظ حيث ان الامير كان يكتب مذكراته في ايام محنته ولم تكن لديه المراجع التي يستند اليها لتحديد التواريخ . ونحن نلاحظ ايضا ان ابن خلدون لم يحدد نزول زاوي بالاندلس في سنة 391 هـ . كما أورده صاحب دول الطوائف ، وانما هو ذكر هذا التاريخ في سياق الحديث عن المعركة التي وقعت بين حماد وابناء زيري . واذا تذكرنا أن هذه المعركة وقعت في شهر رمضان ، اي في أواخر السنة المذكورة ، وان المنصور توفي في أواخر رمضان سنة392 هـ ، وأستحضرنا في أذهاننا صعوبة المواصلات في ذلك الحين وتردد المنصور الذي كان يخوض آخر غزواته في قبول طلب بني زيري ، أدركنا انه من المستحيل عمليا ان يشتركوا في الثورة ويهربوا الى الغرب حيث يشرعون في اتصالاتهم ويأتيهم رد ايجابي من الاندلس وينزلوا بالفعل في تلك البلاد ، وكل ذلك في ظرف ثلاثة أشهر ، وهي المدة التي تفصل بين سنتي 391 و392 هـ . وفيما يتعلق برواية ابن الاثير والتاريخ الذي أورده لوصول زيري الى الاندلس ، فقد سبق ان نبهنا الى خطئها ، ولكن هذا المؤلف يقول هو الآخر انهم نزلوا عند محمد بن ابي عامر (المنصور) .

5 ـ العبر (179/6) .

الظروف من استغلالها ، (هي وغيرها من صفات رجل الدولة التي يتصف بها) ، وان الرغبة في الجهاد والاستشهاد ربما كانت آخر ما كان يخطر بباله ، وزاوي ، مثل ابيه وبقية اخوته وابناء اخوته (مع استثناء اثنين او ثلاثة منهم) كلهم أمراء « لائييون » . وهم اقرب في مجموعهم الى الملوك الوثنيين منهم الامراء المسلمين ، وحماد وبلكين ، كلاهما يمثل هذه النزعة خير تمثيل .

والحق ان زاوي بن زيري انما رحل الى الاندلس لطلب الملك ، واذا لم يكن ذلك ممكنا بالدهاء والسياسة ، فسيستخدم المال ليخلق لنفسه مملكة بحياة البذخ وسمعة الكرم . السمعة التي تسمح له بالمحافظة على زعامته بين البربر من صنهاجة في ديار الغربة ، وبتوسيع دائرة نشاطه السياسي في الاوساط الحاكمة . وأما المال الضروري لمواجهة تكاليف هذه المعيشة ، فيبدو ان زاوي قد تزود منه بما يكفي واكثر مما يكفي . ورواية ابن بسام في هذا السياق تغنينا بوضوحها عن كل دليل آخر ، وذلك حين يقول :

« وأدخله (المظفر) بمن معه من اخوته ، وهم من سعة النعمة وبعد الهمم واستصغار الرغائب فيما يكون عليه أشباههم ، فاستقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته ، وما استقروا الدار الا في قلعة ، ولا حمدوا معروفهم ولا لبسوا أعالي المراتب السلطانية الا على ابتذال او محقرة ، ولا قطعوا أمد المقام بالاندلس الا بذكر الرحلة والتماس التسريح بكرة وعشية جهلا وفرط أنفة ، والاقدار موكلة بثني عزم عبد الملك عن اسعافهم بسراحهم لما كان قدره ـ عز وجلا ـ من الفتنة وتفريق شمل الاندلس باشباههم ، فلم يخرجوا عنها الا ان قاموا على الجماعة وشعبوا عليها بعد عبد الملك .

« وكان شيخهم ، زاوي ، أول دخوله الى الاندلس ، يظهر من انواع البر والبشر للناس ما لا شيء فوقه ، كان شأنه في الدهي والخلابة عجباً ! وكان يرجع في اقامة ما اعتاده من سعة انفاقه الى ما جاء به من بلده من عقود وذخائر ، فيبيع من ذلك النفيس والخطير ، وربما اشترى ذلك عبد الملك (المظفر) فيزيد في حسرته ، وكان عبد الملك راغبا في رفع منزلته ، وولاه الوزارة ، أرفع خطط أصحاب السلطان بالاندلس ، ووصل اليه الرسول بالصك في ذلك ، وطلب ان يصله عليه ، فقال : لوجئنا بمال لا سهمناك ، وانما خطتنا الحرب ، لا

الوزارة وأقلامنا الرماح ، وصحائفنا الاجساد(6) .

وهذه اللهجة التي تتسم بحظ غير قليل من القسوة والميل الى العنف ، لهجة عادية عند بني زيري في بلدهم ، ولكنه من المفهوم الا يستسيغها أمير اندلسي مرهف الحس مهذب الطبع ، على انه ، مع ذلك ، مضى في حسن معاملة هؤلاء الضيوف الثقلاء ، ولو ان تسامحه معهم لم يبلغ به حد الرضوخ لمطالبهم باعفائهم من تطبيق القوانين عليهم (والامراء الزيريون في بلادهم غير خاضعين للقانون ، فهم يصنعون ما يريدون دون ان يتعرضوا للعقاب) ، فان المظفر وقف بشأن هذه القضية موقفا متصلبا ، ولم يشأ ان يتنازل على اقامة الحد في أهل زاوي .

وقد حدث ان اعتدى احد ابناء أخي زاوي على مولى من الموالي العامريين فقتله . وما كان من عبد الملك الا ان أسلمه الى السياف لحينه وضربت عنقه ، بمقبرة كلاع على مشهد عظيم من الناس وأسلمت جثته الى أهله(7) .

وبصفة عامة ، فان بني زيري لم يكونوا راضين عن وضعهم تحت المظفر ، ولم يكن الامر ليكون غير ذلك ، اذا تذكرنا الجراحات القديمة التي لا تزيدها الغيرة والمطامع الا حساسية . فان ابن عذاري يخبرنا بانهم « كانوا يتحدثون بأشياء في جانب المظفر فيغضي لهم عنها » وازاء هذا الوضع ، لا بد وان يكون عبد الملك المظفر قد استقبل بشعور من الراحة مسعى بني زيري حينما دخلوا عليه ذات يوم وسألوه اتمام ما وعدهم به من الغزو - ألم يكونوا قد جاءوا لهذه الغاية بالذات ؟

ويقول ابن الاثير ان المظفر لم يكتف بالاستجابة لطلبهم بل عرض عليهم أيضا ان يمدهم بالجند ، ولكن الزيريين رفضوا عرضه ، قائلين انه لا

---

6 ـ الذخيرة (1/4/61-62) .

7 ـ نفس المصدر ، وأعمال الاعلام (ص262) والبيان (3/262) ، وفيه : « وكانوا في بلاد افريقية لا تأخذهم احكام الشرع وكانوا بها يستطيلون على الناس بما شاءوا من الشتم والعيث ، فلم يطيقوا ذلك بالاندلس بل اخذتهم احكام الشرع فأضمروا لذلك الحقد » .

يدخل معهم بلاد العدو « سوى الذين قدموا معنا من بني عمنا وصنهاجة ومواليها » ولذلك اكتفى بان اعطاهم الخيل والسلاح والاموال ، وبعث معهم دليلا الى أراضي جليقية وتركهم لحظهم وليجربوا هذه الاسلحة التي طالما افتخروا بها .

ويمضي ابن الاثير ، فيقول انهم دخلوا البلد ليلا وكمنوا ببستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا اشجاره فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد « فضربوا عليهم وأخذوهم وقتلوهم جميعا ورجعوا » .

وتسامع العدو فركبوا في اثرهم ، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة ، فلما جاوزهم العدو ، خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم (مُؤخرة الجيش) وكبروا ، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا ان العدد كثير ، فانهزموا وتبعتهم صنهاجة ، فقتلوا خلقا كثيرا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا الى قرطبة (8) .

وهذه الغزوة التي انتهت ، على كل حال ، بانتصار الصنهاجيين ، لا بد وان تكون قد اثبتت شجاعتهم ووطدت مركزهم في بلاط ابن ابي عامر ، ورفعت من شأنهم في الاندلس الاسلامية عموما ، ومكنتهم من الدور الرئيسي الذي لعبوه فيما بعد ، فيما يسمى بفتنة البربر .

وسبب هذه الاحداث الذي كان بمثابة شرارة للنار التي لم تلبث ان عمت الاندلس المسلمة كلها ، هو انه بعد وفاة المظفر تولى الحجابة اخوه ، عبد الرحمن بن المنصور ، الذي تلقب بالناصر ، ثم بالمأمون ، ويعرف أيضا بشنجول سنة (399 هـ)(9) .

ونظرا لان الحجابة قد استقرت بدون منازع في اسرة المنصور بن ابي عامر ، فقد زادت مطامع عبد الرحمن هذا واستهدف كرسي الخلافة نفسه ، فطلب الى هشام بن الحكم ان يوليه العهد ، فأجابه لذلك وعقد له بولاية العهد ، ثم استمر على سنة ابيه وأخيه في الحجر على الخليفة والاستبداد بالامر دونه .

---

8 ـ الكامل (9/32-33) .

9 ـ راجع نبذة عن سيرته وحكمه في البيان (3/38-50) الحلة السيراء (1/270) .

ولما سار في غزوة له ، ثار عليه ابن عبد الجبار (محمد بن هشام)(10) حفيد عبد الرحمن الاموي ، وخلع الخليفة هشام بن الحكم ، وعندما بلغته هذه الاخبار عاد سنجول أدراجه ، ولكن الجيش تخاذل عن مناصرته ، وقد خرج اليه ابن عبد الجبار فأحيط به وأخذ وذبح ثم صلب ، وبذلك انتهت الحجابة في أسرة المنصور بن ابي عامر .

وأما ابن عبد الجبار ، فانه سار ، بعد ما تلقى بيعه شكلية على رأس شرذمة « من الخدم والجزارين والزبالين » الى « الزاهرة » واستباح حرم آل عامر واستولى على خزائنهم وأموالهم ثم أمر بهدم المدينة العظيمة واقتلاع مرمر قصورها وأبوابها (جمادى الاخرة 399 هـ) .

وكذلك ترك ابن عبد الجبار العنان للغوغاء ، فكانوا يعتدون على كل من كان له منصب او مكانة في الدولة او بين قومه ولما كان رؤساء البربر من زناتة وصنهاجة ، ممن تقوم على كواهلهم الدولة العامرية ، فقد كانوا في مقدمة من تعرضوا للأذى وسوء المعاملة ، وذلك على الرغم من ان بعضهم كانوا من مؤيدي الانقلاب .

وعندما سار زاوي بن زيري الى القصر راكباً فرسه ، احتُبِسَ بالباب ، وكلما تقدم خطوة ردوه الى الخلف وقرعوا رأس فرسه ، فلما أكثروا من ذلك قال لهم زاوي : هذه رأسي فاضربوا فالدابة لا ذنب لها » .

وفي اليوم التالي من ولاية ابن عبد الجبار ، نهبت دور بني ماكسن بن زيري ودور زاوي بن زيري ودور أخرى لغيرهم من زعماء البربر .

ولما تمكن زاوي وحبُّوس وحباسة ابناء ماكسن بن زيري ، من الدخول على ابن عبد الجبار وأخبروه بما تعرضوا له من العدوان ، اعتذر لهم في نفاق ، ووعدهم بتعويض ما نهب منهم .

ومن جهة اخرى بلغت اخبار الى البربر بان ابن عبد الجبار يستعد للفتك بهم ، والبربر كانوا يعرفون ان ابن عبد الجبار كان عدواً للعامريين ويكره

10 ـ راجع سيرته في الجذوة (ص88) بغية الملتمس (ص129) نفح الطيب (426/1 - 428) الحلة السيراء (12/2 - 16) .

الامويين ، ولكن بغضه وحقده الحقيقي كان ينصب على البربر ، ومن ثم ، فلا مجال للاستهانة بمثل هذه الاخبار ولذلك اخذوا يستعدون للحرب .

ثورة البربر (11).

على ان ثورة ابن عبد الجبار لم تلبث ان انقلبت ضده ، فقد نقم عليه أهل الاندلس كذبه وتزويره وعبثه بالامن العام ، فبايعوا خليفة آخر (هشام بن سليمان) .

وبعد مقتل هذا الخليفة في معركة مع ابن عبد الجبار ، خرج البربر وعلى رأسهم زعيمهم زاوي بن زيري ، ومعهم سليمان بن الحكم (ابن أخ هشام المقتول) من قرطبة ، ولما انتهوا الى فحص هلال(12) جمعهم زاوي وقام خطيبا فيهم . ولكي يجسم معانيه لهؤلاء البربر الذين يعرف انهم قلما يفهمون سوى المحسوس ، حزم خمسة رماح وشدها بعناية ثم دفعها لأشد الحاضرين قوة وقال له : اجهد نفسك في كسرها واغمزها ، ففعل الرجل القوي ولكنه لم يفلح في كسرها ، وعندئذ دعاه الامير الزيري الى حلها وطلب اليه ان يعالجها رمحاً رمحاً ، ففعل الرجل ولم يصعب عليه كسرها .

واثر ذلك ، أقبل زيري على رأس البربر وقال لهم :

« هذا مثلكم يا برابرة ! ان اجتمعتم لم تطاقوا،وان تفرقتم لم تبقوا »
والجماعة (أهل الاندلس) في طلبكم ، فانظروا وعجلوا !
فقالوا : نأخذ بالوثيقة ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة .
فقال لهم زاوي بن زيري : بايعوا لهذا القرشي (سليمان) يرفع عنكم الانفة

---

11 ـ قارن بشان ثورة (فتنة) البربر ، روايات الكامل (679/6 - 681) البيان (59/3 وما يليها) نفح الطيب (426/1) الحلة السيراء (5/2 وما يليها) العبر (150/4) جذوة المقتبس (ص17) اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس ص4) الذخيرة (25/1/1) بقية الملتمس (ص20 - 22) المعجب في اخبار المغرب (ص42 - 45) .

12 ـ الفحص في لغة أهل الاندلس مواضع عدة ، بل ان الكلمة تعني كل موضع مسكون سهلا كان او جبلا بشرط ان يكون مزروعا ، وأما فحص هلال فاني لم اهتد الى التعرف عليه .

في الرئاسة وتستميلون اليكم العامة بالجنسية ففعلوا .

فلما تُمّت البيعة ، قال ان هذا الحال لا يقوى على اهـل الا شطالة ، وطلب اليهم ان تقييد كل قبيلة منهم رئيسا لها يتكفل بها ويكون مسؤ ولا عنها لدى الخليفة ، وأما فيما يتعلق بصنهاجة فقد أعلن زاوي انـه هو المسـؤ ول عنها .

ويمضي صاحب الاحاطة الذي ينقل هذه الحوادث عن ابن حيان (ابي مروان) فيقول :

« وامتـارت بطـون القبائـل علـى أرحامهـا ، وقبائلهـا الـى أفخانهـا ، وفصائلها ، فاجتمع كل فريق على تقويم سيده ، فاجتمعـت صنهاجـة علـى كبيرها ، زاوي ولم تزل تلك القبائل المتألفة بالاندلس لطاعة أميرها المنادين له(13) الى ان أورثوهم بالامارة »(14) .

وبعد هذا التنظيم للرئاسـة علـى المستـوى القبلـي ، تحـت الخليفـة سليمان ، الذي لقبوه بالمستعين نهض البربر ، وعلـى رأسهـم الخليفـة الـى طليطلة وجمعوا الجيوش واستنجدوا بالنصارى ، ثم عادوا الى طرقبة ، وخرج اليهم ابن عبد الجبار ودخل الفريقان في معركة حاسمة في تاريخ الاندلس في مكان يسمى بقَنْتِيش(15) انتهت بهزيمة ابن عبد الجبار ، ودخل سليمان قصر قرطبـة ومعـه زاوي ، زعيم البربـر ، في منتصف ربيع الاول سنـة400 هـ ،

---

13 ـ كذا في النص المحقق وهو غير واضح المعنى ، وقد أورد المحقق نص الكملة كما وردت في نسخة أخرى (ص553 هامش7) برسم : « المغادين » ويبـدو لي ان الاولى تصـحيح الكلمة وقراءتها : « المنقادين » وبذلك يستقيم فهم النص .

14 ـ نفس المصدر (ص522 - 523) .

15 ـ يقع هذا المكان في شمال شرقي القليعة ALCOLEA غـير بعيد من ملتقـى وادي أرمـلاط GUALMELLOTS بالوادي الكبير وقد وردت الكلمة باشكال مختلفة في الرواية الغربية : FUENLES أوPUENLES ، كما رسمها صاحب بغية الملتمس :

فنتيش ، وبعد هذه المعركة تطور الخلاف بين المسلمين الى أزمة يواجه فيها البربـر بقية طوائف ارسكاند في الاندلس . بعدما تفوضت دعائم الخلافة الاموية وأصبحت أسلحته النصارى متحكمة في الموقف .

وبويع بالخلافة بيعة عامة وتسمى حينئذ « الظافر بحول الله » ، بالاضافة الى لقب « المستعين بالله » الذي خلعه عليه البربر من قبل .

وأما عبد الجبار (المهدي) ، فقد أفلت من المعركة واختفى مدة ، ثم سلك بدوره طريق طليطلة وحصل على مدد من النصارى الذين كانوا دائما على استعداد للنجدة ما دام الامر يتعلق بمساعدة فريق من المسلمين للقضاء على فريق آخر . ولما عاد الى قرطبة خرج اليه سليمان المستعين بالله ودخل الطرفان في معركة في مكان يسمى « عقبة البقر »(16) انتهت بانتصار عبد الجبار الذي استعاد الخلافة للمرة الثانية (5 شوال400 هـ/ مايو1010 م) .

وإثر ذلك خرج المستعين هائما على رأس البربر يعيثون في الارض فسادا وينهبون ويقتلون في فورة من الجنون الجماعي دون ان تعترضهم قوة . وبعد جولات من القتل والارهاب انتقم فيها البربر للمذابح التي تعرضوا لها هم انفسهم على يد العرب والاندلسيين اتجه البربر الى الجزيرة الخضراء ، حتى يقتربوا من المجاز الى افريقية ، متى دُفِعوا الى ذلك ، فان ابن عبد الجبار قد حصل على مساعدة عسكرية من النصارى وأخذ يتعقبهم في هذا الاتجاه .

ولما التقى الجمعان كرّ سليمان على جيش عبد الجبار وحلفائه من النصارى وشتت شملهم ثم طاردهم في اتجاه قرطبة ـ قرطبة التي كان الامن فيها مختلا والمذابح تجري في مختلف احيائها ـ .

وفي صدر شوال سنة403 هـ دخل سليمان والبربر قرطبة عنوة واستباحوها ، وغيب الخليفة سليمان الخليفة الاقدم هشاماً المؤ يد . وأما زاوي فقد كانت أهم غنائمه عند استباحة قرطبة هو رأس ابيه زيري بن مناد الذي كان منصوباً على أسوار المدينة ، حيث استولى عليه وأرسله الى افريقية ليدفن هناك(17) . وعقب ذلك انتقل المستعين بالله مع الجيش والبربر الى

---

16 ـ عقبة البقر EL - VACAR حاليا حصن يقع على مسافة نحو عشرين كيلو مترا في شمال قرطبة ، ذكرها الادريسي (ص3) باسم « دار البقر » .

17 ـ لم يكتف زاوي بالحصول على رأس ابيه ، بل انه استوهب ، فيما يذكر ابن عذاري في البيان ، من علي بن حمود يوم قتل سليمان بن الحكم رأسه ايضا ، حنقا على بني مروان المُهْدَي اليهم رأس زيري ، وقد أسعفه الخليفة الحمودي بذلك ، ونقل رأس سليمان من الاندلس الى افريقية . راجع البيان (129/3) .

مدينة الزهراء . ولكن المدينة ضاقت بهم ، ولذلك اضطر كثير من البربر الى النزول في الضواحي . وقد كان من بين فرق الجيش البربري التي ضربت معسكراتها خارج المدينة ، فرقة العلوية التي كان يقودها الاخوان علي والقاسم ابنا حمود اللذان سيتوليان خلافة قرطبة على التوالي ، بعد سليمان(18) .

وبعدما استقر الامر لسليمان بقرطبة ، أخذ يوزع الولايات على كبار انصاره من البربر مكافأة لهم على معاضدتهم ، ولكن أيضا رغبة في التخلص من ثقل وصايتهم .

وكذلك عين علي بن حمود واليا على سبتة وولى أخاه القاسم الجزيرة الخضراء ، وقسم بلاد الاندلس التي كانت تتكون من ست ولايات على رؤساء قبائل البربر التي استقرت في الاندلس فأعطى مغراوة الجوف ، ومنذر بن يحيى سرقسطة ، ومنح بني يفون جيان وما والاها ، وبني دمر وازداجة شذونة ومرور ، بني بزرال ؟ قرمونة ، وولى زاوي بن زيري بن مناد على رأس صنهاجة البيرة(19) وما والاها ، بما في ذلك غرناطة ، التي كانت آنئذ قرية صغيرة معظم سكانها من اليهود .

---

18 ـ أخذنا كثيرا من مواد الفقرات السابقة من الفصل التاسع من كتابنا ، دولة الادارسة ملوك فاس وتلمسان وقرطبة .

19 ـ البيرةelvira بالاسبانية ، وتسمى أيضا لبيرة وبلبيرة ، والتسمية مأخوذة من الاسم الايبيري القديمelibiri ، ومعناه المدينة الجديدة . وقد كان هذا الاسم يطلق في أواخر الفتح العربي على الاقليم الذي اتخذ فيما بعد اسم غرناطة ، كما ذكر صاحب الروض المعطار ، وقد كانت البيرة عاصمة غنية مزدهرة واسعة العمران حتى هجرها سكانها عند قيام ثورة البربر ، وذكر ابن سعيد أنها كانت « قاعدة المملكة في القديم ، ولها ذكر شهير ومحل عظيم الا ان رسمها قد طمس » . وينسب الى مدينة البيرة خلق عظيم أورد ياقوت قائمة طويلة باسماء بعضهم في معجم البلدان (1/244 - 245) . وقال الحميري في وصف البيرة « انها من كور الاندلس ، جليلة القدر ، وكانت حاضرة البيرة من قواعد الاندلس الزاهرة ، ولكنها خربت أيام الفتنة وانفصل أهلها الى غرناطة » صفة جزيرة الاندلس (ص25 - 30) تقويم البلدان (ص76) المغرب لابن سعيد (2/93) القزويني : أثار البلاد (ص502) مراصد الاطلاع (1/111) الادريسي (ص175) راجع ايضا :
Gomez moneno , de ibirri de grenada , bolt . de la real acadimia de la historia (1905 - 1 - 44 - 61) ; dozy , recherches sur L'Histoire et la litterature de L'espagne (I - 327 - 340) .

ماذا كان دور زاوي بن زيري وأبناء أخيه في هذه المعارك الدامية التي كانت الاندلس الاسلامية مسرحاً لها طيلة حوالى ثلاث سنوات ؟

ان المصادر الموجودة بين ايدينا حاليا ضنينة بالتفاصيل ، ولكننا مع ذلك نستطيع ان نأخذ فكرة عن الشجاعة التي أبداها بنو زيري والمجهود الحربي الذي قدموه ، متى تأملنا حالة حباسة بن ماكسن بن زيري (شقيق حبوس) وما أبداه من ضروب البسالة في المعارك التي ترك فيها حياته .

يقول لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة في وصف هذا الامير ما يلي :

« كان (حباسة) شهما هيبا بهمة من البهم ، كريما في قومه أبيا في نفسه صدرا من صدور صنهاجة ، وأشجع من اخيه حبوس »(20) .

ويمضي ابن الخطيب وينقل عن أبي مروان (ابن حيان) عند ذكر وقعة « رمداي) في حروب البربر (شوال سنة 402 هـ) والتي قتل فيها هذا الامير ، فيقول :

« واستلحم حباسة بن ماكسن الصنهاجي ابن أخي زاوي بن زيري ، وهو فارس صنهاجة طرا » وفتاها : وكان قد تقدم الى هذه الناحية ـ زعموا ـ لما بلغه اشتداد الامر فيها ، فرمى بنفسه على طلابها ، واتفق ان ركب بسرج طري العمل متفتح اللبد ، وخانه مقعده عند المجاولة لتقلبه على الصهوة ، وقيل انه منتبذاً على ذلك ، فتطارح على من بازائه ، ومضى قدما بسَكْرىَ شجاعته ونشوته ، يصافح البيوت بصفحته ، ويستقبل القنابلَبَّاتِه ، لا يعرض له شيء الا حطه الا ان مال به سرجه ، فاتيح حمامه لانشغاله بذلك ، بطعنة من يد المسمى النبيه النصراني ، أحد فرسان الموالي العامريين ، فسقط لغيه ، وانتظمته رماح الموالي ، فأبادته وحامى أخوه حبوس وبنو عمه ، وغيرهم من انجاد البرابرة على جثته ، فلم يقدروا على استنقاذها ، بعد جلاد طويل ، وغلب عليه الموالي ، فاجتزوا رأسه وعجلوا به الى قصر السلطان وأسلموا جسده العامة ، فركبوه بكل عظيمة واجتمعوا اجتماع البغاث على كبير الصقور فجروه في الطرق وطافوا به الاسواق ، وقطعوا بعض أعضائه ، وأبدوا شواره

---

20 ـ الاحاطة (492/1) .

وكبده بكل مكروه من أنواع الاذى بأعظم ما ركب ميت ، فلما سئموا اجراره أوقدوا له نارا فحرقوه بها ، جريا على ذمام عادتهم ، وقبح المثلة ، ولؤم القدرة ، وانجلت الحرب في هذا اليوم لمصابه ، عن أمر عظيم ، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله ، ورأت أن دماء أهل قرطبة جميعا لا تعد له »(21) .

***

كان اختيار سليمان بن الحكم لزاوي لولاية البيرة في محله ، حيث صادف هوى في نفوس سكان هذه الولاية ورغبتهم . وعندما أعلن زاوي رغبته في الرحيل الى افريقية في فترة تالية ، أعلنوا تمسكهم بالزيريين ، فيما يقول الامير عبد الله ، ودعوهم الى الاقامة بأرضهم ، ومشاركتهم خيراتها ، والالتزام بالدفاع عنها ، والشيء المؤكد هو ان البربر لم يجدوا في ولاية البيرة وغرناطة تلك البغيضة التي تركوها في قرطبة .

وبعد فترة قصيرة من الاقامة في البيرة انتقل الزيريون الى قرية غرناطة التي شرعوا في تحصينها وفي بناء القصور والمنازل بها .

---

21 ـ الاحاطة (494/1) . الجدير بالتنويه ان رواية ابن عذاري تختلف في التفاصيل عما ذكره ابن الخطيب . وفي البيان ان حباسة كان في رفقة خمسة فرسان من بينهم محمد بن خزرون في آخر ذي الحجة سنة اثنين واربعمائة ، ونزلوا بغربي وادي قرطبة وسرحوا دوابهم فاذا جمع أهل قرطبة عاينوهم من وراء الخندق وهم آمنون قد نزعوا لجم دوابهم ، فانقضوا عليهم ، فما استوى حباسة على فرسه وركب اصحابه الا والقوم قد غشوهم وكانوا سبعين فارسا ، ولما كان حباسة يحتقر أهل قرطبة ولا يعبأ بهم ، لشجاعته وبسالته ، فقد واجههم مع رفقائه وقتلوا من أهل قرطبة عددا كبيرا ثم طعنه أحدهم طعنة تجدل منها صريعا عن فرسه فأخذ اسيرا ، فلما عرفوه قتلوه وقطعوه قطعا ، وتهادوا لحمه فأكلوه ، لما كان أكثر من قتلهم وما جربوه من شجاعته وشده نكايته ولو أنهم عرفوه قبل أخذه ما تجاسر أحد عليه (3/111 - 112) . وطبقا لهذه الرواية ، فان أخاه حبوس وعمه زاوي ساروا في صباح اليوم التالي وقاتلوا أهل قرطبة قتالا شديدا « حتى لو قال قائل انه لم يفلت منهم أحد لصدق » ولما عرف اخوه حبوس فيما بعد قاتل أخيه ، استخرجه وقتله وأضرم النار في داره وحرقها وأخذ أمواله وجواريه (نفس المصدر3/115) .

وأما علاقات الزيريين بقرطبة فقد أخذت تضعف شيئا فشيئاً ، ولكن زاوي مع ذلك لم يقطع الدعوة للخليفة ، بل ظل دائما متمسكا بلقب الحاجب ، وهي سنة سيسير عليها خلفه حبوس بن ماكسن وباديس من بعده ، وذلك حتى سقوط مالقة في يد الآخير وزوال خلافة الحموديين فيها . ولكنه لما قرر علي بن حمود الوثوب على اخلافة في الاندلس ، باتفاق مع الفتيان العامريين ، كان زاوي بن زيري من العناصر القوية التي ساهمت في المؤ امرة للاطاحة بنظام المستعين بالله .

ولما نزل علي بن حمود بمالقة(22) قادما اليها على رأس اسطول من سبتة فتنازل له عنها عاملها ، عامر بن فتوح ، وسلم اليه مقاليد المدينة . وعقب ذلك ، سار خيران العامري ومن اجابه الى الدعوة للادريسي واجتمعوا بالمنكب(23) التي تقع بين المرية ومالقة ، في سنة 406 هـ ، وهناك قرروا الخطط العسكرية والسياسية التي سينتهجونها ، ثم عاد كل منهم الى مدينته ليتجهز للزحف على قرطبة .

وإثر ذلك بايعوا علي بن حمود على طاعة هشام المؤ يد وساروا في اتجاه

---

22 ـ مالقة malaga ، مدينة من اعمال ريّة على شاطىء البحر ، بين الجزيرة الخضراء والمرية ، وصفها الادريسي (ص200) بانها مدينة حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار ، متسعة الاقطار بهية كاملة ، اسواقها عامرة ومتاجرها دائرة ونعمها كثيرة ، وقال ابن سعيد في كتاب الجغرافيا انها اشتهرت بالتين ، واللوز الذي يحمل منها الى الاقطار ، وذكر عبد المنعم الحميري ان لها ربضين كبيرين . راجع صفة جزيرة الاندلس (ص177 - 178) معجم البلدان (43/5) المغرب لابن سعيد (421/1) الحلل السندسية (الفهرست) كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص140) تقويم البلدان (ص174 - 175) معيار الاختيار لابن الخطيب (ص5 - 13) .

23 ـ المنكب تسمى حاليا almunecar ، فرضه صغيره على البحر تابعة لمركز غرناطة الاداري وتقع على مسافة 23 كيلومتر شرقي هذه المدينة ، وصفها الادريسي (ص199) بانها « مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك وبها فواكه حمة » وبهذا المرسي خرج عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الى الاندلس في ربيع سنة138 هـ ، راجع وصف المنكب في صفة جزيرة الاندلس (ص186) الحلة السيراء (348/2) كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص140) .

قرطبة ولما بلغوا غرناطة ، انضم اليهم زاوي بن زيري على رأس جيش من صنهاجة .

ولدى وصول الجيوش المتحالفة الى ضواحي قرطبة ، خرج اليهم سليمان على رأس قوات من البربر ونشب قتال بين الطرفين انتهى بهزيمة سليمان ودخول علي بن حمود قرطبة (محرم سنة 407 هـ ـ يناير 1016 هـ) وهناك بويع الادريسي بالخلافة وتلقب بلقب الناصر لدين الله . وبعد ما قتل سليمان المستعين بالله بيده ، استتب الامر لعلي ، وأخذ يعمل لتدعيم سلطان الخلافة الذي تضعضع الآن على الولايات .

ظل زيري على ولائه لبني حمود واستمر على حمل لقب الحاجب ، ولكن بعض الامراء والولاة الذين بايعوا عليا على الطاعة لهشام المؤ يد ، لم يلبثوا ان أداروا له ظهورهم حينما اكتشفوا ان هشاما قد مات . وقد كان يتزعم هذا الفريق الفتى خيران نفسه الذي استقدم عليا من العدوة والذي شرع الآن في البحث عمن هو أصلح منه للخلافة .

وقد دله بحثه بين بقايا بني امية على عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الاموي(24) الذي كان قد خرج من قرطبة مستخفيا اثناء ثورة البربر ونزل بجيان(25) .

كان عبد الرحمن الذي بايعه خيران واصحابه بالخلافة ولقبوه المرتضى يكره البربر كرها قويا أبى الا ان يعبر عنه في قصيدة منها قوله :

قد بلـغ البربـر فينـا بنا ما أفسـد الاحـوال والنظما

كالسهـم للطائـر لولا الذي فيه من الـريش لمـا أصما

قومـوا بنـا في شأنهـم قومة تزيل عنـا العـار والرغما

---

24 ـ راجع سيرته في المعجب (ص 49) الكامل (272/9) جمهرة أنساب العرب (ص 93) البيان (21/3) وفيه ان جده اسمه عبد الله وليس عبد الملك الذخيرة (397/1/1) المغرب (106/2 هامش 1) نفح الطيب (431/1) الحلة السيراء (208/1 ـ 209) .

25 ـ راجع تفاصيل عن ثورة المرتضى في الفصل العاشر من كتابنا ، دولة الادارسة ملوك فاس وتلمسان وقرطبة .

والقومية التي تمناها على البربر ، هي التي كفله خيران باعداد وسائلها . فقد راح يجمع له الانصار والاعوان من الاندلسيين الذين كانوا على مذهبه في الخلافة وعلى رأيه في البربر ، فراسل منذر بن يحيى التجيبي(26) ، صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، كما كاتب اهل شاطبة(27) وبلنسية(28) وطرطوشة(29) وغيرها ، فأجابوه كلهم الى بيعة خليفته والى الشقاق على علي

---

26 ـ ابو الحكم ، ويلقب بالحاجب المنصور ذي الرئاستين ، كان في بداية حياته جنديا بسيطا ليس له سوى المام بالكتابة ، وترقي الى القيادة في عهد المنصور بن ابي عامر ، ثم ولاه سليمان سرقسطة ، فاحسن ادارة الولاية وازدهر العلم والثقافة فيها بحيث كانت تنافس قرطبة ، راجع سيرته في البيان (13/3 و 175 و 178) المغرب (435/2) الذخيرة (152/1/1) اعمال الاعلام (الجزء الخاص بالاندلس ص 226 - 231) نفح الطيب (الفهرست) الحلة السيراء (246/2) .

27 ـ شاطبة jativa ، مدينة في شرق الاندلس من اعمال بلنسية ، تقع على ارتفاع 500 قدم على مستوى البحر ، على سفح جبل . وقد اشتهرت شاطبة بصناعة الورق الذي كان يصدر منها الى مختلف الاقطار . وصفها الادريسي (ص 192) بانها « مدينة حسنة ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمناعة ، ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير في معمور الارض » راجع وصف شاطبة ايضا في معجم البلدان (309/3 - 310) تقويم البلدان (ص 168) نفح الطيب (الفهرست) المغرب (379/2 - 381) وكذلك (11/120), Dozy recherches .

28 ـ بلنسية Valencia ، مدينة تقع في شرق الاندلس على مسافة اربعة كيلو مترات من البحر في مستوى من الارض ، وصفها الادريسي (191 - 192) بانها « عامرة القطر كثيرة التجارة والعمارة وبها اسواق وتجارات وحط واقلاع » . راجع وصف بلنسية في كتاب الجغرافيا (ص 167) صفة جزيرة الاندلس (ص 47) الحلة السيراء (الفهرست) المغرب (297/2 - 301, 309 - 317) معجم البلدان (490/1 - 491) وكذلك Dozy , hist des musulmans D'espagne (الفهرست) .

29 ـ طرطوشة Tortosa ، مدينة اندلسية تقع على ضفة اليسرى لنهر أبرة غير بعيد من دلتة على مسافة 115 ميل من بلنسية و150 ميل من برشلونة ، وهي قصبة ولاية طركونة ، وصفها الادريسي بانها مدينة صغيرة متحضرة ولها أسوار منيعة ، راجع وصفها في الادريسي (ص 191) صفة جزيرة الاندلس للحميري (ص 124 - 125) كتاب الجغرافيا (ص 167) المغرب (421/2 - 423) نفح الطيب (الفهرست) معجم البلدان (30/4 - 31) تقويم البلدان (الفهرست) ، وكذلك ، Almany bolufer , la peninsula ibirace en los eseritores arabes (p . 97 - 98).

ابن حمود ، فاجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في سنة 408 هـ ، ومعهم الفقهاء والشيوخ ، وجعلوا الخلافة شورى واتفقوا على بيعة المرتضى .

وقد اشتد ضغط العامريين حتى شملت الثورة شرق الاندلس كله « وأصبحت قرطبة مهددة ، بحيث فكر علي بن حمود في الجلاء عنها ولكنه ، بدلا من ذلك قرر السير على رأس جيشه لملاقاة خصمه ، المرتضى عند جيان(30) ولكنه بينما كان جيشه ينتظره خارج القصر ، كان هو قد دخل الحمام حيث قتله ثلاثة من عبيده من الصبيان (في 28 من ذي القعدة 408 هـ) .

ولما بلغه خبر مقتل أخيه ، سار القاسم بن حمود الذي كان واليا على اشبيلية الى قرطبة حيث بويع بالخلافة(31) وتلقب بالمأمون .

---

30 ـ جيان بالفتح ثم التشديد jaen ، مدينة تقع في شمال الاندلس على نهر الوادي الكبير في شرقي قرطبة ، وصفها صاحب الروض المعطار بانها كثيرة الخصب ، وان لها ما يزيد ثلاثة آلاف قرية تربّى فيها دودة الحرير ، وذكرها ابن سعيد وقال نقلا عن الرازي إنها « مملكة جليلة معروفة بالمحارث والاخشاب ، بين غرناطة وطليطلة » . ووصفها الادريسي وغيره باوصاف مشابهة ، وجيان اليوم واحدة من مديريات منطقة الاندلس الثمان مع ولبه وقادس واشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة والمرية . راجع وصفها في معجم البلدان (2/195 - 196) الذي أورد قائمة باسماء العلماء والادباء الذين ينتمون اليها والمغرب (2/149) الادريسي (ص202 - 203) الحلة السيراء (2/121) المذا الهمذاني يقول ان بها معدن الفضة ومعدن الزئبق (ص 287) كتاب الجغرافيا (ص167) الحلل السندسية (1/127 - 128) البيان (الفهرست) صفة جزيرة الاندلس (ص70 - 71) نفح الطيب (الفهرست) .

31 ـ يرجع نسب علي والقاسم الى ادريس الاول : فهما ابنا حمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس الثاني بن ادريس الاول ، خصصنا لملكهم في الاندلس القسم الثاني من كتابنا ، دولة الادارسة ، ويمكن الرجوع في اخبار هذا الفرع من السلالة الادريسية ايضا الى المصادر التالية : الجمهرة (ص50 - 51) البيان (3/, 242 230 , 318) (الذخيرة (1/1/78) الجذوة (ص 21) الحلل السيراء (2/26 - 27) المعجب (ص43 - 44 , 49 - 50) نفح الطيب (الفهرست) العبر (4/151) الاحاطة (طبع عنان 1/241) اعمال الاعلام (الجزء الخاص بالاندلس ص120) بغية الملتمس (ص22) ، راجع شجرة نسبهم في كتابنا دولة الادارسة .

وفي هذه الاثناء زحفت جيوش خيران وخليفته، المرتضى ومنذر بن يحيى وحليفه النصراني صاحب برشلونة ، متجهين الى قرطبة (سنة 409 هـ) ، ولكن الحفاء ، قبل الهجوم على عاصمة الخلافة ، رأوا ان يستولوا اولا على غرناطة ، عاصمة بني زيري ، حيث ظل زاوي على ولائه للحموديين .

وعندما وصلوا الى جوار غرناطة كتب المرتضى الى زاوي بن زيري ، يدعوه الى اعلان طاعته ويعده بوعود جميلة ، فلما قرأوا الكتاب على زاوي ، قال لكاتبه : أكتب على ظهر رقعته : « **قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد** » الخ السورة .

ولما تسلم المرتضى هذا الرد ، اغتاظ ووجه الى زاوي كتاب تهديد ووعيد . ومرة أخرى رد عليه زاوي على نفس رقعته بآية قرآنية : « **الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** » الخ .

والسؤال الذي يرد على الذهن بشأن موقف زاوي هذا الذي يتسم بالعجرفة والكبرياء ، هو كيف أجترأ الامير الزيري على هذا التحدي للأمويين، وهو يعلم حق العلم ان خليفة قرطبة الجديد ليس في وضع يسمح له انجاده ، حيث كان يواجه مصاعب داخلية في غاية التعقيد ، كما انه لا يوجد من بين جيرانه من يستطيع مد يد المساعدة اليه للوقوف في وجه الجيوش المتحالفة ؟ فان شجاعة زاوي وجرأته التي كانت مضرب المثل ، لا تكفي لتفسير هذه المخاطرة .

ان سر هذا الموقف يمكن ان نستخلصه من رواية ابن بسام الذي تعرض لهذه الاحداث بشيء من التفصيل .

يقول ابن بسام انه لما جاء منذر التجيبي في جيشه مع الافرنج وغيرهم للاجتماع بالمرتضى بشاطبة اجتاز (بلنسية) فاغلق عليه واليها ، المبارك ابواب المدينة ومنعه من الدخول اليها (وكان المبارك هذا من أنصار المرتضى) .

فلمااجتمع منذر بالمرتضى (بشاطبة) أغراه بان يخرج معه مبارك لغزو قرطبة ، فلم يجبه المرتضى لذلك ، وأقام غدر مبارك وأقعده خلفه لجمع

الاموال وانفاذها اليه فأحفظه هذا التصرف عليه فجمع ابن مسوف وخيران العامري واتفقوا على الغدر بالمرتضى ، فمالوا الى غرناطة وقالوا : « لا يصلح ان نسير الى قرطبة ووراءنا هذا العدو (زاوي) ثم دسوا الى زاوي وأسروا اليه بالمؤ امرة بالغدر بالمرتضى(32) .

هذه المعلومات التي تضمن لزاوي نصراً محققا قليل التكاليف ، وضعته في موقف القوة المطلقة وسمحت له بان يبدي ذلك الصمود المتعجرف ، في الوقت الذي كان فيه الخليفة الاموي يجهل المؤ امرة التي حيكت حوله .

فلما أصبحوا شد المرتضى هجومه على غرناطة ، وللامعان في التضليل والسخرية بالموالي العامريين ، جعل منذر يحرضهم لتوريطهم وهو يقول :

- اين انتم معشر ارباب المملكة المؤ ثيرين على كل طبقة ! اين اصحاب الوظائف العليا ؟ هذا يومكم ، تقدموا !

وكذلك خرجت صنهاجة بقيادة زاوي لمواجهة العامريين وحمي وطيس المعركة التي استمرت أياما ، ولما اشتد القتال ، أمر خيران بادناء المحلة الى قرب حومة القتال .

وبعد ذلك زُحْزِحَتْ صنهاجة عن مواقعها ، ولكن البربر « شدوا شدة منكرة » فانحاز منذر وخيران لاول وقتها وانهزما ، ولم يستطع احد الثبات بعد ذلك(33) وبذلك انتصر جيش زاوي الذي لا يزيد عدد أفراده عن الف فارس على جيوش الحلفاء التي كان يبلغ عدد رجالها اربعة آلاف فارس .

وأما الخليفة الاموي العاثر الحظ ، فبعد ما أبدى كثيرا من الشجاعة في القتال اضطر الى الفرار وتعرض له العامريون وقتلوه غدرا .

وعقب هذه المعركة ، كتب زاوي بن زيري الى الخليفة المأمون في قرطبة يخبره بتفاصيلها ويقدم اليه نصيبه من الغنائم العظيمة التي فاز بها والتي كان من جملتها سرادق المرتضى وقد رأى القاسم بن حمود ان يعطي هذا

---

32 - الذخيرة (1/1/399 - 340) .

33 - نفس المصدر (1/1/400) .

الانتصار ما يستحقه من الدعاية والاعلان بين أهل قرطبة ، فضرب هذا السرادق على نهر المدينة وغشيه المشاهدون من علية القوم من الاندلسيين الذين تأملوا نتائج أسلحة البربر وادركوا الآن ان المروانية قد ذهبت الى غير معاد .

وبمناسبة هذا النصر الذي لم يكن فيه يد للخليفة ، في الحقيقة ، يقول الرعيني الاعمى(34) يمدح المأمون ويذكر خيران ومقتل المرتضى المرواني ولكنه لا يشير الى بطل المعركة زاوي :

لك الخير خير ان مضى لسبيله ... واصبح ملك الله في ابن رسوله
وفرق جمع الكفر واجتمع الورى ... على ابن حبيب الله بعد خليله
وقام ولاء النصر فوق ممنع ... من العز جبريل أمام رعيله
وأشرقت الدنيا بنور خليفة ... به لاح بدر الحق بعد أفوله
فلا تسأل الايام عما أتت به ... فما زالت الايام تأتي بسوله
ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه ... واقبل حزب الله فوق خيوله
كتائب صنهاجة وزناتة ... تضايقن في عرض الفضاء وطوله
تقدم خيران اليها بزعمه ... ليدرك ما قد فاته من دخوله

وأما زاوي بن زيري الذي حققت على يده الدولة الحمودية اعظم انتصاراتها منذ ان استولى علي على قرطبة ، فبدلا من ان يستقر في عاصمته ، غرناطة ، ويعزز نفوذه ويوسع رقعة مملكته ، فقد شعر بالانزعاج والقلق وقرر العودة الى موطن اجداده افريقية .

ومرة أخرى يقدم لنا ابن بسام تفسيراً معقولا لهذا القرار الذي يبدو غريبا ، حيث يقول : « ولهول ما عاينه زاوي من اقتدار أهل الاندلس في تلك الحرب وجعجاءهم به واشرافهم على التغلب عليه مما هان معه سلطانه ، نظر في عاقبة أمره ودعا جماعة قومه مستنصحا ، فعصوه في ذلك لطيب معيشتهم بالاندلس فلم يثنه ذلك عن عزمه »(35) .

---

34 ـ في رواية صاحب الذخيرة (396/1/1) وأما المقري فيعزو القصيدة في نفح الطيب (485/1) الى عبادة بن ماء السماء ، وقد أورد ابن عذاري القصيدة في البيان (130/3) دون ان يعزوها الى أحد .

35 ـ الذخيرة (1 / 1 / 401)

وفي مكان آخر يقول صاحب الذخيرة :

« فكان من أغرب الاخبار في تلك الدولة الحمودية ، انزعاج ذلك الشيخ زاوي بن زيري عن سلطانه ولفظه لما كان يلوكه من فلذة كبد أهل الانـدلس أرض البيرة بأثر الفتح العظيم الذي أتيح له على المرتضى ومن كان معـه من عساكر الاندلس ، فأخذ في عبور البحر حين صفا له العيش وأخضـر عوده ، ووقم العدو وفل غربه(36) .

وينقل ابن بسام عن ابن حيان قوله :

« وحُدِّثْتُ عن السبب المزعج لزاوي يومئذ في ارتحاله ، وذلك انه لما انهزم المرتضى ، قال زاوي لقومه : كيف رأيتم ما قد حصـل منـه ؟ قالـوا : عظيما ! قال : فلا تتناسوه ، وتغالطوا انفسكم بعده ! ان انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، انما جره مع القضاء غدر مملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا ، فاني عرفت ذلك من يوم نزولهم ولذلك ما كنت اقوي نفوسكم ، وقد نجانا الله منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدموا الآ رئيسهم ، واستخلافـه هيّن عليهم ، ولست آمن عودهم جملة اليكم ، فيما بعد ، فلا يكون لنا قوام بهم ، فالرأي الخروج عن ارضهم واعتنام السلامة مع احراز الغنيمة والرجوع الى الجملة التي انفصلنا عنها كانفين للعيال والذرية ، مباعدين لهم لما وراءنا من أهل جنسنا ، زناتة ، الاعداء الذين لا يغفلون عنا ، وان غفلت الخليفة ، ولا سيما وقد فرقنا فرحهم ونبشنا أحقادهم المدفونة ، فان فرغوا لنا على قلة عددنا ، وظاهروا علينا الاندلس وقعنا منهم بين لحيي أسد « وها أنا قد أديت لكم النصيحة فانا راحل عن الاندلس ، فمن أطاعني ، فليرحل معي »(37) .

وكذلك جمع زاوي أمواله التي كانت « شيئا كثيرا لا يعد » حسب تعبير ابن الاثير ، مضافا اليها الغنائم والذخائر والتحف التي استولى عليها ، بعـد هزيمة جيوش العامريين والامويين وشحن كل ذلك في عدد مهم من السفن ،

---

36 ـ نفس المصـدر (402/1/1) قارن الاحاطـة (=/525) العبــر (160/4 - 161) البيان (28/3) .

37 ـ الذخيرة (403/1/1) .

وأبحر من ميناء المنكب في سنة416 هـ(38) واتجه الى افريقية حيث استقبله المعز (بن باديس) وغيره من الاقارب وابناء العمومة الذين كانوا من الكثرة بحيث يقال ان ألف أمرأة كن ذوات محرم من بنات اخوته وبناتهن وبنات ابنائهن لم يكن يحجبن أنفسهن عنه .

كانت رحلة زاوي بن زيري التي استغرقت قرابة ربع قرن غريبة وطويلة ، فهذا الرجل الذي رفع لواء الثورة ذات يوم في قلعة حماد وتحدى السلطان باديس قد اخطر الى الهجرة عن أبائه وأجداده واللجوء الى اعداء اسرته ، سيخوض غمار ثورات رهيبة ويقود صنهاجة التي خذلته في أرض الوطن الى النصر في أكثر من معركة واحدة في الاندلس وينتهي به الامر الى بناء ملك في ارض الغربة والى تشييد مدينة ستكون قاعدة لحضارة لم يتح للبربر اقامة مثلها في المغرب . فاذا كانت المثابرة والصبر والشجاعة والذكاء ومعرفة قيادة الرجال ، هي الخصائص المميزة للملوك ، فان زاوي ، على الرغم من ان التاريخ لم ينقل الينا كثيرا من سيرته ، كان بطلاً وملكاً عظيما ،ولعل هذه الكلمات التي سجلها ابن الخطيب عنه هي خير ما نختم به هذه الفقرات عن دور زاوي بن زيري الذي تودعه الاندلس :

« كان زاوي كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذكر ، أصيل المجد ، المثل المضروب في الدهاء والرأي والشجاعة والانفة والحزم . قال بعضهم أحكم التدبير والدولة تسعده ، والمقدار(39) ينجده ، وحكيت له في الحروب حكايات عجيبة »(40) .

***

---

38 ـ اعتمدنا رواية ابن الخطيب في الاحاطة (524/1) وابن عذاري في البيان (128/3) . علي بن الخطيب ذكر في اعمال الاعلام (ص63) ان زاوي قد رحل عن الاندلس في سنة 420 هـ وهي ايضا رواية ابن خلدون في العبر (79/6) واما ابن الاثير فقد أورد (259/9) الخبر ولكنه لم يورد تاريخ الرحلة .

39 ـ بمعنى القدر .

40 ـ الاحاطة (522/1) .

الفصل الثالث

عهد حبوس بن ماكسن

لما قرر زاوي الرحيل عن الاندلس استخلف على مملكة غرناطة ابنه جلالي الذي ودعه في المنكب ومعه زعيم البلدان وكبير فقهائها ابن ابي زمنين(1) . على ان سكان غرناطة من الشخصيات لم يكونوا راضين عن ولاية ابن زاوي ، وقد شعروا بانه يريد القبض على بعضهم فبعثوا الى ابن عمه(2) ماكسن بن زيري(3) الذي كان معتصما بحصن أشْر(4) .

وبعد ما ركب البحر عمُّه ، اتجه حبوس الى غرناطة على رأس موكب تتقدمه الطبول ، وخرج سكان المدينة لاستقباله .

---

1 ـ كذا في الاحاطة (1 / 485) وفي اعمال الاعلام (ص153) والتراجم الموجودة حاليا لا تساعدنا على معرفة ابن ابي زمينن والمؤكد انه ليس هو محمد بن عبد الله الذي ترجم له ابن الفرضي وصاحب الجذوة وغيرهما ، وذلك لان الاخير ولد في سنة 324 هـ وتوفي في سنة 399 هـ ، ولربما كان ابنا له او من افراد العائلة .

2 ـ في العبر : الى ابن اخيه .

3 ـ رواية ابن خلدون ، وأما ابن بسام فيذكر في الذخيرة ان جلالي قد « دبر مع بعض بني عمه القبض على قاضي البلد ، ابن أبي زمنين ، ولكن الاخير عرف بالمكيدة ، فاتجه الى حبوس ، راجع الذخيرة (403/1/1) .

4 ـ من حصون غرناطة القديمة ، وصفه الادريسي بانه يبعد عن باغه بـ18 ميلا وانه « حصن حصين كثير العمارة آهل ؛ وله سوق مشهور » (ص204) ورد هذا الاسم برسم آش غلطا في الذخيرة .

ويبدو ان جلالي لم يتوقع هذه الحركة من ابن عمه ولم يستعد لها ، لانه لما رآه وقف حائراً لا يدري ما يفعل ، بعدما افسد عليه خطة ولايته .

وقد اتجه حبوس فور وصوله الى قصبة غرناطة التي كان زاوي قد حصنها وحط رجله فيها ، وبذلك اتضحت الامور للطرفين من غير جدال ولا خصام .

وإثر ذلك خرج حبوس لتوديع ابن عمه الذي لحق بابيه الى افريقية . وفي هذا الوداع العائلي عاتب جلالي ابن عمه على المظاهرة العسكرية التي دخل بها غرناطة والتي أثرت في نفسه اكثر مما أثر فيها استيلاؤه على السلطان قائلا :

« أهذا دخول مكتئب بفراق عشيرته ؟ هو بدخول شامت أشبه ! كأنك فتحت بلداً وطردتَ عدواً ! » .

فاعتذر له حبوس قائلا : انه لم يدخل المدينة بتلك الطريقة الا لرسم الامارة وارهاب الرعية(5) .

كان حبوس بن ماكسن الذي عرفنا نبذاً من اخباره متمرسا على السياسة والحرب وقد كان الساعد الايمن لزاوي في قيادة صنهاجة والبربر أثناء ثورة المستعين بالله . ومما يدلنا بوضوح على الدور السياسي الذي قام به ، فيما بعد ، انه لما اعتزم علي بن حمود الوثوب على قرطبة كان حبوس وخيران الصقلبي أكبر رجاله الذين اعتمد عليهم في الاندلس لتنظيم انقلابه ولاعطائه صبغة شرعية .

فان ابن عذاري يخبرنا ، نقلا عن المظفَّري ، ان عليا بن حمود حينما خرج من بيته الى مالقة في سنة405 هـ ؛ أخرج كتابا نسبه الى هشام المؤ يد يقول فيه : انقذني من أسر البربر والمستعين (بالله) وانت ولي عهدي ، ووجه به الى حبوس الصنهاجي وخيران العامري ، وقالا له : « انهض الى مالقة وبها يتم امرنا »(6) فاقبل اليها على رأس اسطوله ، وجيشه ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ويمضي هذا المؤ رخ فيقول :

---

5 ـ قارن الاحاطة (485/1) العبر (160/4 - 161) اعمال الاعلام (الاسم الخاص بالاندلس (ص153) صبح الاغشى (5 / 251) الذخيرة (1 / 1 / 403) الكامل (9 / 286) .

6 ـ البيان (116/3) .

« ولما وصل علي من سبتـه الى مالقة أظهر انه ما وصل إلا لنصرة هشـام (المؤ يد) فانحاش اليه جماعة من الناس واتاه خيران الصقلبي ، وزاوي بن زيري ، وحبوس بن ماكسن بن زيري ، واخوته ، وبنو عمه الصنهـاجيون ، فعظم شأنه وقوي أمره »(7) .

واذا كانَ خيران العامري ، هذا الطموح الانتهازي ، قد تخلى على علي ابن حمود منذ المرحلة الاولى ، وانشـق بالمـرية عن خلافـة الادارسـة ، فان حبوس قد استمر على سنة زاوي بعد رحيل عمه وبقي على الدعوة والولاء لبني حمود ، وعلى الرغم من الاستقلال الذي كانت تتمتع به غرناطـة في مختلف عهود هؤ لاء الخلفاء ، فقد ظل مقتنعا بلقب الحاجب ، في الوقت الذي كان يستطيع فيه ان يعلن انفصال دولته عن الخلافة بكل سهولة ، كما فعل غيره ، مثل خيران وابن عبَّاد ، صاحب اشبيلية وهو لم ينفصل عن بني حمود حتـى بعدما أفلتت قرطبـة من يدهـم واصبـح حكمهـم منحصـراً في مالقـة وبعض الولايات الثانوية .

واكثر من مجرد التمسك بالولاء الرسمي للحمـوديين ، فان حبـوس قد دافع عنهم بجيوشه وبنفسه ، فعندما سيّر المعتضد بن عبّاد جيش اشبيلية الى زهير العامري ، لانه رفض الخطبة باسم صنيعته ، هشام المشبه ، واستمر على الدعوة لبني حمود ، سار حبوس لنجدة المرية مع محمد بن عبدالله البرزالي ، زعيم زناتة (في ذي القعدة سنة 427 هـ) ، واضطر جيش اشبيلية الى التراجع بدون قتال .

وقد تعقب الحلفاء جيش ابن عباد من جهـة استجـة(8) في يوم 5 مـن الشهر ، ثم زحفوا في اتجاه اشبيلية واحتلوا قرية طشانـة(9) وقاتلـوا حصـن

---

7 ـ نفس المصدر .

8 ـ تقع استجة على نهر شنيل الذي يمر بغرناطة . وصفها الادريسي (ص 205) بانها مدينة حسنة وبها اسواق عامرة ولها بساتين وجنات ملتفة . ويقول الحميري انها اشتهرت بالثورات والخروج عن الطاعة ، راجع وصفهـا في صفـة الانـدلس (ص 14 - 15) معجـم البلـدان (174/1) المغرب (الفهرست) .

9 ـ هكذا رسمها الادريسي (ص 174) وابن الابار في الحلة السيراء (35/2) . وفي البيان (191/3) طشتانة ، وهي tocina ، في مديرية اشبيلية حاليا ، راجع ايضا نفح الطيب (50/3)

زغبونة(10) واقتربوا من اشبيلية يوم10 من الشهر واحرقوا طريانة(11) ، وفي يوم11 منه احتلوا حصن القصر(12) . وهناك انعقدت البيعة بينهم لادريس بن علي الحمودي(13) ثم انصرفوا الى قرمونة ، وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته ، وانصرف كل منهم الى عاصمته وعاد زهير الى المرية حيث أعلن الخطبة لادريس في منتصف شهر ذي الحجة من السنة(14) .

والسياسة التي انتهجها الخلفاء الحموديين في قرطبة نحو البربر والتي تقوم على اضطهاد هذا العنصر وحرمانه من العدل في عهد علي ، ثم في عهد اخيه القاسم بعده ، لم يكن لها أي تأثير على ولاء حبوس لقرطبة ، كما ان كره الفتيان العامريين للبربر لم يحل دون تحالف صاحب غرناطة معهم وتقديم المساعدة لهم حين يطلبون اليه ذلك .

وتفسير ذلك هو ان حبوس كان يضع الاعتبارات السياسية فوق الاعتبارات العنصرية التي شاهد نفسه آثار الخراب المادي والادبي الذي الحقته بالاندلس في غضون جيل واحد ، ولكن الشيء الذي يدعو الى الاستغراب ، هو ان هذا الملك الذي عاش احداث المغرب ويعرف جيدا أصله وأصل صنهاجة التي تعرضت من أجله لكثير من الاضطهاد والعنف ، كان مع ذلك

---

10 ـ لم اهتد الى التعرف على هذا الحصن .

11 ـ مدينة تمتد على شاطيء النهر الاعظم في مقابل النصف اشبيلية ، وهي مسورة من جهة الصحراء . راجع وصف طريانة في المغرب لابن سعيد (293/1 - 294) صفة جزيرة الاندلس (ص126 - 127) نفح الطيب (الفهرست) .

12 ـ وصفه ابن سعيد بانه من الحصون المشهورة التي في الشرق ، وقال ان ابن عباد كثيرا ما يتفرج بوادي الطلح بجهته . راجع المغرب (296/1) الادريسي (ص174) والى هذا القصر ينسب الفيلسوف ابن حبيب القصري .

13 ـ هو ادريس بن علي بن حمود الحسني بويع بمالقة بعد مقتل اخيه يحيى بن علي سنة427 هـ ، وأقام بها الى ان توفي ودفن بسبتة ، راجع القسم الثاني من كتابنا ، دولة الادارسة ملوك فاس وتلمسان وقرطبة ، والمراجع المحال اليها فيه .

14 ـ قارن البيان (190/3 - 191) الاحاطة (485/1) الكامل (286/9) راجع ايضا :

Dozy , hist . des musulmans d'espagne (IV 25 - 26)

ولنفس المؤلف : Abbad - (II - 34)

يحاول ان يقنع نفسه بالاسطورة التي تجعل هذه القبيلة تنحدر من أصل حميري ، أي عربي .

وفي هذا السياق يخبرنا ابن بسام(15) بان حبوس كان يميل الى الادب ويصغي اليه وانه ينتمي للعرب للاثر المقفوّ في صنهاجة ، وأنه كان يؤثر كتاب التيجان لابن دريد ، في مناقبهم ولا يغبّ عن سماعه ومطالعته (16) .

وحبوس على كل حال ، لم ينس على تطاول العهد ، ايام صنهاجة وزناتة في المغرب ، ذلك النزاع الذي كان سبباً في كثير من القتل والخراب أجيالاً عديدة والذي كان جده ، زيري ، من اعظم ضحاياه .

يذكر ابن بسام نقلا عن الوزير ابن زيدون ان حبوس سأل يوما محمد بن عبد الله البرزالي (الزناتي)(17) في بعض التقائهما عن سنه ، فقال :

ـ اين كنت يوم قتل محمد بن الخير (في معركة انتصرت فيها صنهاجة) فأجابه محمد مسرعاً :

---

15 ـ الذخيرة (404/1/1) .

16 ـ لا أعرف أحدا من المؤلفين غير ابن بسام ذكر كتاب التيجان ، وهو لم يرد في قائمة مؤلفات ابن دريد التي ذكرها كل من صاحب هدية العارفين وابن خلكان وصاحب مقالة « ابن دريد » في دائرة المعارف الاسلامية .

17 ـ موطن بني برزال الاصلي ، هو منطقة الزاب الاسفل بالجزائر . وقد ظلت هذه المنطقة (المسيلة وما والاها) تحتفظ باستقلالها بعد استيلاء العبيديين على الزاب الاعلى (من البحر حتى قسنطينة) الذي كان خاضعا للاغالبة حتى اخضعوه على يد القائد علي بن حمودون الذي اختط مدينة المسيلة . وبعد حروب طويلة بين زناتة وصنهاجة قتل فيها زيري بن مناد ، انتهى الامر بهجرة جعفر بن علي بن حمدون الى الاندلس حيث دخل في خدمة الحكم المستنصر واستأذنه في هجرة بني برزال الى الاندلس ، فاذن لهم وعبر عدد كبير منهم الى العدوة ، ودخلوا في خدمة الخلفاء الامويين ، ثم استعان بهم المنصور بن ابي عامر . وبعد ثورة البربر . ولى زعيمهم كما ذكرنا محمد بن عبدالله البرزالي قرمونة واستجة ، والمدور ، وقد وصف ابن عذاري محمد بن عبدالله بانه « كان يلي باديس من ملوك البرابرة في جلالة الشأن وقوة السلطان . وكان من اعظم امراء البربر وأشدهم دهاء ورجولة وأبصرهم بتدبير العساكر ، واربطهم جأشا على الخطوب » راجع اخبار البرازلة في البيان في عدة مواضع .

ـ كنت يوم قتل زيري بن مناد يفعة وشهدت وقعته مع قومي وانا ابن كذا ! (18) .

وذات يوم سأله : اشهدت يوم تلمسان ؟

فأجابه محمد : لا ! أول مشاهدي يوم كرض ! (يوم انهرمت صنهاجة) وقتل زيري ، (وأما يوم تلمسان ، فقد انتصرت فيه صنهاجة)(19) .

ومن الواضح ان حبوس كان يهدف الى تغيير زناتة وتذكير زعيمها بهزيمة منكرة قتل فيها نفسه زعيمهم ، محمد بن الخير وسُبِيَتْ نساؤه ، ولكن سرعة بديهة خصمه ذكّرت حبوس بهزيمة اخرى تكبدتها صنهاجة وتمس ملك غرناطة شخصيا من قريب .

وهذه المساجلات كانت فيما يبدو ، بمثابة الملح للطعام في المحادثات التي تجري بين زعيمي زناتة وصنهاجة الذين لم تحل تركة الماضي الثقيلة دون تعاونهما وتعاضدهما عند الملمات في الاندلس ، كما رأينا في تحالفهما ضد ، ابن عباد .

ولكن تضارب مصالح الملكين وتجاور مملكتهما وكثرة ما يحبك من المناورات في كل مكان في ذلك الوقت ، في الاندلس ، عوامل أثّرت على العلاقات بين محمد بن عبدالله وحبوس بن ماكسن . ولربما كان اتساع رقعة مملكة غرناطة في عهد هذا الملك الذي ضم الى ملكه ولايات ومدن قبره وجيان وغيرهما ، وزادت بذلك قوته وثروته ، من أسباب فساد الامر بينهما ، في أواخر أيام حبوس .

والرسالة التي أورد نصها ابن بسام والتي وجهها حبوس ابن ماكسن الى عبد الله تعتبر وثيقة تاريخية ذات قيمة كبيرة في سياق محاولة تحديد العلاقات بين غرناطة وقرمونة ، وذلك على الرغم من أنها لا تحمل تاريخا ، على ان هذه الفجوة نستطيع ان نملأها ـ على وجه التقريب ـ لحسن الحظ .

---

18 ـ الذخيرة (404/1/1) .

19 ـ نفس المصدر .

فنحن إذا تذكرنا ان تحالف حبوس مع محمد بن عبدالله وزهير ضد محاولات ابن عباد لاخضاع المرية ، قد وقع في ذي القعدة سنة 427 هـ ، وان حبوس قد مات في سنة 429 هـ حسب رواية ، أو في سنة 428 هـ ، حسب رواية أخرى ، عرفنا ان هذه الرسالة كتبت ، إما في اواخر سنة 427 هـ ، او في اوائل سنة 428 هـ . ، او هي على أقصى تقدير ، كتبت قبل شهر رمضان سنة 429 هـ ، وبعبارة أخرى في غضون العشرين شهراً الاخيرة من حياة حبوس بن ماكسن .

ولكن الرسالة التي بين أيدينا ليست رسالة عدائية صريحة وانما هي تمثل آخر مرحلة في حوار ارتفعت لهجته واشتدت في رسالة اخرى ، لم تصل الينا ، وجهها محمد الى حبوس ورد عليها ملك غرناطة بهذه الرسالة التي تضع النقاط على الحروف وَتُحَمِّل البرزالي تبعية القطيعة وتتهمه بالمبادرة في افساد العلاقات .

وهذه الرسالة التي أوردها ابن بسام لقيمتها الادبية بوصفها قطعة من النثر الفني الجميل وانموذجاً لكتابة الرسائل ، نوردها نحن هنا بنصها لقيمتها التاريخية حيث تحدد لنا مرحلة حاسمة في تطور العلاقات بين زناتة وصنهاجة في الاندلس ـ تلك المرحلة التي ستعقبها ، في عهد باديس مرحلة الحرب السافرة ، كما سنرى ، والرسالة بقلم الوزير الكاتب ، ابي عبدالله البزلياني (20) .

يقول الملك حبوس :

« من النصح تقريع ومن الحفاظ تضييع ، لكل مقام مقال ، اذا دعي به عنه استحال ، وصل إلي منك كتاب طمست منحاه وعميت معناه ، أومأت فيه الى النصح ، ودللت على سبيل النُّجحْ ، فوقفتُ على فصوله ومعانيه ، وأحطت علما بجميع ما جاء فيه ، ولم يكن لمن اوحشت جهته وتغيرتْ مودَّته أن يدخل مدخل الناصحين ، وقد خرج من جملة المشفقين ؛ وكان بالجملة أوله سباب ، وآخره إعجاب ، والسباب لا ينطق به كريم ، والاعجاب لا يرضى به

---

20 ـ وصفه ابن بسام بانه « احد شيوخ الكتاب وجهابذة اهل الادب ممن ادرك الملوك ودبرها وطوى الممالك ونشرها » الذخيرة (139/2/1) .

حليم ، وقد نزهني الله عن المقارضة بهذا ومثله ، وما أحسن قول القائل :

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالافعال لا بالتكلم

فان كنت أردتَ ان تستصلح مني بسبك فاسدا ، وتستقرب من ودِّي باستطالتك مباعدا ، فما هذه شيَم يقضي بها الفضل ، ولا سياسة يحكم بها العقل ، وان كنت أردت التخويف والايعاد ، والابراق والارعاد ، فقد كفاني بيت الكميت :

ابرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

وانا أحد البرابرة لا أخرج عن جماعتهم ولا أبعد عن مواقفهم ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم :

وما انا الا من غزيَّة إن غَوَتْ غويتُ وإن ترشُد غزيّة أرشد

واما قولك : « فمن كان متبوعا فلا يستقيم ان يكون تابعا ، ومن عرف في النادي مطاعا لم ينقلب مطيعا ، الا ان يصادف هدى العمرين واجدر بذلك ان يبعد » ، فقد أزريتَ على كل خلافة ، وبيّنت انك خارج كل فرقة ، وان غرضك المحامات عن عزك ، والمرمات دون حرزك ، وليس هذا نظر مشفق ، ولا قول محقق ، اذ لا تتمُّ ديانة الا بامامة يدعى اليها ، وتجري السنن عليها ، الا في مذهب نافع بن الازرق(21) وعبد ربه واشباههما » .

وتمضي الرسالة :

« وما ذكرته من الذي وقع بين الطائفتين من بني عمنا بالعدوة ، فكل أمر بقدر ، ولكل نبلٍ مستقر ، والدنيا أحوال ، والحروب سجال ، وخيرهم وشرهم عنا بعيد ، وكل من نصرك وأيدك ، فهو القريب الودود ، وان تفرقت الاباء والجدود ، ومن شذَّ عن الجماعة وفارقها ونابذها وشاقها ، فهو الجاني

---

21 ـ يشير الملك حبوس الى نظرية الخوارج من اتباع نافع بن الازرق في الخلافة ، ومؤداها ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من المسلمين ، واذا اختير ، فليس يصح ان يتنازل او يحكم كما صنع علي بن ابي طالب (ع) ، وليس من الضروري ان يكون الخليفة قرشيا بل يصح ان يكون من قريش ومن غيرهم ، ولو كان عبداً حبشيا . واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب ان يخضع خضوعاً تاما لما أمر الله به والا وجب عزله . راجع تفاصيل اوفى في فجر الاسلام لاحمد أمين ، وفي المصادر التي أحال اليها (ص-265 256) .

على نفسه والجار لسوء العاقبة اليه واليها ، وأكثر الوبال واقع على الظالـم ، والله ولي التوفيق » والهادي الى سواء الطريق »(22) .

ومن هذه الرسالة يبدو لنا بوضوح ان الشقاق بين الـزعيمين البربـريين منشؤة موقف كل منهما من الخلافة الحمودية التي يبدو ان محمد ابن عبدالله قد خرج عنها ، ويريد ان يدفع حبوس الى اعلان الاستقلال عنها هو الآخر ، ولكن ملك غرناطة ظل يتمسك عن ايمان بهذا الرمز الـذي لا تزال تتعلـق به بعض الولايات ، على الرغم مما اعتراه من الضـعف والوهـن ومـن الشقـاق والخلاف الذي يسود أسرة الادارسة الحموديين .

ومن الرسائل التي تكشف عن علاقات صاحب غرناطة بدويلة أخرى من جيرانه تلك الرسالة التي كتبها حبوس الى صاحبي شاطبة (مبارك والمظفر) ، وهي وان كنا نرجح ان حبوس قد كتبها قبل رحيل زاوي(23) لا انهـا تدل بوضوح على ما كان يسود العلاقات بين الولايتين من الود وحسن الجوار .

وهذه الرسالة أيضا بقلم الوزير الكاتب ، ابي عبدالله البزلياني ، يقول حبوس مخاطباً صاحبي شاطبة .

« وقد عقد الله بيننا عقودا قادها للاختيار وفي طول الامـد ، وتسـرب المدد ، وتباعد الـديار ، وتقلـب الليل والنهـار ومـا يحيل الاحـوال ويقطـع الامال ، ويشفق منه الضنين ، وتسوء منه الظنون ، ولا سيما في هذه الفتنة التي تبلّد الحليم ، وتخلط الصحيح بالسقيم ، وانا لكما الصفيُّ الذي لا تقدح الايام في وده والوفي الذي لا تخشاه الانام على عهده ، واذ لا سبيل الـى ان أؤدي معتقدي في ذلك مشافهة ، فاني انبأته مكاتبة مع من ينطق بلساني ، ويشفـق بجناني الصق اسرتي نسباً ، وافضل حاصتي حسبـاً ، واصدقهـم عنـي خبـراً وأحمدهم في السفارة أثراً ، الوزير ، فلان »(24) .

---

22 ـ الذخيرة (141/2/1) .

23 ـ أي قبل مبايعة شاطبة لعبد العزيز بن ابي عامر ، تلك المبايعة التي يقول ابن خلدون انها وقعت في سنة 411 هـ ، راجع العبر (161/4) البيان (158 - 163) .

24 ـ الذخيرة (145/2/1) .

بقي الآن أن نعرض للخلاف بين الروايتين بشأن وفاة حبوس ، فان ابن الخطيب يذكر في أعمال الاعلام(25) وفي الفصل الذي عقده لمن تداولوا أمارة غرناطة في الاحاطة(26) ان حبوس توفي في شهر رمضان سنة 429 هـ (يونيو1038 م)، ولكنه يقرر في الفقرة التي خصصها لحبوس من الكتاب الاخير انه مات في سنة 428 هـ ، (1037 م)(27) . ولكنه لما كانت سنة 429 هـ هي التي ذكرها كل من ابن خلدون(28) ، والقلقشندي(29) وابن الاثير (30) وابن عذاري(31) ، لوفاة حبوس ، فنحن نعتمد هذا التاريخ .

كان حبوس بن ماكسن سياسيا داهية وقائد شجاعا حازما بعيد الصيت بين ملوك الطوائف ، وفي عهده اتسعت مملكة غرناطة بحيث أصبحت تشمل مدنا مهمة مثل قبره وجيان اللتين استولى عليهما بالسيف ، كما نظم الجيش وحشد الجند ، وقد كان الساعد الايمن لعمه زاوي ومستشاره الامين ، وقد كانت سياسته الخارجية تتسم ببعد النظر ، فكان يرتبط بتحالف ودي مع جيرانه ، وقد بلغ به التسامح الى حد ان يتناسى النزاع الطويل الذي كان بين صنهاجة وزناتة

---

25 ـ القسم الخاص بالاندلس (ص263) .

26 ـ الاحاطة (146/1) تجدر الاشارة الى ان اغلاطا تسربت الى هذه الصفحة فات المحقق وهو متخصص في تاريخ الاندلس ، ان يصححها وينبه اليها وأهمها ان ابن الخطيب يذكر ان زاوي ملك غرناطة سبع سنوات فقط ، مع ان ملك زاوي امتد فترة تختلف حسب الروايتين اللتين اشرنا اليهما بشأن تاريخ رحيله عن الاندلس ما يتراوح بين12 سنة و16 سنة ، وثانيهما انه ذكر انه بعد موت حبوس ولي حفيده عبدالله بن بلكين ، مع ان الذي خلف حبوس في الملك هو باديس ، ابنه ، كما سيقرر المؤ رخ ذلك صراحة فيما بعد .

27 ـ الاحاطة (485/1) وهذا التاريخ هو الذي اعتمده عبدالله عنان ، محقق الاحاطة في كتابه دولة الطوائف (ص124) وهو في رأينا غلط كان الاولى تصحيحه في الاحاطة بدلا من اعتماده في عمل آخر .

28 ـ العبر (160/4 - 161) .

29 ـ صبح الاعشى (251/5) .

30 ـ الكامل (268/9) .

31 ـ البيان (264/3) .

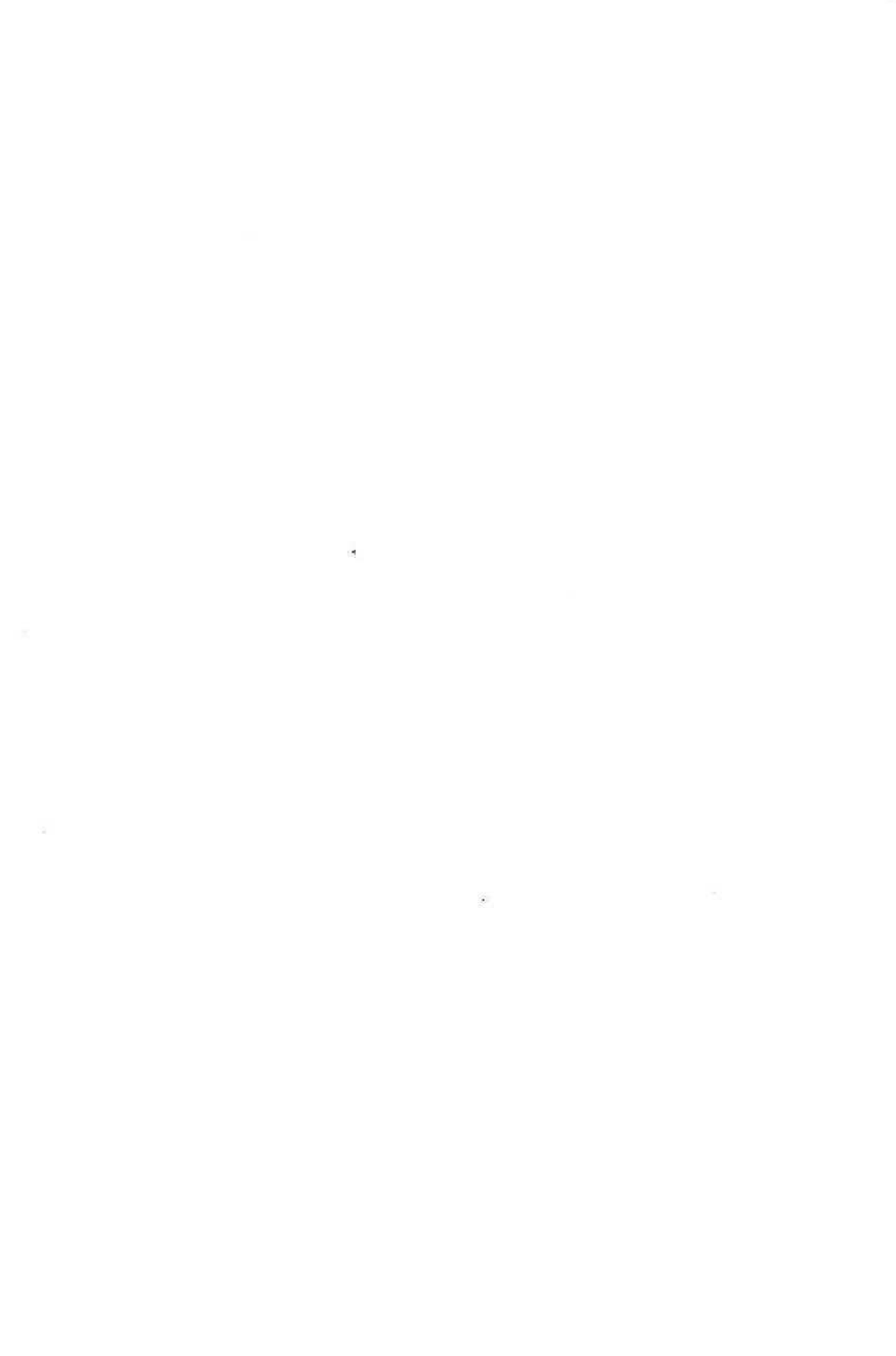
التي قتلت جده في المغرب ويتحالف مع البرازلة ، اصحاب قرمونة ، وكذلك قاوم حبوس الاغراء الذي يشعر به ملك مقلة ويعمل لاستقلال مملكته والانفصال عن خلافة بني حمود ، كما صنع ابن عباد ومجاهد ، وخيران ، وغير هؤلاء ، بل ظل متمسكا برمز وحدة المسلمين طيلة حياته ، على الرغم مما سببه له ذلك من المضايقات بين أقرانه .

لقد كان في استطاعة حبوس حينما قتل يحي بن حمود (المعْتلي) أمام أسوار قرمونة على يد اسماعيل بن عباد ، في سنة 427 ، ان يستغل فرصة الفراغ في كرسي الخلافة ويعلن استقلال غرناطة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، بل على العكس ، جمع حلفاءه وأعلنوا البيعة لابنه ، ادريس (المتأيد بالله) .

ولهذه الاعتبارات كلها أشاد مؤ رخو الاندلس بذكر حبوس ووصفه المؤ رخ الكبير ، ابن حيان ، معاصره ، بانه أحد برابرة الاندلس الذين يعتد بهم وأنه كان على قسوته « يصغى الى الادب وينتمي في العرب للاثر المقفوٍ في قومه صنهاجة ، وكان وقورا حليما فظا مهيبا نزر الكلام ، قليل الضحك كثير الفكر ، شديد الغضب ، شجاعاً ، حسن الفروسية جباراً متكبرا داهية واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له في كل ذلك اخبار مأثورة »(32) .

---

32 ـ نقله صاحب الذخيرة (404/1/1) .



الباب الثاني

عهد باديس بن حبوس



الفصل الأول

باديس وجيرانه

لما توفي حبوس بن ماكسن ، ترك ولدين ، بلكين وباديس الذي كان اكبر الاخوين ، ونظرا لأن حبوس لم يولي أحدهما العهد في حياته ، فقد قام خلاف بشأن من يتولى الامر بعده ، فحاول بعض البربر وبعض اليهود (وكانوا جماعة كبيرة العدد قوية النفوذ في غرناطة) ، رفع بلكين الى العرش ، ولكن تيارا أقوى من البربر والعرب واليهود (وفي مقدمتهم اسماعيل بن نغرالة) كان يميل الى باديس .

وبعدما اشتد النزاع وأوشك ان يتحول الى حرب أهلية ، أعلن بلكين من تلقاء نفسه تنازله عن العرش لصالح اخيه . ولما أقسم يمين الولاء لباديس ، اضطر انصاره الى ان يحذوا حذوه ، وبذلك اصبح ابو مناد(1) باديس (المظفر بالله الناصر لدين الله) رئيسا لصنهاجة خلفا لأبيه وملكاً غير منازع لمملكة غرناطة (2) .

ورث باديس ، فيما ورثه عن أبيه ، مع العرش ، مشكلة العلاقات مع جيرانه وهي مشكلة مثلثة الاضلاع ، ونعني بذلك علاقات غرناطة مع خليفة مالقة الأدريسي ، وابن عباد صاحب اشبيلية والبرزالي ، صاحب قرمونة .

---

1 ـ يكنى باديس ايضا ابا مسعود .

2 ـ راجع الاحاطة (1/68-69) العبر (6/180) البيان (3/167-266) الادريس (ص203) المغرب لابن سعيد (2/107) الحلة السيراء (الفهرست) اعمال الاعلام (الجزء الخاص بالاندلس264) .

ونحن قد رأينا في رسالة حبوس الى عبد الله البرزالي ، كيف كان الاخير ينعى على حبوس تمسكه بالولاء للخليفة الادريسي ، ورضاه بالتبعية ، في الوقت الذي يريد فيه هو ان يكون متبوعا » ، وكيف ان حبوس كان متمسكا بالامامة على مذهب أهل السنة ، وهذا المذهب هو الذي اختاره باديس الذي كانت مملكته تتمتع بما يمكن ان نسميه الاستقلال التام ، ولكنه مع ذلك لم يتلقب بالقاب الملك ، بل استمر على حمل لقب « الحاجب » التقليدي والذي يجب نلاحظ ان معناه في هذه الفترة لا ينطبق على محتواه في عهد المنصور بن ابي عامر وبنيه .

وهذه المشكلة (مشكلة الولاء للخليفة) كانت السبب الجوهري في تعقيد العلاقات مع بني برزال الذين أرادوا استغلال الخلاف بين خليفة ابن عباد (هشام المشبّه) وخلافة مالقة ، ليضمنوا لمملكتهم الاستقلال ، بل ان هذه المشكلة لم تلبث ان اصبحت معضلة اصطدم بها الحلف الثلاثي الذي عقده حبوس في سنة 427 هـ مع صاحب قرمونة وصاحب المرية ، والذي كان أساسا لاعتراف الدول الثلاث بخليفة مالقة ، في الوقت الذي كان درعاً واجراء دفاعيا ضد محاولات ابن عباد لفرض خليفته على جيرانه .

فان محمد بن عبد الله البرزالي الذي كان على علاقات ودية مع ابن عباد (مما اضطر معه يحيى بن علي الحمودي الى احتلال قرمونة في سنة 426 هـ) ، وقد عاد الى هذه السياسية الودية مع جاره القوي ، وهذا التأرجح في موقف البرزالي تفرضه اعتبارات أهمها وضع قرمونة الجغرافي . وهو في حد ذاته ليس غريبا ولكن الغريب هو ان تجد ميول الزناتيين نحو ابن عباد تفهما وعطفا من زهير العامري الذي تعرضت مملكته (المرية) لعدوان صاحب اشبيلية الذي انقض عليها وأوشك ان يضمها الى مملكته منذ مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات ، لولا مسارعة حبوس والبرزالي الى نجدته في حركة عسكرية انتهت بهزيمة جيش اشبيلية كما رأينا .

كان باديس يعلق أملا كبيرا على تجديد الحلف الذي عقده ابو حبوس مع زهير العامري لمواجهة أطماع ابن عباد التي اخذت تتجه الآن الى غرناطة نفسها .

فان مملكة المرية التي ورثها زهير عن خيران العامري(3) أصبحت مملكة قوية مزدهرة العمران ، وقد اتسعت اطنابها بحيث تمتد الى شاطبة ، وما يليها والى بيّاسة وما وراء الفجّ (4) ومن هنا حرص باديس على التفاهم والتعاون مع زهير فتى المنصور بن ابي عامر .

وقد وجه باديس رسله الى زهير يعرض عليه الاجتماع للمباحثة في أمر تجديد الحلف بين المملكتين ، واستجاب زهير لهذه الدعوة وسارع مقبلا على غرناطة ولكنه جاءه على رأس جيش كبير ومعه رجال دولته ، في حركة هي أشبه شيء بمظاهرة عسكرية و« بمجيء الامير الضخم الى العامل من أعماله » على حد تعبير ابن عذاري .

فان زهير العامري لم يتوقف ، كما جرت العادة ، عند الحدود التي تفصل بين المملكتين ، حتى يستقبل رسميا ويُرافَقَ الى مكان الاجتماع الذي يتم الاتفاق عليه مسبقا ، وانما هو اخترق الحدود دون إذن من باديس ، وتوغل في أراضي مملكته واقتحم البلد في صلف وكبرياء ، حتى وصل الى باب غرناطة .

أي شعور آخر يمكن ان يساور ملكاً حديث العهد بالولاية التي وصل اليها بعد ما واجه أزمة داخلية ، سوى شعور الاستنكار لهذا التحدي والاعتداء على حرمة أراضيه ؟ ومع ذلك فان باديس استطاع كتمان غيظه فاحسن استقبال زهير لدى وصوله الى غرناطة وبدأه بالجميل والتكريم وأوسع على رجاله في القرى .

والغريب ان زهيراً خانه في هذه المرة ما اشتهر به من الذكاء والحصافة ، ففسر تجاوز باديس على اعتدائه . ومبالغته في تكريمه بالضعف واغتر بطمأنينيته ، فراح يزيد في مساوماته ويتشطط في مطالبه اثناء المفاوضات التي جرت بين الملكين في المرحلة الاولى ثم بين وزرائهما الذين من بينهم اليهودي

---

3 ـ مات خيران الفتى العامري في سنة 419 هـ .

4 ـ قارن البيان (168/3) أعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس (ص 248) الذخيرة (166/1 - 168) الاحاطة (225/1) .

اسماعيل بن نغرالة ، واحمد بن عباس ، وزير المرية في مرحلة التالية .

والمشكلة الاساسية التي وقفت حجر عثرة في طريق الاتفاق ، هي مطالبة باديس لزهير بان يتخلى على موالاته لمحمد بن عبدالله البرزالي ، أمير قرمونة الذي اشتدت عداوة لبني زيري .

وفي غضون هذه المفاوضات ، كان زهير يصطنع الكبرياء والاستعلاء ، حيث كان يعتبر نفسه نداً لحبوس وليس في مستوى هذا الامير القليل التجربة .

ولما حل الليل وتأزم الموقف ، قصد بلكين ، شقيق باديس نفسه الى احمد بن عباس ، وزير زهير الذي كان يعمل بناء على نصيحته ، ليقوم بمحاولة اخيرة لإنْتِهِ ولانقاذ الموقف ، وذكره بالماضي وما جناه الطرفان من التفاهم والوئام اثناء قيام التعاون بين المملكتين بحيث كانت العلاقات بينهما موضع حسد بين بقية ملوك الاندلس ، ولما عجز عن اقناعه بلغة المنطق والمصالح المشتركة ، التجأ الامير الزيري الى العواطف والتضرع والتوسل ، ولكن بدون جدوى أيضا .

وهذا المسعى الاخير الذي بذله بلكين لتجنب الكارثة سجله المؤرخ ابن حيان ، (ابو مروان) الذي عاصر هذه الاحداث في عبارات نقلها عن شخص سمعها من بلكين بن حبوس نفسه ، قال ابن حسان :

« أخبرني القرشي المعروف بالقطعن بلكين الصنهاجي قال :

« سِرْتُ والله ليلة الواقعة الى الرقيع(5) ابن عباس مستنزلا له عما كان صاحبه الجاهل زهير تمادي فيه من قطيعة باديس ، صاحبنا ، وقلت له ؛

« اتق الله وصاحبك منقاد اليك ، وقد تعرفنا في تآلفنا البركة ، وقد تربينا به مثل هذه النعمة التي كثر عليها حسادنا ، ما الذي غركم من ابن عبدالله (البرزالي) حتى تقاطعونا في رضاه فاجيبوا أميرنا فيما دعاكم اليه من الالفة ، فجعل يستجهلني ويجيب جواب المتبوع للمتابع وانا ارفق به ، بعد ان قبلّت وجهه واستعبرت رقة لاستيلائه ، فلم يزد بذلك الا قسوة وقال :

---

5 ـ الاحمق .

« دع الفقاقيع ، فليست تهولنا ، والله لا نزلتم الا على رضانا ! فاحفظني كلامه فانصرفت الى باديس والمشيخة ودموعي تنحدر على وجهي غضبا ، وابتدروني بالسؤ ال فخبرتهم والتظت الجماقة(6) .

ولما أدرك باديس استحالة الوصول الى اتفاق مع زهير ، عزم على القتال ووافقه على ذلك قومه من صنهاجة ، فجهز جيشه ورتب خططه في غسق الليل ، بطريقة تعوض له عن عدم تكافؤ قواته مع قوات غريمه من حيث العدد وكل ذلك ، بما ينبغي من الكتمان والسرية .

ومع ذلك فيبدو ان شعور القلق كان يسود مُعسكر زهير في تلك الليلة ، فان ابن بسام يخبرنا ان احد ضباط زهير الاوفياء دعاه الى الهروب ليلا ليتولى هو القيادة ويقع عليه عار الهزيمة ، وقد اكثر الضابط في التحذير والنصح حتى تدخل ابن عباس ورد عليه بقوله :

ـ هذا وسواس أدخلك فيه الذعر !

ـ فاحتد الضابط غاضباً واجابه بقوله :

ـ ألِمِثْلي تقول هذا يا ابا جعفر ، وانا فارس بن فارس ، (حضرت) نيفا وعشرين وقعة ، وانت ما قرعتك قط وعوعة ! عاقبة أمرك .

ويبدوان تصلب ابن عياس ومخاطرته كانت عن وعي وحساب دقيق للعواقب ، فقد كان يتمنى الهزيمة لصاحبه حتى يعود الى المرية لينفرد بالحكم فيها وتكون له الامارة ، وذها ليس مجرد استنتاج ، وانما يؤخذ ضمنياً من تصريحات الوزير عند أسره وتقديمه أمام باديس عقب المعركة .

وقد كان من بين التدابير التاكتيكية التي اتخذها باديس ، انه عمد الى تدمير قنطرة كان لا بد لزهير من المرور عليها تحمل اسم قرية مجاورة لها ، قرية البونت(7) .

ولما انصرف زهير وجيشه في الصباح ، فوجىء لدى وصوله الى المكان

---

6 ـ الذخيرة (ق172/2) .

7 ـ Alpunte ، قرية تقع على مسافة 5 كيلومترات من غرناطة الى الشمال .

الذي اختاره باديس للمعركة ؛ أولا بقعقعة الطبول ، ثم بجيش صنهاجة الذي لم يلبث ان أحاط بجيشه .

ولكن أمير المرية كان حازما شجاعا ، فلم يستسلم لهول المفاجأة ، بل انتصب في الحرب وثبت في قلب معسكره ، ثم قدم خليفته ، هذيلا الصقلبي ، على رأس قوة تتكون من وجوه أصحابه من الفرسان الموالي العامريين ومن عشيرته من الصقالبة ، وغيرهم ، لاستقبال صنهاجة .

وبعد ذلك التحمت المعركة واختلط الجمعان واشتد القتال بينهما ، ولكن كثرة عدد الجيش العامري لم تغن عنه شيئا أمام خطط باديس العسكرية ، ولذلك ، فقد نكص هذيل عندما اشتد الصدام وانهزم اصحابه وأخذ هذيل نفسه أسيرا وسيق الى باديس الذي أمر بضرب عنقه في الحال .

ولما شاهد زهير مصرع قائده الاعلى ورأى جيشه يتفكك وعبيده يغدرون به وينضمون الى صنهاجة (وكان عددهم خمسمائة) ولم يبق معه سوى بعض الاندلسيين الذين اشتهروا بقلة الشجاعة ، لاذ هو بالفرار للنجاة بنفسه دون ان يصطحب معه أحداً من رجاله ، ولج به الفرار وانهزم اصحابه لا يلوون على شيء وركبت صنهاجة ومن يعملون تحت أوامرها من زناتة ، اكتاف القوم يعملون السيف فيهم « بصدق العصبية وايثار الفناء » فلم يبقوا على أحد قَدَرُوا عليه « فاساءوا الاعتداء وأبادوا أمة » ودفعوا ببقايا جيش زهير في جبال شامخة وشعاب وعرة طلبا للنجاة ، ولكنهم وجدوا فيها حتفهم .

وأما زهير نفسه ، فقد لقي مصرعه في مكان مجهول ولم تعرف الظروف التي قتل فيها وكان ذلك يوم الجمعة ، عقب شوال سنة 429 هـ (يوليو 1038 م) .

وبعد ذلك تحول ميدان القتال الى ميدان تنافس من أجل الاسلاب والغنائم فحصل باديس من المال والخزائن والاسلحة والحلي والعدة والغلمان والخيام وسائر انواع الممتلكات مالا يحصيه الوصف (8) .

---

8 - اعتمدنا كثيرا على رواية ابن عذاري لهذه الاحداث ، وهي أوفى من غيرها ، البيان (3/168-169) .

وكذلك ظفر أبو مناد بعدد كبير من الاسرى من الفرسان والقواد الـذين عجل بقتلهم ، كما شمل الاسر جماعة من كبار حملـة الاقـلام ، من بينهـم العلامة ابو محمد بن حزم الظاهري(9) . والباجي(10) ، وذلك الى جانب

---

9 ـ هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، من اعلام علماء الاندلس وأدبائها وأحد ائمة الاسلام ، ولد في سنة 384 هـ وكانت له ولأبيه رئاسة الوزراء ، قال ابن حيان عنه انه كان صاحب حديث وفقه وجدل ونسب « ووصفه صاحب الذخيرة بانه كان كالبحر لا تكف غوار به ولا يروي شاربه » . وقد تخلى ابن حزم عن السياسة بعدما شغل منصب الوزير مرتين او ثلاثا ، وانصرف للعلم ، ولكن انتقاده لبعض العلماء والفقهاء في عصره جعلهم يبغضونه فينهون العامة عن الدنو منه في الوقت الذي يحرضون فيه الملوك عليه ويحذرونهم من فتنته ، مما أدى الى مطاردته واضطره الى الـرحيل الى بادية لبلـة حيث مات في سنـة 456 هـ ، بعدما وضع نحو 400 كتاب بلغ مجموع عدد أوراقها ما لا يقل عن ثمانين الف ورقة . راجع سيرته في الجذوة (ص 290) البغية للضبي (ص 403) المغرب لابن سعيد (354/1 - 357) آداب اللغة (96/3) اخبار الحكماء للقفطي (ص 156) معجم الادباء لياقوت (235/12 وما يليها) طبقات الامم (ص 117) وفيات الاعيان (325/3 - 330) مقالة Van arendonk في دائرة المعـارف الاسـلامية . الصلـة لابـن بشـكوال (ص 418) الذخيرة (140/1/1) المعجب (ص 30) المطمح (ص 55) تذكرة الحفاظ (241/3) مجلة المقتبس (95/1 - 96) لسان الميزان (198/4) نفح الطيب (76/2 وما يليها) .

10 ـ هو سليمان بن خلف بن سعد التجبي القرطبي ابـو الـوليد الباجـي . ولـد في باجـة (الاندلس) في سنة 403 هـ وتوفي بالمرية في سنة 474 هـ فقيه مالكي كبير ومن رجال الحديث رحل الى الحجاز في سنة 426 هـ وأقام هناك ثلاثة اعوام ، ثم انتقل الى بغداد واقام بها مثل تلك المدة كما اقام بالموصل وبدمشق قبل ان يعود الى الاندلس حيث تولى خطة القضاء . وصفه صاحب القلائد بانه « امام الانـدلس الـذي تقتبس انواره وتنتجع انجاده واغواره » وضع عدة كتب في الاصول والفقه والحديث وناظر ابن حزم ، وكان سببا لاحراق كتبه ، راجع ترجمته في الديباج المذهب (ص 120) قلائد العقيان (ص 188) الصلة (ص 199) بغية الملتمس (رقم 777) الذخيرة (38/2/2) وفيات الاعيان (142/2) معجم الادباء (246/11) تذكرة الحفاظ (1178) تهذيب ابن عساكر (248/6) شذرات الذهب (334/3) المرقبـة العليا (ص 95) المغـرب لابـن سعيد (404/1) نفح الطيب (67/2) وفيات ابن قنفذ (ص 255) فوات الوفيات (175/1 وما بعدها الحلة السيراء (128/2) .

وزير زهير ومستشاره احمد بن عباس الذي ستخصص فقرة للتعريف به فيما بعد ، وقد أمر باديس بحبسه .

ولما شاهد القائد ابن شبيب (قائد زهير الذي كان من ضمن الاسرى) احمد بن عباس يقاد الى باديس صاح قائلا :

« يا حاجب ! بالذي ينصرك لا يفوتنَّك هذا الفاعل الزاري بالخليفة ، فما جرّما تراه سواه وليتني عاينت حتفه ولا أبالي بالموت بعده ! »(11) .

فتبسم باديس وعرف قصده ، فاطلق سراح الضابط ابن شبيب ، وأمر بشد أصفاد احمد بن عباس .

ولما اقتيد ابن عباس ، كان على يقين من انه لا يواجه أي خطر على حياته ، ولذلك فقد كان اهتمامه كله متجها الى مصير كتبه الثمينة والتي كان يحرص عليها أشد الحرص .

وكذلك طلب الى الجنود الموكلين بحراسته ان يبلغوا باديس رجاءه بأن يحافظ عليها .

ولما وقف ابن عباس امام ملك غرناطة بادره بابتسام وقال له :

- يا أباد مناد ! رأيت أي كأس أدرتها لك على هؤلاء الكلاب (يقصد الموالي العامريين) ثم طلب اليه ان يقدم اليه بدوره خدمة بان يأمر باحترام كتبه . .
فتجهم وجه باديس وقال له :
- أمكرا عند الموت يا بن الفاعلة ! أيّايَ تغالط ؟ ثم أمر بجره الى حبسه .

والحقيقة ان ابن عباس كان أكبر الغنائم التي حصل عليها باديس عقب انتصاره في معركة البونت ، وذلك لان هذا الرجل كان يملك ثروة عظيمة ، بالاضافة الى منصبه وذكائه ، ولكن الذي كان يهم باديس منه أكثر من كل ذلك هو انه وجد في هذا الشخص الذي امتلأت نفسه بالغرور والكبرياء ضالته المنشودة ليصب عليه غضبه وانتقامه الشنيع .

---

11 ـ الذخيرة (1/2/67-68) .

ونحن ، قبل ان نعرض فجيعة ابن عباس ، نرى ان أولا ، ان نستعرض نبذة من سيرة هذا الرجل الغريب الاطوار والذي جمع بين المال والعلم والنفوذ السياسي بصورة لا نعرف لها مثيلا في غيره ، ولا سيما وان الرجل لم تكن سنه تتجاوز الثلاثين .

كان أحمد بن عباس كاتباً حسن الكتابة جيد الخط ، فصيح اللسان ، غزير الادب ، مشاركاً في العلوم ، عرفاً بالفقه ، مقتبسا للشعر من غير طبع فيه ، ذكي الخاطر ، حاضر البديهة ، جماعاً للكتب ، بحيث كان عدد المجلدات التي يملكها عند مقتله أربعمائة الف مجلد ، هذا عدا الدفاتر المخرومة التي لم يعرف عددها .

وقد بلغ حرص ابن عباس على اقتناء الكتب الجيدة ان كثيرا من الوراقين ، وتجار الكتب قد جمعوا ثروات معه فيها .

ولكنه فيما عدا الانفاق على شراء الكتب اشتهر ابن عباس ببخل يبلغ حد اللؤم ، مع ان ثروته قدرت بمبلغ خمسمائة الف مثقال (دينار) جعفرية من المال العين(12) هذا عدا الفضة والاواني والحلى والامتعة وما في مخازنه .

ويضيف ابن بسام الذي ننقل عنه هذه المعلومات فيقول :

« ثم أحاط هو تلك النعمة بالبخل الشديد القبيح وأثلها بالاكتساب . . . ولم يوفقه الله لبرّ مُزْلِفٍ اليه ولا لضغينة مشكورة منه ، بل كرَّه الخلق فيه بالكبر والعجب والصلف »(13) .

قلنا ان ابن عباس كان جمَّاعة للكتب والمال والتحف ، ولكننا نسينا ان

---

12 ـ لكي نأخذ فكرة عن قيمة هذه الثروة ، يكفي ان نتذكر ان المبلغ الذي كان يدفعه عبدالله ابن بلكين ، خليفة باديس ، على سبيل الضريبة سنويا لألفونس السادس هو : عشرة آلاف مثقال ، والرقم على كل حال ، لا يمكن ترجمته الى عملة عصرنا خصوصا بسبب اختلاف مستوى الاسعار وقيمة الذهب ، الخ ، ولكنه يمكن تقديره بمئات الملايين من الدولارات !

13 ـ الذخيرة (1 / 2 / 176-177) .

نضيف انه كان من بين هذه التحف خمسمائة جارية من مثمنات القيان . ونظراً لان الرجل كان ضعيف المقدرة الجنسية ، فان حظ الجميلات منه لم يكن يتجاوز « لدغة العضة » ، ثم لا يعود الدهر الى واحدة منهن ! .

وفي مقابل ذلك ، كان الرجل يحسن لعب الشطرنج بحيث كان يصل في لعبه النهار ببعض ليله .

ولما ادرك ابن عباس ان محاولته للمكر بباديس لم تنجح ، وان حياته اصبحت في خطر عرض عليه فدية بمبلغ ثلاثين الف مثقال جعفرية ، وقد بعث اليه باديس الذي كان ابعد الناس عن احتقار المال ، بمن يقول له انه سينظر في طلبه بعين الاعتبار .

وبقي ابن عباس في سجنه شهرين وباديس يتردد في اتخاذ قرار بشأن فديته .

وفي غضون هذه الفترة ، كان باديس هدفا لتيارات متناقضة من الضغوط ، فان ابن جهور صاحب قرطبة قد وجه اليه سفارة تشفع لديه في أسرى المرية ويؤكد في شأن ابن عباس بصفة خاصة .

وفي نفس الوقت كان سفير عبد العزيز العامري ، ملك بلنسية الذي احتل المرية عقب مقتل زهير ، يصر على ضرورة التخلص من ابن عباس ، بل ومن أسر المرية جميعا وذلك لتخوفه من عودتهم ليطردوه من مملكة المرية .

ولما استشار باديس شقيقه بلكين بشأن فدية ابن عباس ، أشار عليه بقتله ، لانه ان اطلق سراحه سيثير عليه فتنة تأكل من ماله ، اضعاف مبلغ الفدية ! .

ماذا كان رأي باديس نفسه ؟ لا شك وانه كان في حيرة من أمر ابن عباس ، حيث تتنازع نفسه شهوة عارمة للمال ورغبة قوية في الانتقام .

وذات يوم خرج باديس مع اخيه في بعض ركباته ولما توسط الدار التي كانت سجناً لابن عباس ، وقف فيها هو وأخوه وصاحبه علي بن القروي ، وأمر باخراج الاسير واحضاره بين يديه ، ولما وقف أمامه ، أخذ يوبخه ويسبه ويذكره بذنوبه ، والاسير يلطفه ويعرض عليه مبلغا اكبر لفديته ويرجوه ان

يريحه مما هو فيه من العذاب ، فكان جواب باديس :

ـ اليوم تستريح من هذا الالم وتنتقل الى ما هو أشد !

ثم تبادل الملك كلاما مع اخيه باللسان البربري وعندئـذ ، أيقـن ابـن عباس ان اجله قد اتى ولا محالة ، فجعل يضاعف الفدية ويكثر في التضرع اليه ، ولكن توسله لم يزد باديس الا غضبا ، فاخذ مزراقه وغرسه في صدره ، على ان الرجل مضى يستغيث ويذكر مصير اولاده وحرمه ، فلم يكن من شقيق باديس ان سدد اليه مزراقه ثم شاركهما ابن القروي بسلاحه فقتلوه باشتراك ، ثم أمر باديس بجر رأسه ، ووري التراب خارج القصر(14) .

ولما انتشر خبر مقتل ابـن عبـاس في غرناطـة تلقـاه السـكان بكثير من الارتياح ، ولا سيما الوزير اسماعيل بن نغرالـة الـذي تخلص الآن من احـد عدويه ، ولم يعد يخشى سوى العدو الثاني ، وهو ابن بقنة ، مدير دولة بنـي حمود في مالقة .

وعلى الصعيد السياسي ، كان لموت زهير وابن عباس نتيجتان مهمتان : فان أستيلاء عبد العزيز العامري ، صاحـب بلنسية ، علـى المـرية ، زاد من اتساع رقعـة مملـكة هذا الامير زيادة معتبـرة ، وهـو أمـر أثـار قلـق مجاهـد العامري ، صاحب دانية وخلق مشكلة جديدة بين جيران غرناطة .

ولكن الاخطر من ذلك ، هو ان باديس بقضائه علـى نظـام زهير وقـوة المرية العسكرية ، قد قدم خدمة عظيمة لابن عباد والملـوك الـذين اعترفـوا بهشامه المزيف ، والذين من بينهم عبد العزيز العامري ، وبذلك اطمأن ابن عباد الى ان التهديد الذي كان دائما يحسب حسابه من جانب المرية ، قد زال الآن ، وأصبح في مكانه ان يوجه جهوده للقضاء على أمارة جاره ، عبدالله بن برزال صاحب قرمونة(15) .

---

14 ـ قارن الذخيرة (1/2/173 - 175) البيان (3/270) الاحاطة (1/267 - 269) نفح الطيب (3/535) ، راجع ايضا الدوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/42 - 46) .

15 ـ راجع(245 - 1) Dozy , recherches

وفي نفس الوقت ، عمل ابن عباد على تدعيم عناصر المعارضة في غرناطة ، سعيا لاثارة الفتنة على باديس ، بحيث يلهيه ويصرفه عن الاهتمام بمصير قرمونة .

وبالفعل ، فقد قامت حركة للمعارضة في غرناطة بزعامة أحد أفراد الاسرة الزيرية ، وهو يدّير بن حباسة بن ماكسن ، وبتوجيه شخصيه تحتل مكانة الصدارة بين علماء غرناطة وهو محمد بن ثابت الجرجاني الاسترابادى ،(16) ابو الفتح .

فاما يدّير ، فنحن لا نلقاه في كتب التاريخ التي بين ايدينا الا بمناسبة ثورته الفاشلة . وأما ابو الفتوح ، فهو من علماء المشرق ، طرأ على الاندلس منذ صدر الفتنة ، ونزل دانية عند مجاهد العامري واشترك في الجيش الذي غزا سردانية ، ثم رحل الى سرقسطة ، قبل ان يرحل الى غرناطة حيث راح يدرس الادب ، ونزل في مرحلة تالية عند باديس .

ونحن لكي نأخذ فكرة عن مكانة ابي الفتوح العلمية ، يكفي ان نتذكر ما قاله عنه ابن حيان الذي وصفه بانه « لم يدخل الاندلس أكمل من ابي الفتوح في علمه وأدبه » وكذلك نعرف ان ابن زيدون قد تردد على مجلسه واخذ عنه(17) ، وقد كان ابو الفتوح قوي الحفظ في اللغة ، غزير الادب ، راوية للشعر ، نازعا الى علم الاوائل ، من المنطق والنجوم والحكمة ، وكذلك اشتهر ابو الفتوح بمهارته في ركوب الخيل وبشجاعته ومعرفته بفنون الحرب(18) .

وفي غرناطة ، اتصل أبو الفتوح باوساط المعارضة وأخذ بغذى مطامع يدّير ابن عم باديس في ان يعتلى العرش ، فأكد له ان النجوم قد كشفت له ان باديس سيفقد عرشه وان ابن عم له سيحل محله ويحكم مملكة غرناطة ثلاثين

---

16 ـ نسبة الى استرباذ ، مدينة فارسية من أعمال طبرستان .

17 ـ الاحاطة (462/1) .

18 ـ راجع نبذة عن حياة ابي الفتوح في تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي (49/4) والمراجع التي احال اليها .

سنة . وازاء هذا الوضوح غير العادي في أخبار النجوم ، لم يجد يدّير صعوبة في الاقتناع بان ابن العم الذي سيتولى الحكم لا يمكن ان يكون أحداً سواه .

وكذلك قام ابو الفتوح ويدّير وغيرهما ، بتدبير مؤامرة واسعة النطاق ، ولكن باديس اكتشفها في الوقت المناسب بفضل سهر وزيره اسماعيل بن نغرالة . ولما أدرك المتآمرون ان أمرهم قد افتضح ، هربوا الى اشبيلية واحتموا بابن عباد .

وفي هذه الاثناء ، وجه ابن عباد جيشا بقيادة ابنه اسماعيل للزحف على قرمونة ونزل عندها وضرب حصارا عليها ، وكان ذلك بعدما استولى على أشونة واستجَّة واقتطعهما من أراضي محمد بن عبدالله .

ولما وجد محمد نفسه في مأزق لا مخرج منه ، طلب النجدة من إدريس العالي الحمودي خليفة مالقة ، ومن باديس بن حبوس .

وعلى الرغم من كل ما حدث ، فان باديس الذي يحرص قبل كل شيء على المحافظة على التوازن بين الممالك المجاورة لم يتردد في امداد صاحب قرمونة بالنجدة ، كما وجه ادريس الحمودي جيشا بقيادة ابن بقنة الى قرمونة .

ولما اقترب الجيشان من اسماعيل بن عباد ، استعد الاخير ، وكله ثقة في قوته لخوض المعركة . وقد كان مرأى جيش اشبيلية وحده كافيا لبعث شعور الرهبة في باديس وابن بَقَنَّة الذين أدركا انهما لا حيلة لهما امام التفوق العددي الذي يتمتع به جيش اسماعيل ، فلم يجرءا على مواجهته ، وكذلك قررا ترك قرمونة لمصيرها وعادا أدراجهما ، أحدهما في اتجاه غرناطة والآخر في طريقه الى مالقة .

وهذه هي الفرصة التي كان ينتظرها اسماعيل ابن عباد فان انفصال الجيشين المتحالفين يسمح له بمطاردة احدهما والانقضاض عليه ، قبل ان يتمكن الجيش الثاني من التدخل . وطبقا لهذا المخطط ، سار في اعقاب باديس .

ولما رأى باديس بوادر الخطر ، بعث برسله الى ابن بَقَنَّة الذي لم يكن قد فارقه الا منذ وقت قصير ، ليطلب اليه العودة لنجدته . ولدى وصول ابن بَقَنَّة .

دخل الطرفان في معركة ضد جيش اشبيلية الذي وضع خططه على أساس مقاتلة جيش باديس الذي اعتقد انه تراجع منهزما قبل الدخول في المعركة .

ونتيجة خطأ اسماعيل بن عباد في تقديره لقوة خصومه ، لم تلبث ان ظهرت في اتجاه المعركة ، حيث انه لم يكد يشتبك الفريقان في القتال حتى وقع اضطراب في صفوف جيش اشبيلية . ولما حاول اسماعيل ، قائده استعادة النظام الى صفوفه والكرّ على العدوّ ، سقطوكان أول قتيل في المعركة(19) .

وبعد هذا الانتصار السهل نسبيا ، تحول باديس الى استجَّة(20) وضرب حصارا عليها وهناك رأى ، لدهشته ، مقبلا عليه الشيخ ابا الفتوح الثائر والذي فارق صاحبه يدّير ، ليرمي بنفسه عند اقدامه ، قبل ان يحصل على أمان منه .

وهذا التهور من ابي الفتوح الذي كان يعرف قواعد اللعبة السياسية حق المعرفة ، تبرره عاطفة متأججة في نفسه لابنيه ولزوجته الاندلسية الجميلة التي بلغه ان باديس قد قبض عليها وحبسها في المنكّب عند العبد قدّاح المشهور بطريقته الشنيعة في التعذيب فلما ادخل على باديس ابتدره بقوله : بأي وجه جئت يا نمام ! ما أجرأك على خلقك واشد اعترارك بسحرك ! فرقت بيني وبين ماكسن ثم جئت تخدعني كأنك لم تصنع شيئا ! »

فلاطفه ابو الفتوح وقال له : « اتق الله وراع ذمامي وارحم غربتي وسوء

---

19 ـ اعتمدنا في سرد هذه الحوادث على رواية المعجب ، وهي أوفى وأدق من غيرها (ص 61 - 63) قارن العبر (180/6) . الكامل (281/9) اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس ص 141) راجع كذلك تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي (48/4) وما يليها .

20 ـ Ecija ، وصف الادريسي استجة بانها تقع على نهر غرناطة وانها مدينة حسنة ولها قنطرة عجيبة البناء من الصخر ، ولها اسواق عامرة ومتاجر قائمة ولها بساتين وجنات ملتفة وحدائق زاهية (ص205 - 206) راجع وصف استجة ايضا في صفة جزيرة الاندلس لعبد المنعم الحميري (ص14 - 15) الحلة السيراء (الفهرست) معجم البلدان (174/1) نفح الطيب (298/1) .

مقامي ولا تلزمني ذنب ابن عمك ، فمَالي سبب فيه وما حملني على الفرار معه الا الخوف على نفسي لسابق خلطته ، ولقد لفظتني البلاد اليك مقراً بمـا لـم أجْنِه ، رغبة في صفحك ، فافعل افعال الملوك الذين يجلُّون عن الحقد على الصعاليك فقال باديس : « بل افعل ما تستحقه ان شاء الله ، ان تنطلق الـى غرناطة ، فدم على حالك والق أهلك الى ان قبل ، فاصلح من شأنك »(21) .

فاطمأن الرجل الى هذا الكلام الذي يحتمل تأويلين مختلفين ، وخرج الى غرناطة وقد وكل به باديس فارسين وكتب الى قداح بحبسه ، فلما شارف غرناطة ، قبض عليه وحلق رأسه واركبه بعيرا ، وهو رمز الاهانة ، واركب خلفه عبداً أسود فظ ضخم الجثة يوالي صفعه وضربه ، فادخل البلد مشهرا به ، ثم أودع السجن .

ولما عاد باديس الى غرناطة شفع لديه في أمر ابي فتـوح اخـوه بلـكين واستعطفه وحاول ازالة شكوكه في الرجل .

وبعد ما ارتبك في أمره أياما غافل باديس اخاه اثناء اشتغاله بشربه وآلاته وأمن معارضته ، فامر باحضار الاسير الى مجلسه واقبل يشتمه ويسبه قائلا : « لم تغن عنك نجومك شيئا يا كاذب ! ألم تَعِدْ أميرك الجاهل (يعني يدّير) انه سيظفر بي ويملك بلدي ثلاثين عامـا ؟ لِمَ لَمْ تدقـق النظـر لنفسـك وتحـذر ورطتك ؟ قد أباح الله لي دمك »(22) .

وعندئذ ايقن ابو الفتوح بان اجله قد حان فاطرق ينظر الـى الارض لا يكلم باديس ولا ينظـر اليه ، وبـذلك زاد غيض باديس الـذي وثـب عليه من مجلسه والسيف في يده وقتله ثم أمر بحز رأسه .

وكان قد أُسِر صنهاجيٌ آخر متهم معه ، فأمر باديس بان يقدم أمامه . ولما وقف الرجل بين يده جزع وراح يعتـذر ويتوسـل اليه في ضراعـة ، فقـال له باديس :

« أما تستحي يا ابن الفاعلة ، يصبر المعلم الضعيف القلب على الموت

---

21 ـ الاحاطة (464/1) .

22 ـ نفس المصدر .

مثل هذا الصبر ويملك نفسه عن كلامه لي واستعطافي ، وانت تجزع مثل هذا الجزع ، وطالما عددت نفسك أشد الرجال » فضرب عنقه .

تلك كانت نهاية ابي الفتوح ورفيقه الصنهاجي ، ولكن ماذا كان مصير يدّير بن حباسة ؟ .

ان الرواية العربية لا تخبرنا بشيء في أمره ، بعدما تخلى عنه ابو الفتوح ، ولكننا لحسن الحظ نملك وثيقة هامة تُكمّل الرواية العربية ، وتلك هي ديوان الوزير اسماعيل بن نغرالة الذي سنعرض دوره في الفصل التالي من هذا الكتاب .

ففي القصيدتين رقم 59 و104 من الديوان (23) يخبرنا ابن نغرالة ان يدّير قد التجأ الى المعتضد في اشبيلية وانه قد تحالف هناك مع شخصين تبنيا قضيته ، يدعى احدهما واصل والآخر موفّق ، وقد قام يدير ، بمساعدتهما ، بغزو أرجونة (24) التي تقع في شمال جيان ، في مملكة غرناطة ، وقتل عامله ، ومن هناك زحف يدير وانصاره على حصن شمنتان (25) واحتلوه .

وقد سار اليهم جيش غرناطة ، ووقعت معارك عنيفة بين الطرفين ، استولت قوات باديس عقبها على البلد بعدما اخترقت تحصيناتها وقتلوا خلقا كثيرا من الثوار ومن بينهم واصل والموفق ، واما يدّير ، فقد تمكن من الفرار مع

---

23 - راجع Schirmam (J) , le divran de smail hannagid , considéré comme une source pour L'histoire sepagnole , hesperis , 1948 , T . xxxv , p . 163 - 188 .

24 - arajouna ، مدينة وقلعة تقع على الحدود بين مملكة قرطبة ومملكة غرناطة ، كانت في فترة من الزمن داخلة في مملكة قرطبة ، ولكنها في غضون هذه الحوادث كانت تابعة لغرناطة . والى ارجونة تنتمي اسرة بني نصر الذين كان آخر سلاطينهم ، محمد بن يوسف بن الاحمر الارجوني ، آخر ملوك غرناطة . راجع صفة جزيرة الاندلس (ص 12) نفح الطيب (447/1) معجم البلدان (144/1) . ويذكر ياقوت ان شعيب بن شهيل الارجواني ينتمي اليها ، وهو فقيه ومحدث كبير ، المغرب (57/1) .

25 - Somentin أو Sumantan ، بالاسبانية ، بلدة في كورة جيان ذكرها ابن الابار في الحلة السيراء (230/1 - 231) وياقوت في معجم البلدان (364/3) ونسب اليها عبد الرحمن ابن عيسى بن رجاء الحجري الشمنتاني الفقيه .

فلول جيشه الذي لم يبق منه سوى تسعة فرسان .

واثر ذلك ، اتجه يدير الى قرطبة ، ولكن سياسة الحياد التي كان ينتهجها ابن جهور بين غرناطة واشبيلية سمحت للغرناطيين بالقبض على الثائر الذي يبدو ان ابن عباد لم يهتم بأمره .

ويمضي اسماعيل بن نغرالة ، فيقول ان باديس قد أبقى على حياة يدّير واكتفى بسجنه في المنكب ، على شاطىء البحر الابيض . .

في سنة 1043 ميلادية (435 هـ)(26) تمكن يدير من الفرار من سجنه والتجأ الى ابن برزال(27) وتحالف معه ضد باديس .

وعقب ذلك ، قام جيش باديس بغزو أراضي قرمونة واستولى على عدد من معاقل البلد وحصونه ، وقبض على يدّير مرة أخرى ، ولكن القصيدة (رقم 104) لا تخبرنا بما جرى ليدّير هذه المرة ، ولو انه ليس من الصعب ان نتصور فورة غضب باديس ، بعد ما تكررت خيانة ابن عمه .

وأياما كان الامر ، فان الانتصارات المتوالية التي سجلها باديس على زهير العامري ، واسماعيل بن عباد ، ويدّير بن حباسة ، وما أبداه فيها من القسوة ، كان من نتائجها تركيز حكمه في مملكة غرناطة وارتفاع ذكره بين ملوك الطوائف الذين أصبحوا يخشون جانبه ويحسبون حسابه وكان بعضهم يخطب ودّه .

وأما الهزيمة التي أورد خبرها الفتح بن خاقان ، والتي يقول ان باديس قد

---

26 ـ التواريخ الواردة في الديوان كلها بالتقويم العبري ، حَوّلَهَا المترجم ، شيرمان ، الى التقويم الميلادي . ونظرا لعدم ذكر اسماء الشهور ، فان تحويل هذه التواريخ الى التقويم الهجري أمر غير ممكن ، حيث ان بداية السنة الميلادية قد تقع في أي شهر من شهور التقويم الهجري ، ولذلك نكتفي بايراد السنة الميلادية مع ذكر التاريخ الهجري ، بين قوسين بتحفظ .

27 ـ لا بد وان يكون هو اسحاق بن محمد بن عبدالله ، لأن محمد بن برزال مات في سنة 434 هـ . كما ذكرنا .

باء بها على يد المعتضد بن عباد ، فاننا لم نستطع ضبط تاريخها ، وهي على الرغم من انه لا توجد بين أيدينا رواية اخرى تؤديها ، يبدو أنها حدثت فعلا ، بدليل قصيدة لابن عمار اقتبس منها صاحب القلائد ابياتا دقيقة الدّلالة (28) .

وورود اسم اسحاق في القصيدة يعتبر دليلا قيما يثبت ان هذه المعركة لم تقع في عهد محمد بن عبد الله (أي بعد سنة 434 هـ) . وهذا يدلنا ايضا على

---

28 ـ جاء في قلائد العقيان : « ولما ضيق المعتضد بالله على بن عبدالله (يقرأ اسحاق بن محمد) بقرمونة وسد مسالكه وسدد اليه مهالكه ، استدعى باديس بن حبوس واستصرخ استصراخ الموثق المحبوس ، رجاء ان ينفس عنه غصته . فلما وصل باديس بن حبوس الى قرمونة ، اخرج اليه المعتضد جيشه ، يتقدمه ابنه الظافر (المعتمد) . فلما التقى الجمعان ، حمل فيهم عسكر اشبيلية جملة خلعتهم عن مراكزهم وأدالتهم بالذل من تعززهم ، فتفرقوا في تلك البسائط والربي وشربوا سقي الاسنه والضبا ، وأوقع بهم الظافر احسن ايقاع وانصرف الى اشبيلية والويتة تختال في كف الرياح ، وذوابله تكاد تنقصف من الارتياح (القلائد ، ص98) .

وأما القصيدة التي هنأ بها ابن عمار المعتضد بهذه المناسبة ، فقد جاء فيها قوله :

ألا للمعالـي ما تعيدو ما تبدى ... وفـي اللـه ما تخفيه عنـا ومـا تبدي

جنيت ثمـار النصـر طيبـة الجنى ... ولا شجـر غير المثقفـة الملد

وقلـدت أجياد الربـى رائـق الحلى ... ولا درر غير المطهمـة الجرد

ومضى فأشار الى المعتمد فقال :

ورب ظلام سار فيه الـى العدا ... ولا نجـم الا ما تطلـع من غمد

اطـل علـى قرمونـة متبلّجا ... مع الصبـح حتـى قيل كان علـى وعد

فارملهـا بالسيف ثم أعارها ... من النـار أثـواب الحـداد علـى الفقد

فيا حســن ذلك السيف في راحـة الندى ... ويا برد تلك النـار في كبـد المجد

اقـول وقـد نادى ابـن اسحـاق قومه ... لأرضـك يرتـاد المنية من بعد

لقـد سلـكت نهـج السـبيل الـى الردى ... ضبـاء غابـة الاسـد الورد

كأنـي ببـاديس وقـد حط رحله ... الى الفـرس الطـاوي عن الفـرس الهندي

الـى الفـرس الجـاري به طلـق الردى ... سريعـا غنيا عن لجـام وعـن لبد

يحـن الـى غرناطـة فوق متنه ... كما حن مقصـوص الجنـاح الـى الورد

ان تحالفا جديدا قام بين بني برزال وملك غرناطة(29) .

كانت روح المنافسة والمنازعة التي تتسم بها علاقات غرناطة واشبيلية في هذه الفترة ، وفي الفترة التالية أيضا ، ميزة عامة للعلاقات بين ملوك الطوائف في الاندلس ، ولكن تطورا مهما طرأ على العلاقات بين هؤلاء الملوك في منتصف العقد الثالث ، وهو ان المنازعة لم تعد ثنائية الطابع ، كما كانت من قبل ، وإنما هي أصبحت تقوم على أساس كتل تجمع بينها المصالح المشتركة وأواصر التفاهم .

وهذه الكتل وصفها ابن حيان وصفا دقيقا(30) ، حين يقول ان أمراء الاندلس وملوكهم ينقسمون أساسيا الى فريقين :

- أحدهما يخضع لزعامة سليمان بن هود الجذامي ، صاحب الثغر الاعلى ، وكان معه مقاتل الصقلبي (صاحب طرطوشة) وعبد العزيز بن ابي عامر (صاحب بلنسية) ومن تحتهما من اصحاب الاعمال بالمتوسطة .

كان هؤلاء الاندلسيون صفا واحدا « متظاهرين على عظيم البربر ، باديس ، ومن تميز معه من البربر ويدعو لادريس بن يحيى العالي ، صاحب مالقة » ، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الامراء سواهم ، على اختلافهم في الرأي والدعوة ، وقد كان هؤلاء جميعا يدعون لهشام الذي نصبه ابن عباد في اشبيلية ، وبالتالي ، فقد كانوا يعترفون بالزعامة

---

29 - بعد وفاة محمد بن عبدالله البرزالي الذي حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين سنة ، خلفه ابنه الاكبر ، اسحاق الذي وصفه ابن حيان بانه « كان رئيسا حازما وافرا الكفاية والبأس والفروسية ، ولكن دون ابيه في القسوة والفضاضة ، وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائنة » (نقله ابن الخطيب في اعمال الاعلام ص 37) ولكنه يبدو ان حكم اسحاق لم يدم طويلا ، فان ابن عذاري يغفل ذكره في الولاية تماما ، ويقول الذي خلف محمد بن عبدالله ، هو ابنه الآخر عزيز المتلقب بالمستظهر ، وان أخاه اسحاق بايعه راجع البيان (الملحق 312/3) انظر ايضا ما كتبه عنان عن قرمونة في كتابه عن دول الطوائف (ص 148 - 149) .

30 - نقلة ابن عذاري في البيان (3/219 - 220) .

العليا لابن عباد ، وكذلك كان يعترف بالزعامة لابن عباد وبالولاء لهشامه مجاهد العامري صاحب دانية ، وابن الافطس ، صاحب بطليوس ، ومن يتصل به من الرؤساء العرب ، ويحيى بن ذي النون ، ومن والاه من الامراء الاصاغر مثل ابن نوح وابن خزرون واسحاق البرزالي وغيرهم .

واما باديس ومن والاه من ملوك البربر ، فكانوا نواميقين على الاعتراف بخلافة صاحب مالقة وذلك فيما عدا الملك أبي نور بن قرة ، صاحب رندة وكورة تاكرنا .

وبقي خارج هاتين الكتلتين الكبيرتين وقتا من الزمن ابن ذي النون الذي لم يكن يدعو لأحد على رسم والده ، ولكنه حتى هو لم يستطع مقاومة ضغوط ابن عباد طويلا ، فدخل في دعوة هشام في سنة 436 هـ .

واما قرطبة وأراضيها ، فقد طلت تحت ابن جهور على الحياه ، حتى وقعت فريسة لغزو ابن عباد .

وفيما يتعلق بعلاقات غرناطة بالخليفة الادريسي الحمودي بمالقة في هذه الفترة (وهي علاقات شكلية محضة) فيمكن اعطاء فكرة عنها فيما يلي :

بعد الانتصارات التي أحرزها جيش ادريس بن علي الحسني بقيادة ابن بقنة وجيش باديس عند أسوار قرمونة بيومين اثنين ، توفي ادريس الذي كان يشكو من مرض ، واثر ذلك وقع تطاحن بين الوزيرين ابن بقَنَّة ، المغربي الاصل ، والوزير الصقلبي نجاه ، بشأن الولاية على العرش .

فبينما كان الاول يسعى لتولية يحيى ، اكبر ابناء ادريس ، كان الثاني (وهو يعمل وزيرا في المغرب) يعمل لمبايعة الحسن بن يحيى خليفة في مالقة ، ولهذه الغاية ، جهز اسطولا وسار على رأسه من المغرب ورسي به في مالقة .

ولما رأى الوزير المغربي ، الذي أهمل اتخاذ الاجراءات الضرورية لمواجهة خصمه ، ان حبل الامور قد افلت من يده ، لاذ بالفرار مع أميره المرشح للعرش .

وعندما استقر الامر لنجاة الصقلبي مع خليفته ، حسن ، أرسل الاخير الى ابن عمه والى ابن بَقَنَّة يعلن اليهما عفوه ويسمح لهما بالعودة على الامان الى مالقة . وعند عودتهما ، قتلهما غدرا ، وقد وجد هو عقابه على يد زوجته أخت يحيى القتيل ، التي سقته سما ومات .

وعندئذ رأى نجاة الصقلبي انه أصبح في وضع يسمح له ، لا بالسيطرة على زمام الامور فحسب ، بل وايضا بان يتخلص نهائيا من سلالة الادارسة ، ويحمل هو لقب الخليفة ، في مالقة ، ولهذه الغاية ، قيل انه قتل ابن حسن ، الذي كان صغيرا ، وزج في السجن بأخيه ادريس ، ثم حاول اقناع البربر بالوعود ، والاغراء لمساندته لاعتلاء العرش ، وقد تظاهر البربر الذين ظلوا دائما على ولائهم للادارسة بالاقتناع بقضيته ، وسايروه متحينين الفرصة للايقاع به .

ولما تأكد الصقلبي من قوة مركزه في مالقة ، سار الى الجزيرة الخضراء لخلع الفرع الآخر من الادارسة (ابناء القاسم) الذين كانوا يحكمون ذلك البلد ، ولكنه بعد ما لاحظ قلة تحمس البربر في المعارك الاولى وتخاذلهم في القتال ، قرر ان يتراجع بجيشه ، وقد بيت في نفسه ان يبعد جميع العناصر المشبه فيها بمجرد عودته الى مالقة ، على ان أعداءه لم يتركوا له الفرصة ، فقتلوه في الطريق .

وباختفاء هذا الوزير الذي لعب دورا خطير في خلافة الادارسة بمالقة ، زال نفوذ الصقالبة الذين كانوا يتقاسمون الحكم مع البربر .

على ان الهدوء الذي ساد وقتا قصيرا ، بعد ما صفى الامر للبربر ، عقب تولي ادريس بن يحيى الملقب بالعالي الخلافة ، لم يدم ، فعلى الرغم مما اشتهر به هذا الخليفة من الكرم والبر والرعاية للآداب ، فقد وجد أعداؤه في ضعف شخصيته مغمزا وراحوا يعملون لخلعه ، فقد كان هذا الخليفة لا يجرؤ على معارضة احد من ملوك البربر ولا يرفض لهم طلباً حتى حين يتصل بالتنازل لهم على الحصون والقلاع .

ولما طلب اليه باديس ان يسلم اليه وزيره الاحقاد شخصيه ، استدعى

العالي الـوزير وأبلغـه هذا الطلـب الغـريب ، قال له الـوزير علـى سبيل المجاملة : « اصنع ما ترى وستجدني ان شاء الله من الصابرين » ، فما كان من الخليفة الا ان سلمه ، فعلاً ، لباديس الذي قتله .

وإزاء تضاؤل قدره وتدهور سمعته ، لم يجد ابـن عمـه ، محمـد بن ادريس ، الذي كان قد اعتقله صعوبة في خلعه ، وارتقاء عرش مالقـة في مكانه ، متخذاً لنفسه لقب المهدى .

عبثاً حاول باديس الذي وجد في مرونة إدريس العالي ومسارعتـه لتلبية رغباته ميزة ملائمة لارضاء شعوره بالعظمة ، ان يساعده للعودة الى الحكم (في سنة 438 هـ) ، فان أمر محمد بن إدريس (المهدي) قد توطـد في مالقة .

على ان حكم المهدي لم يكن يتجاوز هذه الولاية حيث ان الحجـاب (حكام الـولايات) ، وفـي مقدمتهـم باديس ، رفضـوا الاعتـراف بنظامـه والخضوع له(31) .

وفي سنة 439 هـ ، اجتمع رؤساء البربر وأمراؤهم على البيعة لمحمد ابن القاسم بن حمود الحسني ، وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء .

وكان هؤلاء الامراء اربعـة : اسحـاق بن محمـد البرزالـي ، صاحـب قرمونـة ، ومحمـد بن نوح الدمّرى ، صاحـب موررور ، وعبـد اللـه بن خزرون ، صاحب أركش(32) وكبيرهم ، باديس بن حبوس الصنهاجي ، صاحب غرناطة واستجة وغيرها ، وقـد بايعـه الجميع وتسمـى محمـد بن القاسم من القاب الخلافة بالمهدى ، وخطب له جميع هؤلاء الامـراء في بلادهم .

وفي نفس السنة نهض هؤلاء الامراء ، وعلى رأسهم محمد بن القاسم ، وزحفوا على المعتضد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، وحاصروها ثم انضـم

---

31 - راجع تفاصيل أخرى في الفصـل الثالـث عشـر من كتابنـا (تحـت الطبـع) ، دولـة الادارسة ، ملوك فاس وتلمسان وقرطبة .

اليهم ابن الافطس صاحب بطليوس ، وعلى الرغم من ان عدد الملوك الذين اشتركوا في هذه الحملة قد بلغ سبعة ، فانهم لم يتمكنوا من اشبيلية ، وقد اضطروا الى التخلي عن حصارها والعودة الى بلادهم قانعين من الغنيمة بالاياب فلم ينجحوا الا في اذاقة المسلمين شر أنواع الظلم والاستبداد اثناء حصار ابن عبّاد . وبعد ذلك ؛ تشتت مصالحهم وتوزعت أهواؤهم ، ولم يعودوا يتفقون على شيء .

وفي السنة التالية (440 هـ) ، توفي محمد بن القاسم بن حمود(33) وخلفه ابنه القاسم ، الذي بايعه اصحابه ، واتصلت ولايته نحو ست سنوات ، حتى ضيق عليه المعتمد بن عباد ونزل له على الجزيرة الخضراء بامان على نفسه .

وأما محمد بن ادريس (المهدى) صاحب مالقة فقد تعب الناس من حكمه ، وخصوصا ، البربر الذي اعمل السيف فيهم انتقاماً لنفسه لعدم اعتراف ملوك البربر في الولايات بنظامه ـ الامر الذي زاد من حقد هؤلاء الملوك عليه بحيث ان باديس لم يتردد في تدبير محاولة لاغتياله .

فقد بعث اليه صاحب غرناطة بكأس عراقي مسموم مع رجل من كتامة ، فلما وصل اليه قال له :

ـ هذا كأس الحاجب ، جلب للحاجب المظفر ، باديس فلم يره يصلح الا للخلافة فاختصك به .

أعجب الخليفة بالكأس وملأه خمراً وضمه الى فمه ، ولكنه في اللحظة

---

32 ـ Arcos بالاسبانية ، وصف صاحب الروض المعطار هذا الحصن بانه يقع على وادي لكة . صفة جزيرة الاندلس (ص14) . وقد كانت اركش التي تسمى الآن Fromentera تابعة لكورة شريش ، شذونة ، وهي اليوم تابعة لمديرية قادس ، وتقع على مسافة 50 كيلومتر منها . راجع أيضا الادريسي (ص174) المغرب (315/1) الحلة السيراء (242/2) .

33 ـ رواية ابن الاثير وابن عذاري ، وأما عبد الواحد المراكشي فيقول انه مات في سنة (445 هـ) .

الاخيرة أحس في نفسه بريبة منه ، فأمر الكتامي فشرب به ، فهرأجلده ـ فيما زعموا ـ على عظمه لحينه وبقي محمد بن ادريس ثلاثة ايام بعد ذلك على قيد الحياة ثم مات من رائحة السم ، فيما قيل ، وكانت وفاته في سنة 444 هـ .

وبعده ، بويع ابنه ادريس الذي تلقب بالسامي وأقام حينا بمالقة ثم أصيب بخلل في عقله ، فغادر مالقة الى العدوة ، وحل محله في الخلافة ادريس بن يحيى العالي الذي تولى الخلافة للمرة الثانية (في سنة 444 هـ) واستمر في الحكم حتى توفي في سنة 446 هـ (1054 م) ، بعدما عهد بالخلافة لابنه محمد بن ادريس الذي يسمى بالمستعلى .

وقد اعترفت بخلافة محمد بن ادريس من الولايات المرية ورندة ، ولكن معظم ملوك البربر وفي مقدمتهم باديس ، رفضوا الاعتراف بنظامه ، ومع ذلك ، فقد ظل هذا الخليفة يشغل عرش مالقة المتقعقع حتى قرر باديس بن حبوس الزحف بجيشه على عاصمة بقايا الادارسة الحموديين في سنة 449 هـ (1057 م) واحتل هذه المدينة وضمها الى مملكته غرناطة .

وأما الخليفة المخلوع ، فقد خرج من مالقة وسار الى المرية ، ثم عبر منها الى مليلة حيث نصبه أهلها أميرا عليهم ، واستمر في حكم هذه المدينة التي كانت آخر معقل للادارسة حتى توفي في سنة 456 هـ (1064 م) . وبذلك انقرضت دولة علي بن حمود بعد ما انقرضت دولة القاسم (ابن حمود) في الجزيرة الخضراء ، وقد دامت خلافة بني حمود في الاندلس ، على التحديد 49 سنة .

الفصل الثاني

وزارة اسماعيل بن نغرالة

ولد اسماعيل بن يوسف بن نغرالة (1) في تاريخ لا تحدده الرواية من أسرة يهودية ثرية في قرطبة (2) حيث نشأ ودرس التّلمود على الحاخام حنوخ (3) ، ثم اتجه الى درس الادب العربي ومختلف العلوم التي كانت تدرس في عصره ، وقد كان من انجب تلامذة هذا العالم الديني . ولما قامت ثورة البربر (الفتنة) في سنة 404 هـ هاجر اسماعيل بأسرته الى مالقة حيث فتح

1 ـ يختلف المؤرخون العرب اختلافا كبيرا في رسم هذا الاسم الذي يكتبه المقري : ابن نغدلة ، وابن عذاري : ابن نغزالة ، وابن خلدون : ابن نغزلة ، وابن الخطيب : ابن نغزالة (وهذا أيضا هو الرسم الوارد في مذكرات الامير عبد الله الصنهاجي ، ولكن بلام مشددة) وابن بسام : ابن نغزيلي ، وابن حزم (وهو معاصره) : ابن النغريلي ، وابن سعيد : ابن نغرقل ، ودوزي : ابن نغدلة (Ben nagdéla) وعلى كل حال ، فان اغلب المصادر العربية تورد الاسم بالراء ، بدلا من الدال والزاي ، ونحن نلاحظ مع ذلك ان المقّري يكتب الاسم بالدال وهو الشكل الذي اعتمده دوزي الذي أخذه من الكلمة العبرية (ناغيد) وهو لقب شرفي ، أحرز عليه اسماعيل ، ثم انتحله ابنه يوسف من بعده (ومعناه القيم على معبد أو رئيس قصر) . وبهذا الاعتبار يكون هذا لقبا وليس اسما .

2 ـ ذكر احسان عباس في مقدمة رسالة ابن حزم التي نشرها (ص9) ان ابن نغرالة « لم يكن من أصل اندلسي ، خلافا لما ذكره ابن سعيد » ونحن لا نعرف المصدر الذي استند اليه هذا البحاثة لتقرير هذا الرأي ، ولكننا نلاحظ ان أقدم الوثائق التي وصلت الينا عن اسماعيل بن نغرالة ، وهو كتاب ابن داود المعنون « سفرها ـ كبالة » الذي نشر في المستردام (في سنة 1711) لا يقرر شيئا في هذا الموضوع .

3 ـ Rabbi hanokh

متجراً صغيراً وراح يمارس مهنة التجارة ويكسب معيشته ، فيما يبدو ، وقد صادف ان كان متجر اسماعيل يقع غير بعيد من قصر ابي القاسم بن العريف وزير حبوس بن ماكسن بن زيري(4) .

وقد اكتشفت احدى جواري الوزير معرفته باللغة العربية وجودة اسلوبه في التحرير بها ، فكانت تتردد عليه ليكتب لها ولغيرها من افراد الحاشية بعض الرسائل والعرائض التي ترفع الى الوزير .

وهذه الرسائل لم تلبث ان استلفتت نظر الوزير برونقها وطلاوة أسلوبها ولما سأل رجال القصر عن هوية كاتبها أخبر الكاتب تاجر يهودي يقع محله غير بعيد من القصر .

وعقب ذلك استدعى الوزير التاجر اليهودي وطلب اليه ان يلازم قصره ، قائلا انه لا يليق برجل في مثل علمه ان يكون صاحب بقالة ومنذ ذلك الحين، اتخذ منه ابن العريف كاتبا ومستشارا له ، فكان يقدم النصائح التي يتلقاها منه الى حبوس .

ولما مرض ابن العريف مرضه الذي مات فيه حضر حبوس لمعايدته وتساءل الملك أمامه :

- ماذا سيصبح مُلْكي بعدك ؟ ومن الذي يقدم لي المشورة والنصيحة في الحروب التي تحيط بي ؟

فأجابه بن العريف بانه انما كان يستوحي النصائح التي يقدمها اليه من كاتبه اليهودي ، فوصاه بالحرص عليه وبالعمل بنصيحته(5) .

وبعد وفاة الوزير ، استقدم حبوس اسماعيل بن نغرالة الى غرناطة واتخذ منه كاتبا ومستشارا ووزيرا ، وكان ذلك في سنة 418 هـ (1027 م) .

وفي هذه السنة نفسها رسَّمت الجماعة اليهودية في غرناطة اسماعيل

---

4 - راجع ، Munk (S), notise sur abou'l - walid merwan ibn djaal , وكذلك journal asiatique 1883 , T . XVI, p . 200?. تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي (27/4) .

5 - نفس المصدر (ص 207) .

« ناغيد » ، أي رئيسا عليهم وأميرا ، وهذا اللقب الفخري استحقه اسماعيل بما اشتهر به من اعمال الخير في صالح الطائفة اليهودية ، لا في غرناطة فحسب ، بل وأيضا في بلدان الشرق (في مصر والعراق والقدس) وفي بلاد المغرب .

لماذا اختار حبوس يهوديا ليكون وزيرا له في الوقت الذي لم تكن فيه الاندلس تعدم اشخاصا من الفصاحة والذكاء والقلم الرفيع بمكانة عظيمة ؟ .

لقد فُسِّر هذا الاختيار بقلة الكفاءة والتدريب بين صنهاجة والبربر وبعدم ثقة حبوس (وابنه باديس أيضا) في العرب(6) . وربما كان هذا التفسير مصيبا ، اذا اعتبرنا ان كثيرا من اعلام العرب شاركوا في الفتنة وأيدوا هذا الخليفة او ذاك (وابن حزم أبرز مثال على ذلك) ، ومات كثيرٌ منهم . ومن بقي منهم اشتهر بمناصرته للأمويين او سليمان بن الحكم ، ولكنه مع ذلك ، يجب ان نأخذ في الحساب عاملاً آخر ، وهو ان أغلبية سكان قرطبة كانوا من الاسرائيليين ، ولما كانت هذه الجماعة نشيطة وثرية ، فان من المفهوم ان يحرص حبوس على تمثيلها على مستوى عال في حكومته ، حتى يضمن الحصول على الجزية والضرائب التي يفرضها عليهم بسهولة ، ومن جهة اخرى ، فان تعيين الامراء والملوك المسلمين اليهود في مناصب رفيعة لم يكن أمراً مستغربا ، والامثلة على ذلك كثيرة (7) (8) .

ولما مات حبوس بن ماكسن ، أمضى باديس تعيينه وأقر اسماعيل بن نغرالة في منصبه بل وزاد في المسؤ وليات التي وضعها على عاتقه ، بحيث

---

6 ـ راجع مقدمة ليفي بروفنسال لمذكرات الامير عبد الله الصنهاجي (التبيان ص245) ودوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (30/4) .

7 ـ Munk ، المصدر المذكور (ص207) .

8 ـ راجع بعض ، الاخبار التي تتعلق بكبار الموظفين اليهود في الدولة الاسلامية ، ولا سيما فيما يتصل بحَسْدَ أي بن اسحاق الذي قيل انه كان وزيرا لعبد الرحمن الثالث ، في عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (ص498 - 499) وخصوصا في Kalender ، (ضمن مجموعة Histoires des médecins juifs) (طبع فينا 1845) Und Jahrbüch Für Israeliten .

اصبحت تشمل الى جانب الشؤ ون المالية ، الامور السياسية والعسكرية ايضا ، وكذلك كان نفوذ اسماعيل بن نغرالة في الدولة لا يعد له نفوذ رجل آخر (9) .

وقد ظهر ولاء اسماعيل لباديس منذ اللحظات الاولى من توليته اعباء الحكم ، حيث كان اسماعيل من بين الشخصيات الكبيرة التي أيدته للولاية ضد بلكين بن حبوس ، وقد زاد نفوذ اسماعيل عند باديس أيضا ، عقب هزيمة زهير العامري ومقتل ابن عباس الذي كان يبغض ابن نغرالة ويعيب على نظام الحكم في غرناطة استخدامه ليهودي ووضعه على رأس المسلمين .

واكتشاف اسماعيل لمؤ امرة يدير وأبي الفتوح أيضا في الوقت المناسب بحيث أمكن القضاء عليها قبل ان تستفحل ، نقطة هامة لا بد وان يكون باديس قد أخذها الى الاعتبار .

ولكن الشيء الذي مكّن اسماعيل من فرض نفسه ، وكان له أكبر الاثر في التغلب على حالة اليهوديّة وما تستلزمه من الضعة والانحطاط ، هو ما كان يتمتع به هذا اليهودي من الذكاء والمكر والدهاء ، مع التواضع ودماثه الخلق والصبر والكرم وضبط النفس والمقدرة على مداراة العدو .

وعلى كل حال ، فان الرواية الاسلامية تتعفف عن ذكر دوره فلا تشير الى شجاعته او مهارته في ركوب الخيل ، ولكن قصائد من ديوان اسماعيل ، تدور حول وصف بعض المعارك التي خاضها ، بل ان بعض ابياتها تدل على ان اسماعيل بن نغرالة ، قد تولى أيضا قيادة جيوش باديس بن حبوس .

والرواية الاسلامية متحفظة الى اقصى حد في أمر اسماعيل وابنه يوسف ، ولكنها مع ذلك تشتمل في مجموعها على الاوصاف التي أوردناها لاسماعيل ؛ بل ان بعض الكتاب من الاعلام (ونحن لا نقصد الشعراء الذين مدحوه) من طراز ابن بسام وابن حيان ، لا يترددون في الاعتراف بالفضل

---

9 ـ جاء في قصيدة لاسماعيل قوله :

« كل شأن من شئون المملكة ، وكل مشروع أفْصِلُ فيه أنا ، وكل قرار لا أتخذه أنا فهو ليس بقرار » راجع الديوان (ص13 - 14) .

لاسماعيل ، على مقتهم لليهود .

فان ابن الخطيب ينقل عن ابن حيان (ابي مروان) المؤرخ المعاصر اسماعيل العبارة التالية في وصف الوزير اليهودي .

« وكان هذا اللعين في ذاته على ما زوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علما وحلما ، وفهما ، وذكاء ، ودماثة ، وركانة ، ودهاء ، ومكراً ، وملكاً لنفسه ، وبسطاً من خلقه ، ومعرفة بزمانه ، ومداراة لعدوه ، واستسلالاً لحقودهم بحلمه ؛ ناهيك من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربي ، ونظر فيه وقرأ كتبه وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي فيما احتاج اليه من فصول التحميد لله تعالى والصلاة على رسوله والتزكية لدين الاسلام ، وذكر فضائله ، ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الاسلام ، فجمع لذلك السجيح في علوم الاوائل الرياضية ، وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية ، ويشارك في الهندسة والمنطق ويفوق في الجدل كل مستول منه على غاية ، قليل الكلام في ذكائه ماقتاً للسباب ، دائم التفكير ، جَمَّاعة للكتب ، هلك في العشر الثاني لمحرم سنة 459 (10) فجلّل اليهود نعشه ، ونكسوا له أعناقهم خاضعين ، وتعادوه جازعين وبكوه معلنين . وقال عنه ابن حزم الذي لقيه في سنة 414 هـ ، ودخل معه في مناظرة انه « اعلم اليهود وأجدلهم »(11) ، وكذلك وصفه القاضي صاعد بن احمد اسماعيل بانه : « كان عنده من العلم بشريعة اليهود والمعرفة بالانتصار لها ما لم يكن عند أحد من اهل الاندلس »(12) .

ومن هذه الصورة التي لا يمكن ان تحمل محمل المبالغة ، تتجلى لنا بوضوح الخصائص الشخصية التي سمحت لهذا اليهودي بالوصول الى أرفع المراكز في دولة غرناطة ، بعد مركز الملك نفسه . والشيء الذي يستحق ان يسترعي انتباهنا بصفة خاصة ، في وصف ابن حيان ، هو ذلك الاندماج الذي حققه

---

10 ـ سنعود الى مناقشة هذا التاريخ في نهاية الفصل .

11 ـ طوق الحمامة (ص19) .

12 ـ الاحاطة (1/446-447) .

اسماعيل في تقاليد الكتابة(13) ، بل وفي التقاليد الاسلامية أيضا ، حيث لا يتحوج ، وهو أجنبي ، من تزكية الدين الحنيف والصلاة على نبيه الكرم .

ولكن اسماعيل بن نغرالة الى جانب مهارته السياسية والخصائص الشخصية التي يتمتع بها ، كان شاعراً وعالماً متضلعاً ، فقد كان عارفاً باسرار اللغة العربية واللغة العبرية واسع الاطلاع في الديانتين(14) . وقد وضع نحو اثنين وعشرين كتابا ، معظمها في النحو العبري(15) ، وذلك بالاضافة الى مقدمة ضافية للتلمود(16) .

ومن بين كتبه في النحو التي كان مؤ رخو الادب العبرية في الاندلس يولونها أهمية خاصة ، كتاب رد فيه اسماعيل على ابي مروان بن جناح في نحو اللغة العبرية(17) .

وكذلك كان اسماعيل بن نغرالة شاعراً بالعبرية ؛ تطرق في شعره الى المعاني المعقدة واعتمد فيه اسلوبا تسوده الصنعة ، ويتسامى ، بحيث كان يعجز علماء اليهود أنفسهم عن فهم ما فيه من الرموز والحكم والاقتباسات ، خصوصا من آداب اللغة العربية .

وديوان اسماعيل يعتبره الباحثون المحدثون من المصادر المهمة لتاريخ الاندلس السياسي والادبي خلال الفترة التي عاش فيها ، فان كثيرا من قصائده تدور حول الحوادث السياسية ، وتصف وقائع واشخاصا وعمليات حربية اشترك فيها الشاعر الذي كان يقاتل تحت لواء ملك غرناطة . ولولا التزامنا بعدم اعطاء موضوع الوزير اسماعيل بن نغرالة سوى مكان محدود في هذه الدراسة لتوسعنا في ايراد الملاحظات التاريخية التي سجلها ، ولكننا مع ذلك ، لا بد من ان نشير باختصار الى بعض الاحداث التي عني الشاعر بتضمينها بعض

---

13 ـ كاتب الملك في عرف أهل الاندلس يساوي منصب الوزير .

14 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (32/4) .

15 ـ Munsk المصدر المذكور .

16 ـ نشر هذا النص موسى بن عزره في ليدن سنة 1634 م .

17 ـ راجع ترجمة فرنسية له في المصدر المذكور munsk .

قصائده(18) ، وهي بدون شك تكمل الرواية الاسلامية .

لم يرد في قصائد الديوان ما يشير الى ان اسماعيل قد تولى قيادة عسكرية في عهد حبوس بن ماكسن ، ولكنه ابتداء من سنة 1038 م (430 هـ) أي في عهد باديس ، اشترك في الحملات العسكرية بصورة نشيطة ، كما قاد الجيوش الزيرنة . وفي احدى القصائد ، يقول الشاعر :

« ان عشرات الآلاف من الناس يسيرون ورائي ويطيعونني كما لو كنت والدهم » .

وفي سنة 1042 م (434 هـ) شارك اسماعيل في الحملة التي وجهها باديس الى شرق الاندلس لتحرير لورقة(19) ولفك الحصار الذي ضربه عبد العزيز العامري(20) صاحب بلنسية ومجاهد العامري(21) صاحب دانية على

---

18 ـ نشر ديوان اسماعيل بن نغرالة باللغة العبرية في اكسفورد في سنة 1934 بعناية وتحقيق D. S. Sasson بناء على مخطوط تحتفظ به مكتبة اكسفورد . والجدير بالتنويه ان قصائد الديوان تسبقها مقدمة باللغة العربية . وقد ترجم مقتبسات مهمة منه الى اللغة الفرنسية في مجلة Hesparis في سنة 1948 م Schirmann . وهذه الترجمة هي التي اعتمدنا عليها في عرضنا لبعض الاحداث التي ذكرها الشاعر .

19 ـ Lorca من بلاد تدمر ، قال الادريسي عنها انها مدينة غراء (ص 196) ووصفها عبد المنعم الحميري ، بانها تقع « على ظهر جبل وبها اسواق وارباض في اسفل المدينة ، وعلى الربض صور وفي الربض السوق . وبها معدن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الاقطار » صفة جزيرة الاندلس (ص 171 - 173) . ويضيف ياقوت في معجم البلدان (25/5 - 26) « ان بها عنبا يكون العنقود منه خمسين رطلا بالعراق » . راجع أيضا المعزب لابن سعيد (275/2) .

20 ـ راجع عن عبد العزيز العامري اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس ص 219) والبيان (الفهرست) .

21 ـ هو مجاهد بن يوسف بن علي العامري بالولاء (ابو الجيش) ، ملك دويلة دانية Dania وجزيرة ميورقة وما والاهما . تربى في قصر المنصور بن ابي عامر ، وخرج من قرطبة ايام الفتنة على رأس قوة من الجيش فدخل طرطوشة ، قبل ان يستولي على دانيا ويستقبل بها في سنة 412 هـ ومن اشهر غزواته الغزوة التي قام بها على رأس اسطول كبير =

هذه المدينة .

والمعروف ان هذه المعركة كانت واحدة من وقائع الحرب المتواصلة بين عبد العزيز العامري وعديله ابن صمادح التجيبي (ابي الاحوص) صاحب المرية(22) ، وقد كانت نية عبدالعزيز ان يزحف على المرية نفسها بعدما يحتل لورقة ، ولكن حليفه ، مجاهد ، تخلى عنه فلم يبق له من سند في حربه سوى صغار الامراء المجاورين من الافرنج والجنود المرتزقة من النصارى الذين كانوا يطالبونه باجور مرتفعة في مقابل حياتهم .

وكذلك ازداد موقف عبد العزيز حرجا حينما واجه جيش غرناطة الذي احتل اولا ، حصن بالنتي(23) الذي يقع في غربي لورقة . وهناك عسكر جيش باديس وقضى ليلة قبل ان يشن هجومه على لورقة نفسها . وبعد معارك خفيفة استولى الغرناطيون على لورقة وشتتوا جيش عبد العزيز الذي التجأ رجاله الى الجبال المجاورة .

كان الملك ابو نورين أبي قرة اليفراني ، صاحب رندة من اكبر أعداء اسماعيل بن نغرالة ، ويروي الشاعر في احدى قصائد الديوان(24) ، ان ابن ابي قرة تعرض له في سنة 1045 م (437 هـ) على رأس قوة من فرسانه ، بينما كان الوزير يتجه من غرناطة الى جيان وهجم عليه في الطريق ولم ينج اسماعيل بحياته من هذا الكمين الاّ بالقاء نفسه في النهر ، حيث بقي مختفيا ولم يستطع

= لجزيرة سردانية ، راجع بسيرته في العبر (164/6) الحلة السيراء (117/2) المغرب (الفهرست) زامبا ، في معجم الاسرات الحاكمة (ص 291 الجذوة ص 331) بغية الملتمس (457) البيان (3/ 155) المعجب (ص 149) وفيات الاعيان (489/2) نفح الطيب (الفهرست) .

22 ـ كان ابن صمادح واليا على المرية من قبل ابن أبي عامر ثم استقل بها ودانت له ايضا لورقة ، وبياسة ، وجيان ، وما جاورها ، في سنة 444 هـ ، راجع سيرته في اعمال الاعلام (الجزء الخاص بالاندلس (ص 219) الكامل (201/9) البيان (167/3) الذخيرة (237/2/1) المغرب (195/2) العبر (162/6) .

23 ـ بالش. VELEZ RUBIO أو vélez bianco .

24 ـ القصيدة رقم 9 (ص 175) .

احد من الفرسان المهاجمين ملاحقته .

ولما خرق ابو نور الحلف الـذي كان يربطـه بغرناطـة في سنـة 1047 م (439 هـ) وثار على باديس بن حبوس ، قرر الملك الزيري معاقبته ، فوجه اليه جيشا اشترك فيه ابن نغرالة وزحف على بلاده ، فهدم حصونه وأمعن في السلب والنهب .

وعندما استنجد ابن ابي قرة بحليفه الجديد ، صاحب اشبيلية ، وبغيره وحاول الوقـوف معهـم في وجـه قوات غرناطـة ، وقعـت معـركة شديدة بين الفريقين انتهـت بهزيمة ابـن ابـي قرة واسـتيلاء جيش باديس علـى عدد من حصونه ، ثم واصل زحفه حتى وقف عند ابواب رندة ، التي تعتبر أمنه حصون الاندلس قاطبة .

وفي شهر سبتمبر (الموافق ربيع الثاني) من نفس السنة ، أسـر جيش غرناطة مختار العينين الذي كان يقود قوات اشبيلية المرسلة لنجدة ابن ابي قرة ووضع القيد في يديه ثم قتل بعد ذلك(25) .

وهذا النصر شجع ملك غرناطة فيما بعد ، على مواجهة ابن عباد في عقر داره .

ففي السنة التالية ـ فيما يقول الديوان ـ زحف باديس على حقول الزيتون التي تمتد في شمال اشبيلية وعـاث فيها فسادا ونهب وخرب عددا من القـرى الواقعة في المنطقة ، ولما خرجت قوات اشبيلية لصده ؛ اضطرها الى التراجع والتحصن وراء اسوار المدينة المنيعة(26) .

وفي سنة 1053 (445 هـ) اشترك اسماعيل بن نغرالة في حملة عسكرية اتصلت فيها المعارك ضد زعماء البربـر في غرب الانـدلس خلال مدة ثلاثـة اشهر(27) .

---

25 ـ القصيدة رقم 105 (ص 176) .

26 ـ القصيدة رقم 106 (ص 177) .

27 ـ القصيدة رقم 107 (ص 180) .

وفي سنة 1054 م (446 هـ) أصيب اسماعيل بن نغرالة بمرض عقب غزوة مظفرة اشترك فيها مع جيش باديس ، ولزم الفراش عدة اشهر (28) ، ولكنه شفي في السنة التالية وسار على رأس جيش غرناطة في حملة أخرى ضد اشبيلية ، ووقعت بينه وبين المعتضد بن عباد معركة كان النصر فيها حليف جيش باديس ، وقد كان ذلك في شهر أكتوبر سنة 1055 م (شعبان 447 هـ) .

وفي السنة التالية ، وجه باديس حملة الى كورة رية (29) التابعة لمالقة (30) اشترك فيها اسماعيل ، وكانت هذه آخر حملة وجهها باديس الى أرض مالقة قبل ان يستولي نهائيا على عاصمة الادارسة .

ومرة أخرى ظفر جيش باديس بنصر ساحق وعاد يجر وراءه عددا كبيرا من الاسرى .

وهكذا ، فان قصائد الديوان تقف في سرد الحوادث عند سنة 448 هـ ، هل كان مرجع ذلك الى نضوب قريحة الشاعر ، أم ان الرجل الذي مر بثورة البربر ، وعرف أهوالها ومارس الحروب وشهد المؤامرات العديدة قد تعب الآن ، وأخلد الى الراحة ؟.

وابن نغرالة الآن رجل مسن ، فاذا كان ، كما تقول الرواية ، قد هاجر بأسرته الى مالقة في أوائل الفتنة ، فان سنه تتجاوز السبعين بكثير .

ولكن الرجل مع ذلك لا يزال يحتفظ بمهارته وذكائه السياسي وبمكانته عند باديس ، وهذا يتضح لنا من الحادثة التالية التي يرويها ابن الخطيب وغيره ؛ بعدما قتل المعتضد بن عباد عددا من أمراء البربر بأن زَجَّ بهم ، وهم ضيوفه ، في حمام ساخن ثم امر ببناء سور على باب الحمام ، وتركهم يموتون موتة

---

28 ـ القصيدة رقم 141 و142 (ص 181) .

29 ـ Reiyo كورة من كور الاندلس في قبلي قرطبة ، متصلة بالجزيرة الخضراء وهي تتكون من عدة حصون ومدن ورستاق واسع . راجع وصفها في المعجم البلدان (116/3) الادريسي (ص 4) صفة جزيرة الاندلس (ص 79) المغرب (423/1) .

30 ـ القصيدة رقم 145 (ص 181) .

شنيعة ، استولى على ممالكهم وضمها الى مملكته ، وعندما احتل رندة ، قام ، بتواطىء مع سكان العرب ، يذبح من بها من البربر ، بدون تمييز بين الصغير والكبير والرجل والمرأة . ولما بلغت اخبار هذه المذبحة باديس الذي هو حامي البربر ، أشمأز لها واستولت عليه موجة من الغضب بحيث مزق ثيابه .

وكذلك راح باديس يتساءل في داخل نفسه : من الذي يضمن له ان سكان غرناطة من العرب سوف لا يتواطئون مع ابن عباد لقلب عرشه وللقيام بمذبحة مماثلة لمذبحة رندة ؟ .

كانت هذه المخاوف تلازم باديس بالليل والنهار كما لو حلماً فظيعاً لا سبيل الى الصحو منه . وقد ظهرت اعراض قلق باديس في سلوكه المتقلب : فهو سريع الغضب ، وتتور أعصابه لادنى بادرة ، ويشتم كل أحد ، كما كان يلازم الصمت مدة طويلة ، على ان الذي أزعج حاشيته بصفة خاصة هو ان باديس الذي لا يكاد يصحو من السكر ، قد كف الآن عن الشراب تماما ! .

كانت تعتلج في نفس باديس فكرة فظيعة لا يدانيها في الفظاعة سوى الجرم الذي اراد ان ينتقم منه ، ولخطورتها لم يكن يبوح بها لأحد ، حتى لأقرب المقربين اليه ، فان الملك قد اقتنع الآن انه لا سبيل الى الامن وبجواره ابن عباد وعاصمته هو تعج بالعرب . .

والفكرة الخبيثة التي راودته هي ان يتخلص من سكان غرناطة من العرب بنفس الطريقة التي تخلص بها ابن عباد من العنصر البربري في رندة . والمخطط الذي تصوره باديس لهذه الغاية مخطط بسيط نسبيا ولم يراع فيه الا اعتبارات الفعالية : يسلح الجيش ويجمعه كما لو كان سيقوم باستعراض عسكري ، وعندما يلتئم شمل العرب لصلاة الجمعة ينقض عليهم الجيش بالسيف ويذبحهم عن آخرهم .

ونظراً لان الفكرة قد أختمرت في ذهنه وبلغت مرحلة التنفيذ ، فقد رأى الملك ان يعرضها على وزيره ومستشاره اسماعيل بن نغرالة ليعرف رأيه فيها ، ولكن باديس احتاط عند ابلاغ مضمون مشروعه للوزير اليهودي بان يقول له انه

مُصممٌ على تنفيذه ، سواء وافق ام لم يوافق ، ولكنه طلب اليه ان يلزم الكتمان التام بشأنه .

لو كان ابن نغرالة ضعيف الشخصية أو قليل الولاء ، ولكان من المرجح ان يجد اغراء خاصا لهذا المشروع الذي سيخلص غرناطة من العنصر العربي ، بحيث تخلص المدينة للبربر واليهود ، اليهود الذين يشكلون أغلبية السكان ، ولكن الرجل لم تفارقه حكمته وسداد رأيه في هذا الموقف العويص ، فعلى الرغم من العزم والتصميم الذي لاحظه في لهجة باديس ، فقد ابلغه انه لا يستحسن هذه الخطة . ولما عجز عن اقناعه بالعدول عنها ، طلب اليه ان يتمهل في تنفيذها ويفكر في النتائج الوخيمة التي تترتب عليها .

وغني عن البيان ان حسابات الوزير اليهودي في معارضته للمشروع ، لم تكن تقوم على العواطف الاعتبارات الانسانية ، وانما كان منطقه يراعي اولا ، وأخيراً ، المصلحة ا' ياسية . فان ابن نغرالة أضاف على سبيل التوضيح لموقفه قائلا :

- هبْك وصلت الى إرادتك بحضرتك (اي في عاصمتك) على ما في استباحتهم من الخطر ، فأنيٌ تقدر على الاحاطة بجميعهم من أهل حضرتك وبسائط أعمالك ؟ أتراهم يطمئنون الى الذهول عن مصائبهم والاستقرار في موضعهم ؟ وما أراك في سيوف ينتظمون عليك في جموع يغرفونك في لججها ! ولكن باديس أنكر عليه هذا الموقف ورد عليه نصحه آخذا له بالكتمان عليه .

وعلى الرغم من هذا التصميم ، فان اسماعيل بن نغرالة لم يبق مكتوف اليدين ، بل راح يعمل بلباقة لتجنب كارثة لمملكة غرناطة ، فقد بعث بنساء الى بعض شيوخ العرب ينصحهم بعدم الذهاب الى المسجد لاداء صلاة الجمعة . وبهذا الانذار الذي شاع بين العرب احتاط هؤلاء . وبدلا من التوجه الى المسجد الجامع ، عمل كل منهم لاخفاء نفسه .

ولما حل موعد الصلاة يوم الجمعة ، تخلف جميع العرب عن الصلاة ، فيما عدا بعض الرعاع . وازاء هذا الفشل الذريع لمشروعه ، اعترت باديس موجة من الغضب واستدعا وزيره الذي اتهمه بافشاء السر .

ولكن الوزير اليهودي أنكر هذه التهمة وردّ عليه قائلا :

ـ ان التفسير المعقول لتخلف العرب عن صلاة الجمعة ، هو ان العرب قد رأوا أنك جمعت جيشا مسلحا لغير سبب ، حيث ان السلام يسود علاقاتك بجيرانك ، ومن ثم فلا بد وانهم توجسوا خيفة من أنهم هم المقصودون بهذه العملية : « ومن أين ينكر على الناس الحذر وانت قد استركبت جميع جيشك في التبعية لا لسفر ذكرته ، ولا لعدوّ وثب اليك ؟ فقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم وقادك اصارهم ، فاعد نظرك ، يا سيدي ، فسوف تحمد عاقبة رأيي وغبة نصيحتي(31) .

وكذلك عدل باديس عن قتل العرب من رعاياه . وبدلا من ذلك قرر السير على رأس جيشه لغزو أراضي اشبيلية ، ولمعاقبة ابن عباد ، زعيم اعداء البربر ، وقد ضخم جيشه بعدد كبير من البربر الذين نجوا من مذابح ابن عباد في رندة ومورور وغيرهما ، وهربوا الى غرناطة .

ونحن لا نعرف بالضبط تفاصيل المعركة التي كانت بدون شك ، عنيفة بسبب البغض والحقد الذي كان يحمله في نفوسهم للمعتضد اولئك البربر الذين شاهدوا بأعينهم اعماله الفظيعة ، وبسبب كره سكان اشبيلية لبربر غرناطة ولنظام باديس بصفة خاصة ، لانه وضع على رأس دولته رجلا يهوديا .

ومهما كانت نتيجة المعركة ، فان الضحايا الحقيقيين لهذه الحرب ، هم اولئك البربر اللاجئون الى غرناطة ، فان المعتضد رفض الاذن لهم بالعودة الى المدن التي احتلها ، بعدما استقر له الامر فيها ، كما رفض باديس السماح لهم بالاقامة في مملكة غرناطة .

وفي نهاية المطاف ، اضطر هؤلاء الآلاف البؤساء الى اجتياز مضيق جبل طارق الى المغرب ولما وصلوا الى سبتة التي كان عليها سقوط البرغواطي ، في وقت كان البلد فيه يعاني مجاعة ، رفض سقوط الاذن بالاقامة في المغرب ، فماتوا من الجوع(32) .

---

31 ـ الاحاطة (1/446-447) راجع ايضا دوزي تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/98-99) .

32 ـ دوزي ، نفس المصدر .

متى توفي اسماعيل بن نغرالة ؟ المصدر الوحيد الذي يقدم لنا تاريخ وفاته هو ابن حيان الذي نقل عنه ابن الخطيب وابن خلدون وهو النصف الثاني من المحرم سنة 459 هـ (2 - 11 ديسمبر 1066 م)(33) .

ولكن التاريخ الذي يورده المؤ رخ الاسرائيلي ، ابراهيم ابن داود(34) لوفاة اسماعيل ، هو سنة 1057 م (449 هـ) وهذا التاريخ الاخير اكثر تطابقا مع الاحداث التاريخية ، وهو الذي اعتمده دوزي وليفي يروفنسال في مقدمة مذكرات الامير عبد الله (التبيان) . ونحن نميل الى هذا التاريخ لان الحوادث التي يذكرها الديوان تقف ، كما أشرنا ، عند سنة 448 ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فلو كانت وفاة اسماعيل في سنة 459 هـ لما كانت مدة وزارة ابنه يوسف تزيد عن بضعة اشهر قبل مقتله ، وهو شيء لا يتفق مع بعض المعطيات الاساسية التي لدينا ، وخصوصا تلك التي وردت في مذكرات الامير عبد الله الصنهاجي بشأنه ، فان وقتا طويلا قد مر على تولي يوسف الوزارة قبل قيامه باغتيال بلكين بن باديس (سيف الدولة) ، وقبل ان يقتل بعد ذلك بثلاث سنوات (سنة 459 هـ 1067 م) عقب ثورة عارمة قامت في غرناطة ضد اليهود ، والاولى اذا ، اعتبار ان موت اسماعيل وقع في سنة 449 هـ (1057)م وربما كانت الغلطة النساخ ، او أن الامر قد اختلط على ابن حيان فذكر تاريخ وفاة الابن باعتباره تاريخ وفاة الاب .

***

كان اسماعيل بن نغرالة كريما يقرب الادباء ويحسن الى الشعراء ، وهي خصائص لم تتوفر في مخدوميه ، حبوس وابنه باديس ، ومن ثم فلا عجب ان ينقل الينا مؤ رخو الأدب الاندلسي قطعا من النشر الفني وقصائد ، بعضها من مستوى رفيع ، في مدحه .

ومن أكبر الشعراء الذين مدحوا اسماعيل بن نغرالة ممن وصلت الينا

33 ـ الاحاطة (447/1) .

34 ـ Munk المصدر المذكور .

آثارهم ، الاخفش بن ميمون القبذاقي (35) القائل :

« ان مدحت فلا تمدح سواه ففي يمناه بحر محيط للعفاة زخر يصغي الى المدح من أدب كمشتكي الجدب قد أصغى لصوب مطر .

ومن أعلام الادب الاندلسي الذين مدحوا اسماعيل ابن نغرالة (وهو من شعراء الذخيرة) ابو احمد عبد العزيز بن خيرة المنفتل القرطبي (36) .

فمما أورده ابن بسام لهذا الشاعر قطعة من النثر الفني جاء فيها قوله :

« من فهم الزمان وخلقه ، ورفل في جديده وخلقه ، وعلم انه يستأصل ريشا يواصل ، ويقصم غِبَّ ما يقسم - لم يبال بوقع سلاحه ، ولا استعد لوقت استصلاحه، ولما أغصني بالريق وحفزني بالمضيق ، ولم يتركهما الا سني عقده ، ولا نظما الا نثر عقده ، ورأيت الاستحالة في الحال والعيلة في العيال ، وجد ما قد جد ، فجاء من المصلين ، وساهم فكان من المدحظين هيأت راحلة وأثاثا ، وطلقت ابنة الوطن ثلاثا ، وقلت اما ان أجد فاظهر ، او أموت فاعذر ، فكم من حرة منافرة القناع تندبني موقف الوداع وباكية يوم الرحيل ، بكاء الحمام على الهديل ، فقد فقأت عين السري باربع كقداح السرا ، يتشبثون بالاكام ، تشبت

---

35 - ينتمي الاخفش الى حصن القبذاق ، من أعمال قلعة بني سعيد . تأدب في قرطبة ثم عاد الى غرناطة واعتكف بها لمدح وزيرها اسماعيل بن نغرالة . راجع نبذة عنه في النفح (232/3) المغرب (182/2) . وقد أورد المقري البيتين التاليين في مدحه لاسماعيل :

صابح محياه تلق النجح في الامل — وانظر بناديه حسن الشمس في الحمل
ما ان يلاقي خليل فيه من خلل — وكلما حال صرف الدهر لم يحل

ولكن ابن سعيد (نفس المصدر) عزاهما الى ابي اسحاق وابراهيم بن حكم ، الذي قال ان باديس بن حبوس استكتبه واستوزره . وان صحت هذه النسبة يكون وزير باديس هو الذي مدح اسماعيل .

36 - وصفه ابن سعيد بانه « من أعلام شعراء البيرة في مدة ملوك الطوائف ، بانه الذكر في الذخيرة والمسهب » . المغرب (99/2) ، راجع ترجمته ايضا في الذخيرة (259/2/1) الريات لابن سعيد (ص 58) الخريدة لابن العماد (طبع تونس 11/2) وقد ورد اسمه في هذا الكتاب بتحريف : احمد بن الشنقاق المنفتل .

الخصوم بالاحكام ويتعلقون بالمطي تعلق الايتام بالوصي ، الى ان أخلعت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر وجعلت اعوذهن بالمثاني وأبسط لهن الاماني ، واقول :

ـ ستنسين هذا الموقف اذا اتصلتن باسماعيل بن يوسف ، فتى كريما خالا وعما وشرح من المجد ما كان معمىً فسّا فصاحة ، وكعبا سماحة ، ولقمان علما ، والاحنف حلما ، اكرم همة من همام وأعظم بسطة من بسطام ، ان خاطب اوجز ، وان غالب اعجز ، أو جاد أجاد ، او وعد اعاد ، يأمر ويمير ويأجر ويجير ، ماوي السماح ، والضيف ورحلة الشتاء والصيف ، حامي الذمار ، بعيد المضمار ، لا يظلم نقيرا ، ولا يخيب فقيرا ، يحافظ على صلاته حفظه لصلاته ، ويحن الى البذل حنين الغريب الى الاهل ، قرن الفضائل والفواصل ، فشاق الاوائل والاواخر :

سقطوا برفعة فضله	كالشمس في شرف المنازل
هذا ابن يوسف الذي	ورث الفضائل عن فواصل
شرف الزمان بمثله	شرف الاسنة بالعوامل
من لم يلذ بجانبه	لم يامن الدهر المخاتل
متقلد سيف العلا	والمكرمات حمائل
قصرت في وصفي له	ولو انني سبحان وائل

وفي قصيدة اخرى طويلة أوردها ابن بسام(37) يقول المنفتل القرطبي في مدح اسماعيل بن نغرالة :

كأن سماء الارض بحر زبرجد	وقد نثر الغواص من فوقه درا
لقد طال هذا الليل فالدهر	بعضه ولم أر ليلا قبله شاكل الدهرا
وما اكتحلت عيني بمثل ابن يوسف	فلست احاشي الشمس من ذا ولا البدرا

37 ـ الذخيرة (1/2/266-267) .

ومنها :

يخالـــون من فرط الحياء أذلة وترتــج أحشــاء الملــوك لهــم ذعرا

ومـن لم يكن للنظـم والنثــر محسنا فان نداهـم علــم النظــم والنثر(38)

الى ان يقول :

ومــن يك موسى منهــم ثم صنوه فقـل فيهـم ما شئـت لم تبلـغ العشرا

فكم لهـــم في الارض من آية ترى وكم لهــم في النـــاس من نعمــة تترا

أجامـع شمـل المجـد وهــو مشتت ومطلق شخص المجد وهو من الاسرى

فضلـت كرام النـاس شرقـا ومغربا كما فضــل العقيان بالخطــر القطرا

وان فرقـوا بــين الضلالــة والهدى لما قبلــوا الا انــا ملك العشرا

وقـد فزتُ بالـدنيا ونلـت بك المنى واطمع ان القى بك الفوز في الاخرى

وقد علق ابن بسام على هذا المقطع من القصيدة بقوله :

ـ فقبح الله هذا مكسبا وابعد من مذهبه مذهبا تعلق به سببا ، فما ادرى من أي شئون هذا المدل بذنبه المجتري على ربه ، اعجـب : تفضيل هذا اليهـودي المأبون على الانبياء والمرسلين ، أم خلعه اليه الدنيا والدين ؟ حشره الله تحت لوائه ولا أدخله الجنة الا بفضل اعتنائه ! »(39) .

***

38 ـ علق ابن بسام على هذا البيت بقوله : وهذا القصيد اندرج فيه من الغلو ما لا اثبته ولا أرويه ، وأبعد الله المنقتل فيه وفصل ، وقبحه وقبح ما أمل ، ونحن بدورنا لا نستطيع ان نقول افضل من ذلك ، فيما اهملنا ايراده مما ذكره ابن بسام .

39 ـ نفس المصدر (1 / 2 / 268) .

وزارة يوسف بن نغرالة

ترك اسماعيل عند وفاته ابنا اسمه يوسف ، تربى في قصور بني زيري ، وعني أبوه بتعليمه وتدريبه على شؤ ون الدولة ، فلم يعرف ذل الذمة ولا قذر اليهود ، وكان جميل الوجه حاد الذهن ، واسع الثروة مغترا بنفسه ، وقد عينه باديس ليجمع الجزية والضرائب ، فأبدى اجتهاداً كبيرا في ذلك ثم لم يلبث ان ارتفعت مكانته في بلاط غرناطة .

كان لباديس وزيران ، وهما علي ، وعبدالله بني القروي ، فكان يتقرب اليهما بالاموال حتى أطمأنا اليه ونصحا لباديس بالاعتماد عليه ، فقدمه باديس ، ووصل به الامر ان انتزع ما كان بيد ابني القروي من النفوذ ، والاملاك أيضا .

وصف ابن بسام يوسف بن نغرالة بالعبارات التالية :

- « كان ابوه رجلا من عامة اليهود ، حسن السيرة ، ميمون النقية عندهم ، تولى لباديس ولأبيه قبله بغرناطة جباية المال وتدبير أكثر الاعمال ، ونجم ابنه غلاما وضيئا ومركبا - زعموا - وطيا ، وكانت لمن اعتنى يومئذ بالغلمان فتنة ، حتى يقال إنه ، وإنه ، فقُلِّد ازمة الاعمال وخلى بينه وبين اثباج الاموال ، ووطىء عقبة جماهير الرجال وجرى به طلق الجموح ، مهونا فيه مأثور القبيح ، فنأى بجانبه واعرض عن ذكر عواقبه ، حتى كان يغسل يده من القبل ويتمدح بالطعن على الملل ، ألَّف كتاباً في الردّ على الفقيه ابي محمد بن حزم ، وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الاسلام ، فما دفع عن ذلك بتأنيب ، وقد نصبه مكانه من السلطان غيضا للاحرار وحمة على الليل والنهار ، واليهود مع ذلك

تتشاءم باسمه وتتظلم من جور حكمه . .

وهو مع ذلك يمتد في غلوائه ، غافلا عن عادة الله في نطرائه ، فغصب يهود احكامها وذل أعلامها ، وتسمى من خططهم الشرعية بالناغيد ، معناه المدير عندهم(1) .

اشتهر يوسف الى جانب كل الرذائل التي ذكرها ابن بسام ، أيضا بالكبرياء والصلف وبالتهجم على الاسلام واليهودية معا ، وقد كان لا يتحرج في اذاعة نقده للدين باللسان والقلم .

والرسالة التي قال ابن بسام انه كتبها في الرد على ابن حزم لم تصل الينا ، كما انه لم يهتم بالاقتباس منها احد من مؤ رخي الاندلس ، ولكن رد ابن حزم على هذا اليهودي المارق قد بلغنا بنصه ، ومما لا شك فيه ان اهتمام ابن حزم بالرد على يوسف ، يدل على ان آراءه كان لها تأثير ، ولم تكن مجرد نزوات فكرية ، ونحن مدينون على كل حال باخراج هذا النص وتحقيقه لاحسا عباس الذي قدم له بمقدمة قيمة(2) .

وفيما يلي نقدم نبذة وجيزة من ردود ابن حزم ومقتطفات من هذه الرسالة التي لها ، الى جانب دلالتها الموضوعية ، دلالة سياسية أيضا ، فنحن نعرف ان جوا ثقافيا متحررا كان يسود في غرناطة في عهد باديس ، ولكن قيام وزير مسؤ ول ، وهو فوق ذلك أجنبي عن الاسلام ، بالتهجم على القرآن ، دون ان يجد استنكارا من السلطان او تفنيداً من علماء غرناطة ، أمر يصعب تصوره(3) وقد اقتضى الامر ان يرفع علم المقاومة ليوسف ولليهود بصفة عامة ، رجل

---

1 ـ الذخيرة (270/2/1) راجع عن يوسف بن نغرالة ايضا الاحاطة (447/1) اعمال الاعلام (ص 264) البيان (264/3 - 265) مذكرات عبدالله (ص265 وما يليها) النفح (387/3) المغرب (114/2 - 115) . وقد وقع ابن سعيد في كثير من الاضطراب فخلط ، كما خلط ابن خلدون ، بعده (العبر161/4) بين الاب والابن .

2 ـ نشر دار العروبة ، القاهرة ، 1960 .

3 ـ فيما يلي نموذج من شعره في تنظيم القرآن .

نقشت في الخد سطرا ... من كتاب الله موزون
لن تنالوا البر حتى ... تنفقوا مما تحبون

اصطهده ملوك الطوائف وطارده الفقهاء وكان يعيش على هامش المجتمع الاندلسي ، بعد ما أحرقت كتبه .

بعد الديباجة التي يْلوحٍ فيها ابن حزم بثراء اليهودي ، ويندد بنفوذه السياسي ، يقول انه ألفً كتابا وهو الذي « يغلي قلبه بالعدواة للاسلام » قصد به ابانة تناقض كتاب الله عز وجل ، وبعد ذلك راح ابن حزم يناقش أقوال اليهودي ويفندها على أساس نصوص اقتبسها مما نقله أحد العلماء الذين عنوا بالرد عليه ـ حيث انه لم يتمكن من الحصول على رسالة يوسف بن نغرالة .

والرد الاول لابن حزم يتصل باعتراض اليهودي على الآية الكريمة « وان **تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك** » (النساء : 78) ، حيث ابرز ما زعم انه تناقض بين صدر الآية التي تعيد كل ما يصيب الانسان من خير وشر ، الى الله وبين آخرها الذي يقول : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك (النساء : 89) .

وقد رد عليه ابن حزم بان الله كذب الكفار وبين لهم ان الحسنات السارة هي من عند الله بفضله على الناس ، وان كل سيئة يصيب الله تعالى بها انسانا في دنياه ، فمن قبل نفس المصاب بها ، بما يجني على نفسه من تقصير ، فيما يلزمه من اداء حق الله تعالى .

وبعد ذلك راح ابن حزم يجند الادلة من القرآن وأثر السلف الصالح ، بل ومن التوراة أيضا ليدعم حجمه(4) .

والاعتراض الأخر الذي زعمه اليهودي من المتناقضات ، ورد عليه ابن حزم ، يتصل بالآية الكريمة : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤ ذن لهم فيعتذرون » (المرسلات : 35) التي تناقضها آية أخرى ـ فيما زعم ـ وهي قوله تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » (النحل : 111) .

وقد رد ابن حزم بان الأيتين تصفان موقفين مختلفين يوم القيامة(5) .

---

4 ـ رسالة رد على ابن النغرالة (ص47 - 51) .

5 ـ نفس المصدر (ص54 - 56) .

وبنفس الطريقة والاسلوب ، فند ابن حزم اقوال ابن نغرالة بشأن الآية الكريمة : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » (الرحمن : 39) وقوله تعالى « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » (الاعراف : 6) فيقول : « لو فهم هذا المائق الجاهل أدنى فهم لم يجعل هذا تعارضا. اما قوله تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » فان ما بعد هذه الآية متصلا بها قوله تعالى « فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ، فبأي آلاء ربكما تكذبان » (الرحمن : 40 - 45) فَصَحَّ بهذا النص ، ان هذا انما هو في حين ايرادهم جهنم التي هي ، انشاء الله ، دار هذا الخسيس ذي الظهارة اليهودية والبطانة الدهرية »(6).

ولما فرغ من هذه الردود التي صاغها في ثمان فقرات ، أطلق عليها عنوان « فصول » حوَّل ابن حزم سهام نقده الى الديانة اليهودية نفسها ، كما يدين بها اليهود ، وراح ينعي عليهم كثيرا مما ينسبونه الى الله والى الانبياء ، كما وردت في الكتب التي طالعها(7) ويندد باستسهال اليهود للكذب ، قائلا :

- « فما لقيت منهم أحداً قط مجانبا للكذب القبيح على كثرة من لقيناه منهم »(8) .

وأهم ما ينصب عليه نقد ابن حزم وتفنيده له هو ادعاء اليهود في التوراة ان بعض الانبياء يزنون وأن بعضهم ابناء زنا ، وكذلك كذَّب ما جاء في التوراة من ان الله وعدهم بقوله : « سترثون الارض المقدسة وتسكنونها الى الابد » قائلا : ان كذب هذا الوعد قد ظهر : « فما سكنوه في الابد وما عمروه الا مدة يسيرة من آباد الابد ، ثم أخلوه وأخرجوا عنه وأورثه الله أمة محمد » صلى الله عليه وسلم .

---

6 - نفس المصدر (ص47 - 51) .

7 - ينبغي التذكير بان ابن حزم لم يكن يعرف العبرية ، وانما كان يطلع على النصوص الدينية اليهودية - بما فيها التوراة - في ترجماتها العربية ومن هنا ، وقوعه في بعض الاغلاط والتحريف فيما ينقله ليرد على يوسف بن نغرالة .

8 - نفس المصدر (ص64 - 65) .

ويختتم ابن حزم رده فينـدد بمـن قرّبـوا اليهـود وانزلوهـم منزلـة عاليه فيقول : « ان أملي لقوي ، وان رجائي مستحكم في ان يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم وجعلهم بطانته وخاصته ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهـم » (المائـدة : 51) ، فمـن سمع هذا الكلام وأدناهم وخالطهم بنفسه من ملوك الاسلام ، فانه ان شاء الله تعالى ، قمين بان يحيق الله عز وجل به ما أحاق بهـم من الذلـة والمسكنـة والهوان والصغار والخزي في الدنيا سوى العذاب المؤلم في الآخرة .

« وان من فعل ذلك لحرى ان يشاركهم فيما أوعدهـم اللـه تعالـى في توراتهم في السفر الخامس ، اذ يقول : ستأتيكم وستأتي عليكم هذه اللعنـة التي اصف لكم ، فتكونون ملعونين في مدائنهم وتلعـن أجـدادكم وبقـاياكم ويكون نسلكم ملعونا ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج فيبعث الله عليكم الجوع والنصب حتى يهلككم ويقل عددكم »(9) .

وهذا التنديد العنيف من ابن حزم ، يذكرنا بعبارات أخرى سجلها مفكر آخر عظيم وهو الفتح بن خاقان ، اذ يقول :

- « وما زال (باديس) متقدما في مناحيه متفقـدا لنـواحيه ، لا يرام بريث ولا عجل ، ولا يبيت له جار على وجل ، الى ان وكّل أمره الى أحد اليهـود ، واستكفاه ، وجرى في ميدان الاهمال حتى استوفاه ، وأمره اضيع من مصباح الصباح ، وهمُّه في غبوق وإصبـاح ، وبـلاده مراد للفاتـك وستـره في يد الهاتك »(10) .

هذه العبارات وغيرها تدلنا على مدى استنكار حملة الرأي وأعلام الثقافة الاسلامية للوضع الغريب الذي تعتنق فيه بعض الدوائر الرسمية الدعـوة الـى الالحاد ، وأما ما يسميه ابن حزم بالدهرية . وهذه الصرخات والاحتجاجات من علماء الاسلام كانت تكفي للاحاطة بنظام بن نغرالة لو وجدت صدى لدى

9 ـ نفس المصدر (ص78-79) .

10 ـ نقلا عن دوزي في Abadidarum (ص325) .

الملك ، ولكن الامر لم يكن كذلك . ومن ثم ، فاذا كانت هذه الاحتجاجات قد ساهمت في خلق شعور عام من الحقد والبغض ضد اليهود ، فهي ليست السبب المباشر لسقوط يوسف ولمأساة اليهود في غرناطة .

يمكن القول بان نجم اليهودي قد أخذ في الافول يوم تحول عنه بلكين ابن باديس ، ولي العهد . ولما شعر ابن نغرالة بان ابن الملك لا يضيع فرصة للحط من قيمته عند أبيه ، خطرت له فكرة التخلص من بلكين وتقديم اخيه ، ماكسن لولاية العهد .

وذات يوم وجه دعوة الى ولي العهد للشرب في منزله مع بعض رجاله ، وسقاه سما . ولما خرج من المنزل شعر باعراض السم الذي قتله في اليوم التالي(11) .

ولما بلغ خبر موت بلكين باديس استاء له أشد الاستياء فاستغل الوزير حالته النفسية وثقته فيه وصرف التهمة في قتل ابنه الى طائفة من فتيان بلكين وجواريه وقرابته ، فأمعن باديس فيهم قتلا تحت فورة الغضب ، وفتك بعدد من الاقارب والوجهاء بحجة ان ابنه راح ضحية لمؤامرة سياسية . وبذلك اصطاد اليهودي أكثر من عصفورين بحجر ، حيث تمكن من التخلص في نفس الوقت من عدد من خصومه من رجال القصر ، وخلا له الجو ، و« تبرمك » على حد تعبير عبدالله الصنهاجي ، ثم سعى في تنفيذ الجزء الثاني من مخططه ، وهو تولية ماكسن بن باديس العهد . ولكننا قبل ان نمضي في عرض الاحداث التالية نرى من الضروري لتسلسل البحث ، الرجوع بضع سنوات الى الوراء للتذكير باحداث أخرى وقعت في دولة باديس .

كان هم باديس وشغله الشاغل عدة سنوات هو الاستيلاء على مالقة التي كان لا يكف عن شن غرات على أراضيها في عهد آخر بني حمود فيها . فقد كان يبلغه عن ابن عمه المعزّ بن باديس ، صاحب افريقية ، كلما استولى على

---

11 ـ الاحاطة (447/1) اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس ص265) مذكرات عبد الله (ص265) وقد شذّ عن هذه الرواية القاضي النباهي الذي قال ان بلكين « توفي من وجع أصابه » المرقبة (ص92) .

حصن من حصون الاندلس قوله :

يخاطبي صاحب غرناطة بأخذ الكور والقرى ، اما انه لو أخذ مثل قرطبة ومالقة وما اشبهها من القواعد ، كنا نبايعه في ذلك الحين »(12) .

وبالاضافة الى ذلك ، كان سلطان الحموديين قد ضعف كثيرا في مالقة ، فكان باديس يخشى ان يستولي عليها أحد جيرانه ، مثل ابن عباد ، الامر الذي يكون من نتائجه اختلال التوازن في القوى ورجحانه لغير مصلحة غرناطة .

وفي متسلخ ربيع الاول سنة 448 هـ (1056 م) غزا باديس عاصمة الحموديين واستولى عليها ونزلها بجيشه وقدم محمد بن الحسن الجذامي النباهي(13) للقضاء والوزارة على ما كان عليه في أيام ادريس العالي ، ثم عين ابنه بلكين (سيف الدولة)(14) واليا عليها ، ورسخه للولاية بعده(15) ، ثم عمل لتحصين المدينة ، فبنى قصبتها بنياناً محكما كلفه كثيرا من الجهد والمال . فقد كانت نيته ان يتخذ من هذه المدينة معقلا استراتيجيا يلجأ اليه للمقاومة الاخيرة أطول مدة ممكنة ، اذا اضطرته الظروف لذلك ، قبل ان يلتحق بابناء عمه بافريقية .

على ان باديس بعد ما فقد ابنه ، فقد لذة الحكم وترك شؤون الدولة ليوسف بن نغرالة ، وانصرف هو الى الشرب . ومما زاد من غفلته وقلة اكتراثه ، ان المملكة كانت تمرٌ بفترة نادرة من الرخاء والازدهار والسلام ، وان الاموال كانت تتدفق على خزينة الدولة بدون انقطاع(16) .

---

12 ـ المذكرات (ص266) .

13 ـ قتل في سنة 463 هـ ، راجع سيرته في المرقبة العليا (ص 91 - 94) .

14 ـ نفس المصدر ، وفي رواية البيان (166/3) أباديس ولي على مالقة ابنه المعز « وجرت له حروب وخطوب الى ان هلك » .

15 ـ استمرت ولاية بلكين على مالقة ، في رواية النباهي حتى سنة 456 هـ ، وهنا ينبغي ان نشير الى خلاف آخر بين النباهي وابن عذاري : فبينما يقول الاول ان بلكين مات في سنة 456 هـ ، يذكر صاحب البيان ان اليهودي سمم سيف الدولة في سنة 457 هـ .

16 ـ قارن تقويم البلدان (ص 174 - 175) معيار الاختيار لابن الخطيب (ص 5 - 13) المذكرات (ص 267) الكامل (292/9) القلائد (ص 2) . انظر أيضا دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/108 - 110) .

ولكن هذه الحالة لم يقدر لها ان تدوم طويلا فان ابن عباد (المعتضد) كان يقف بالمرصاد لينغص على باديس هدوءه وملذاته ، فبعد ما استولى صاحب اشبيلية على رندة والجزيرة الخضراء وغيرهما من الامارات واتسع ملكه ، اتجهت انظاره الى من بقي من أمراء البربر الذين كانوا لا يزالون على ولائهم لغرناطة ، فكان محمد بن خزرون ، أمير بني يرنيان ، اصحاب شذونة واركش في رأس قائمة هؤلاء .

كان المعتضد ينكر على هذا الامير ، الذي كان أخوه عبدون ممن قتلهم في حمامة ، انه كان يقف موقفا غير ودي من أشبيلية ، ولذلك اتخذ منه هدفا للمناورات والتهديد المستمر بحيث انه بني حصناً قريبا من بني يرنيان ، ثم راح يطلق خيله ورجاله ليعيثوا فسادا في أراضي الزناتيين .

ولما ضاق الامر ببني خزرون ، قصد جماعة منهم ، مع اميرهم ، الى باديس بن حبوس ، واتفقوا معه على ان يتنازلوا له عن أمارتهم وحصنها وكل ما فيه من المخزونات ، في مقابل ثمن معين ، ويعطيهم أرضا يقيمون بها في مملكته غرناطة ، فيكونوا تحت حمايته وكنفه .

وتنفيذا للاتفاق ، بعث باديس معهم جيشا وخرجوا من غرناطة قاصدين حصن أركش ، وبعد ما جمعوا أمتعتهم وعيالهم ، سلموا الحصن لجيش باديس وعادوا متجهين الى الاراضي التي عينت لاقامتهم .

ولكن ابن عباد الذي كان عالما بهذا التدبير ، قام بما ينبغي لاحباطه ، فقد نصب لهم كمينا في موقع على طريقهم ، على مسافة عشرين ميلا من الحصن ، وهناك شن عليهم هجوما قابله بنو يرنيان بكل شجاعتهم دفاعا عن نسائهم واطفالهم ، ولكن قوة ابن عباد الكبيرة ظفرت بهم وطاردتهم حتى أبيد اكثرهم ، وقتل أميرهم ، محمد بن خزرون ، في بداية المعركة ، كما قتل قائد جيش باديس ، ثم استولى المعتضد على حصن اركش ، بكل ما فيه وعلى سائر بلاد شذونة ، وخطب له فيها (سنة 458 هـ) (17) .

17 ـ البيان (3/272-273) .

وبعد ذلك استمر ابن عباد في التوسع حتى قضى على جميع أمراء البربر ، ولم يبق في طريقه سوى باديس بن حبوس الذي يحاول ان يتبلع مملكته قطعة فقطعة .

وأهم قطعة في المملكة ، بعد غرناطة هي مالقة التي وضع المعتضد خطة محكمة للاستيلاء عليها . وهذه الخطة تشمل تعبئة قوات اشبيلية البرية وتجهيز الاسطول ، بالاضافة الى توطيء العنصر العربي في المدينة مع صاحب اشبيلية (تماما كما صنع لدى استيلائه على رندة) .

والعنصر العربي في مالقة كان ساخطا على باديس ، ولكنه لم يكن يعتبر ابن عباد أقل استبدادا وقسوة منه . وميزة ابن عباد الوحيدة في نظرهم ، هي انه عربي ، والعربي خير من البربري ، على كل حال ، وفي هذا السياق يقول ابن عذاري :

ـ « كان اهل مالقة اذا جرى ذكر ابن عباد (المعتضد) ارتجوا اليه ورفعوا اصواتهم بالثناء عليه ، هذا على ما كانت أعينهم تقذى من قبح اثاره ويصك سمعهم من هول أخباره ويلفح وجوههم من شرر ناره ، تشيعا لم يكن له أصلا الا شؤم الحمية ولؤم العصبية ، فاهتبلوا غرة باديس ، اميرهم ، وناجوا عباد بذوات صدورهم ، وألقوا اليه بأيدي تأميلهم ، وتأميرهم ، فجأجاوا ، والضمآن لا يروى على طول الشراب ، وهزوا سيفا يكاد يهتك الضريبة قبل الضرب ، فجد فيها وشمر ونادى أهلها وحشر . . .فلبى دعاء أهل مالقة وأنفذ اليهم شركته وأطلع عليهم كتيبته ، معصبة بابنية ، جابر ومحمد الظافر »(18) .

وفي اليوم المعين ، قام السكان العرب بثورة اشترك فيها نحو خمسة وعشرين حصنا ، وذلك في الوقت الذي اخترقت فيه جيوش ابن عباد حدود الامارة .

ولما دخل الظافر (المعتمد) بن عباد مالقة ، أعمل السيف في البربر

---

18 ـ نفس المصدر (3/273 - 274) .

مستغلا خبرة رجاله في رندة ومورور وقتلوهم ولم ينج سوى القليل(19) ، ثم احتل المدينة والحصون المجاورة لها ، وذلك فيما عدا القصبة التي تحصَّنت فيها قوة من السودان المغاربة وطلبت الى باديس المسارعة بارسال النجدة اليها .

وأما المعتمد بن عباد فقد استراح بعد انتصاره السهل وظن ان الامر قد استقر له ، فاطلق لجيشه العنان للهو والعبث واقتناص الملذات ، بعد ان ضم جوهرة ثمينة الى تاج ابيه .

وصف الفتح بن خاقان احتلال ابن عباد لمالقة باسلوبه المنمق الرفيع والذي يتفق مع الحقيقة التاريخية بالعبارات التالية :

« . . . فسقط الخبر على المعتضد باليه مُلَفَّح الحرب منتج الطعن والضرب ، الذي صاد الطير تحت أجنحة العقبان ، وأخذ الفريسة من فم الثعبان ، فسدد الى مالقة سهمه وسنانه ، ورد اليها طرفه وبنانه ، وصمم عليها تصميم صابور الى الحضر ، وعزم عليها عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصر ، ووجه اليها جيشه المتزاحم الافواج ، المتلاطم الامواج ، وعليه سيفه المستل ، ابنه المعتمد ، سهام الأعادي وحمام الاسد العادي ، فلما أطل عليها أعطته صفقتها وامطته صهوتها ، الا قصبتها ، فانها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة لم يرضوا سفاحها ولا أمضوا نكاحها .

« وفي اثناء امتناعهم ، وخلال مجادلتهم ، ودفاعهم ، طيروا الى باديس خبراً من ذلك أصحاه من نشوته ونحاه عن صبوته ، فاخرج من جيبه كتيبته التي كانت ترمي بالزبد ، وعليها ابن النابة ، قائد جنده ومورى زنده .

وكان قد أشار على المعتمد برابرة بتنفيس الممتنعين . . . فعدل عن انتهاز فرصتهم وابراء غصتهم الى الاستراحة من تعبه ، والاناخة على لهوه ولعبه ، وترفق اصحابه في ارتياد الفتيات وطراد اللذات ، فما أمسى الا وقد غشيه ليلها وسال عليه سيلها ، واصحابه بين صريع رحيق ومنادى من مكان سحيق ، فخاب سعيه ، وبال رأيه ، ونجا برأس طمرة ولجام ، وآوى الى أحد

---

19 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/108-110) .

المعاقل أعرى من الحسام ، فحقد المعتضد عليه »(20) .

تقع قصبة مالقة فوق جبل مرتفع وتتمتع بتحصينات قوية تمكنها من الصمود في وجه المهاجمين وقتا طويلا ، وقد كان من رأى الثوار ، انصار المعتضد ان يشدد المعتمد الحصار على القصبة ويقطع الاتصال بينها وبين الخارج ويمنع باديس من القيام بمحاولة لاسترجاعها ولكن الاستقبال الحار الذي لقيه المعتمد من العنصر العربي ، انساه الاحتياط واتخاذ التدابير والضرورية لاخضاع القصبة التي أكد له بعض ضباطه انها ستضطر الى الاستسلام حتما .

ولما وصلت أخبار احتلال مالقة الى باديس ، وجه اليها جيشا على جناح السرعة بقيادة مقاتل بن يحيى ومعه العبد ، الناية ، واتخذ جميع الاحتياطات لتبقى مسيرة الجيش سرا حتى يضمن للعملية عنصر المفاجأة ، بحيث امر قائده ان يسلك طرق الجبال بدلا من الطرق المطروقة(21) .

وكذلك كان وصول جيش غرناطة مفاجأة تامة للجميع ، وقد دخل المدينة دون ان يجد في طريقه أية مقاومة ، وبذلك انحصرت مهمته في أعمال السيف في جنود ابن عباد الذين كان معظمهم في حالة سكر ولا يحملون سلاحا .

وأما المعتمد وأخوه ، فقد هربا الى رندة ونجيا بنفسيهما ، ومن رندة ، كتب المعتمد قصيدة الى والده الذي امتلأت نفسه غيضا عليه حتى انه قرر القاء القبض عليه ، وراح يستعطفه بالشعر ويعزيه عن مصابه في هزيمته :

سكِّن فؤ ادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
فان يكن قدرٌ قد عاق عن وطر
فلا مردَّ لما يأتي من القدر
وان تكن خيبةٌ في الدهر واحدة
فكم غزوتَ ومن أشياعك الظفر

---

20 ـ القلائد (ص20) . قارن رواية احداث احتلال ابن عباد لمالقة بالبيان .
21 ـ (3/274-275) الاحاطة (1/447) .

الى ان يقول :

وقد أخلقتني ظروف انت تعلمها
وعاد مورد آمالي بها كدر

لم أوت من زمني شيئاً الذُّ به
فلستُ أعرف لا كأس ولا وتر

ولا تملكني دلٌّ ولا خــفرٌ
ولا سبى خلدى غنج ولا حـور

رضاك راحة نفسي فلا فُجِعْتُ به
فهو العتاد الذي للدهر يدخر

وهو المدام التي أسلو بها فاذا
عَدِمتُها عبثتْ في قلبي الفكر

فلمـا وصلـت هذه القصيدة الـى المعتضـد تأثـر بهـا وعفـا عن ابنيه واستدعاهما الى اشبيلية وقرر ان ينسى قصة مالقة بعد ما خسر هذه الجولة الهامة في الصراع مع باديس (22) .

لقد اتصلت الحرب ، وكانت سجالا ، بين باديس وابـن عبـاد ، وكان يمكن ان يستمر الامر كذلك الى غير نهاية ، لولا ان باديس انصرف عن شئون الدولة كما قلنا ، وسلم زمام الامور الى يوسف بن نغرالـة الـذي كان يفضـل الدعة ، ورغد العيش على مقارعة صاحب اشبيلية ولا ينزعج لضياع حصن أو قلعة .

ولكن احتلال ابن عباد لمالقة فتح عين باديس وأيقظه من غفلته ، فأخذ يهتم بشؤ ون المملكة من جديد . ونظـرا لأن عددا كبيرا من الملـوك الـذين تمخضت عنهم احداث الفتنة والذين كانوا يقفون حواجز بين اشبيلية وغرناطة قد اختفوا الآن من المسرح ، فقد أصبح باديس والمعتضد يقفان الآن وجهـا لوجه في صراع لا هوادة فيه ، ونحن لكي نفهم الصـراع بين هاتين الارادتين اللتين تمثل احداهما عصبية العرب ، والاخرى عناد البربر ، نحتاج الـى ان

---

22 ـ دوزي تاريخ المسلمين في اسبانيا (110/4) .

الطوائف .

كان المعتضد الذي تولى منصب الحاجب عقب وفاة والده ، قاضي اشبيلية ، وهو لا يتجاوز السادسة والعشرين سنة 433 هـ) يحمل لواء الحزب العربي ، وكان ندّاً من جميع النواحي لملك غرناطة ، زعيم البربر ، ومثل باديس كان المعتضد كثير الوسواس ، خداعا متجبرا ، وكان مثله ، ميالا الى القهر وسفك الدماء ، ومثله أيضا كان ابن عباد مدمنا على الخمر ، ولا يكاد يصحو من السكر .

ولكنه بينما كان باديس أميل الى الاعتدال في شهواته ، اشتهر المعتضد بالشبق ، حيث بلغ عدد الفتيات اللائي مررن بحريمه ثمانمائة فتاة (23) .

وبينما كان المعتضد يتمتع بثقافة عالية ، وذوق فني رفيع ، وذاكرة قوية ، ويعطف على الادب ويصل الشعراء (وكان هو نفسه شاعرا) ، ويبني القصور والمنازل الرفيعة ، على غرار خليفة بغداد الذي كان معجبا به الى حد انتحال لقبه ، كان باديس على العكس من ذلك رياضي الطبع يتحدث البربرية عادة ، ولا يحفل بالادب ولا يهتم بالشعراء (ونحن نبحث عبثا عن بيت من الشعر قيل في مدحه) ولا يعير وزنا للذوق الرفيع ولا يحفل بالقيم الثقافية ، ولو ان قصره ، فيما تقول بعض الروايات ، كان اعظم قصوره الاندلس .

كان المعتضد يشرب الخمر ويسرف في الشرب (24) ولكنه كان يحيط نفسه بجو فني وبنخبة من الندماء تجعل مجلس الشرب مجلس أدب وموسيقى ، وكان يحرص على سمعته ، وذلك على عكس باديس الذي يشرب في غير سملقة ولا يكترث بالندماء ، ولا بالموسيقى والغناء ، على ان باديس كان يمتاز بالصراحة ، حتى في جرائمه ، بينما يتسم ابن عباد بخبث الطوية والغدر والتكتم .

وبينما كان باديس فارساً شجاعاً وقائدا عسكريا محنكا ، يقود جيوشه

---

23 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/68) .

24 ـ نفس المصدر .

بنفسه ويخوض المعارك في مقدمة جيشه ، كان المعتضد لا يحب قيادة الجيش ، ولم يفعل ذلك سوى مرة واحدة ، فيما نعرف ، ولكن الرجل ، مع ذلك ، لم تكن تنقصه الشجاعة .

وكذلك كانت حيل باديس بسيطة ، وكان من السهل على عدوه ان يكشف فخاخه ويتجنبها بسهولة وأما حيل المعتضد ودسائسه في الحرب والسلام ، فقد كان يحسبها بعناية ودقة ، وقلما تنجو منها ضحيته .

واذا كانت قسوة باديس وتعطشه للدماء تجعله يهوى بسيفه في فورة من الغضب على ضحيته ويقتله بيده ، فان قسوة ابن عباد لا تبلغ به درجة يحرم معها سيافه من عمله ، ولو انه يجب الا ننسى ان المعتضد لم يتحوج من قتل ابنه ، اسماعيل بيده حينما واجه بخيانته .

وفي مقابل ذلك ، كان الحقد والبغض أقوى جذورا وأطول امتدادا في نفس المعتضد منه في صدر خصمه ، باديس ، وكذلك كان المعتضد شغوفا بالتمثيل بجثث ضحاياه وبتقطيع اوصالهم فكان مثل الخليفة المهدي العباسي ، يتشفى ويرضي شهوة الانتقام في نفسه بمتابعة اعدائه بعد الفتك بهم . ومثل خليفة بغداد ، كان يتلذذ بالزهور التي يغرسها في جماجم ضحاياه ، بعدما يعلق في أذن الجمجمة رقعة تحمل اسم صاحبها .

ذلك ما كان يفعله المعتضد ، عل كل حال بجماجم اعدائه العاديين ، وأما جماجم اعدائه من العظماء ، ومن الامراء والقواد الذين هزمهم ، بان لها مكانة الشرف في القصر ، حيث يضعها في خزائنه ، وكنها من التحف الطريفة .

وأما باديس ، فهو يقتل ، او يأمر بالقتل ، ومتى انتهت العملية امر باعادة الرأس الى جثة ضحيته وبدفنها .

تلك هي الخطوط العريضة التي تميز بين شخصيتي هذين الملكين الذين وضعت الاقدار مصير الاندلس الاسلامية بين يديهما في عهودها الاخيرة .

ولكن لنعد الى الوزير اليهودي ، يوسف بن نغرالة الذي كانت له يد مباشرة او غير مباشرة في جميع الاحداث التي وقعت في هذه الفترة ، بوصفه مُدبِّر دولة غرناطة .

أحدث مقتل بلكين والاجراءات القاسية التي اتخذها باديس للانتقام لابنه ردود فعل عنيفة في القصر واحتدت الخصومة بين انصار اليهودي وخصومه ، وكذلك تحول القصر الى وكر ضخم للمؤ امرات ، والمؤ امرات المضادة ، ولكن الحريم ، بصفة عامة كان يقف ضد الوزير اليهودي الذي كان ، هو ، منهمكا في حبك مؤ امرات مع الخارج ضد باديس .

وبينما كان نظام باديس يتآكل من الداخل بهذه الصورة ، وكان ابن عبّاد يتحين الفرص للوثوب على ما بقي لغرناطة من المعاقل والحصون ، أدرك فرديناد الاول (ملك قسطيلية وليون) الذي شغلته ، هو وغيره من ملوك النصارى ، الاحداث الداخلية مدة طويلة ، أدرك ان الوقت قد حان لتوجيه قوته الى المسلمين ، وكذلك اندفع بتعصبه الديني وبجيوشه الموحدة الصفوف لغزو الممالك الاسلامية ، فاستولى على بطليوس وعلى عدد من الحصون المجاورة ، ثم احتل المعاقل الواقعة في جنوب سرقسطة ، وغزا أراضي طليطلة .

ولما أدرك المأمون ، ملك طليطلة ، عجزه عن مقاومة الملك المسيحي سار اليه بنفسه ليقدم اليه اكواما من الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وليعلن اليه خضوعه وتبعيته له . وقد قبل دفع الجزية كما فعل ملك بطليوس وملك سرقسطة من قبل .

ولكن هذه الاحداث التي تنذر بزوال الدولة الاسلامية في الاندلس ، لم تؤ ثر على النزاع بين قرطبة وغرناطة ، كما أنها لم تكن لتقلل مثقال ذرة ، حين تروى في مجالس الشرب ، على لذة المعتضد وفتياته الجميلات .

على ان جيوش فرديناند لم تلبث ان غزت أراضي اشبيلية نفسها ، وأحرقت عددا من القرى . وعلى الرغم من ان المعتضد كان أقوى ملوك الطوائف واعظمهم شأنا ، فانه لم يجد بدا من ان يحذو حذو المأمون ، ويسير بنفسه الى معسكر النصارى ليقدم بدوره الى فرديناند ثروة على سبيل الهدايا ويلتزم ، مثل الآخرين ، بدفع الجزية وبقبول شروط أخرى .

وكذلك كانت مملكة غرناطة التي تتمتع بكثير من الرخاء والازدهار في

أواخر العقد الرابع وأوائل العقد الخامس بمثابة جزيرة متماسكة ، نسبيا ، في بحر مضطرب تمتد فيه امواج الغزو النصراني الى الامام باستمرار . ولكن هذه المملكة ، كانت ، كما قلنا ملغمة من الداخل بوجود يوسف بن نغرالة وعدد كبير من ابناء ملته الذين وضعهم في مناصب حساسة في الدولة .

وقد أزداد الوضع السياسي في المملكة تدهورا خصوصا ، بعد ما أخذ نجم الناية يرتفع والمنافسة بينه وبين يوسف تزداد حدة مع مرور الايام .

كان الناية عبدا من عبيد بن عباد التجأ الى المظفر باديس الذي وجد في بلاطه اعوانا قدموه الى الملك بأنه كان من انصاره في اشبيلية وانه اضطهد وضحى بكثير من أجل ثقته في باديس .

وقد كافأه باديس على ولائه فجعله من كبار موظفيه قبل ان يعينه في قيادة الجيش ويشارك في الحملة التي استرجعت مالقة ، وقد كانت هذه الحملة فرصة نادرة للناية ليتقرب فيها من الجيش ويُحبِّب نفسه اليه في الوقت الذي فاز فيه بثقة القائد الاعلى ، مقاتل بن يحيى .

وأخيرا عينه باديس قائداً على مالقة مع مقاتل(25) .

وفي هذا المنصب ، زاد حماس الناية وقوى ولاؤه واخلاصه في خدمة باديس ، كما زادت سمعته وحظوته لدى الملك ، بحيث ان باديس كان ينزل عنده حين يحل بمالقة .

وفي الفرص التي يختلي فيها بالملك ، كان لا يفتأ يحرضه على الوزير اليهودي ويذكره بأنه يأكل اموال الدولة ويبني لنفسه قصوراً أعظم من قصور الملك نفسها ويحثه على التخلص منه .

ولكنه نظرا لأن يوسف بن نغرالة قد أحاط الملك بأعوانه وجواسيسه من الحاشية والخدم ، فان الناية لا يكاد يتفوه بكلمة حتى يوصلها الى يوسف عيونه .

ومع مرور الايام ، زادت مخاوف يوسف وقلقه كما زاد كرهه للناية .

---

25 ـ المذكرات (ص68 - 69) .

ومن جهة أخرى ، فقد كان يوسف ، قبل صعود نجم النابة يحاول التقرب من ماكسن بن باديس ويسعى لخلق منافسة بين الاب والابن يستغلها لصالحه .

ولكن ماكسن كان يعامل اليهودي بجفاء وقسوة ، وقد بلغ به الامر ان قال له ذات يوم :

« أتريد ان تقتلني كما قتلت أخي ! »(26) .

وفي تلك الاثناء تخلت عنه ام ماكسن التي كانت تحمي يوسف وتدافع عنه في الحريم ، ومالت الى خاله ، واسمه ابو الربيع ، الذي كانت تكتب اليه لتقترض منه المال(27) ، الامر الذي كان يملأ قلب الوزير بالحقد والغيرة ، وأغراه بالوشاية لدى السلطان به وبأم ماكسن وحاشيتها ، واختلق تهمة ضدهم ، وأوجد لها شهودا من الحاشية ، وقد بلغ تقزز باديس من شناعة التهمة التي أقنعه بها اليهودي ان أمر بقتل ام ماكسن وبعض النساء من حاشيتها وأما عمه ابو الربيع ، فقد تولى الوزير قتله بنفسه غدرا في مجلس شراب .

ولكي يفلت من عقاب الملك من أجل فعلته اغدق عليه أموالا كثيرة جعلته يَوَدُّ ، على حد تعبير الامير عبدالله ، « لو قتل كل يوم يهودي ! » .

وبعد ذلك جاء دور ماكسن الذي أمر بنفيه من أراضيه ، بسبب ما كان ينقل اليه من أفعاله ، وخصوصا ، لان بعض شيوخ صنهاجة طلبوا اليه تعيين ابنه قائدا على الجيش ، بدلا من عبيده ، فتخوف باديس من ان تكون هذه مؤامرة لابعاده هو عن العرش .

وكذلك دبر الوزير اليهودي مؤامرة مع الاميرات اللائي ربَّينْ المعز بن بلكين ويرون انه أولى بولاية العهد من ماكسن ، فأوعز الى العبد الذي كلف بمرافقته ليخرج من أراضي غرناطة بأن يقتله في الطريق .

وفي هذه الاثناء زاد عدد أعداء اليهودي في البلد وأخذ مجال مناورته

---

26 ـ نفس المصدر .

27 ـ نفس المصدر .

يضيق تدريجيا . ولما نصحه رؤساء الطائفة اليهودية بالفرار بثروته الطائلة الى مملكة أخرى ، أجابهم بان المظفر سيقتفي أثره ويوجه انذارا الى الملك الذي يلتجىء اليه بان يسلمه اليه او يدخل في حرب معه . وفي هذه الحالة سيضطر ذلك الملك الى تسليمه ، ولكنه اذا رفض طلب باديس ، فسيستولي على ثروته في مقابل الابقاء على حياته .

وبدلا من ذلك وضع اليهودي خطة تقضي بان يسلم للملك الذي يلتجىء اليه جزءا من أراضي غرناطة ، بحيث يجد ذلك الملك ان من مصلحته الدخول في حرب مع ملك غرناطة .

ولهذه الغاية وجه يوسف بن نغرالة رسالة الى ابن صمادح الذي كانت مملكته مجاورة لمملكة غرناطة ، واختار لحمل رسالته ابن أرقم(28) .

ولكن ابن أرقم الذي كان يهتم بمصالح باديس أحاط الملك علما في عبارات تكتفي بالتلميح والاشارة فات باديس ادراك مغزاها .

ولما أحس الوزير بهذه الحركة ، طلب الى ابن صمادح ان يبعث اليه بمن يثق به ، فوجه اليه أخيه في الرضاعة ، ولكن الاخير استفضح الامر ونصح يوسف بان يعدل عن مخططه بسبب ما يتمتع به نظام المظفر من القوة ومن تأييد صنهاجة(29) .

ولكي يزيل اليهودي هذه العقبة في طريقه ، عمد الى ابعاد كثير من شيوخ صنهاجة وعبيد المظفر الذين يثق بهم ووضعهم على الحاميات في الحصون والمعاقل وأوهمهم ان النابة يتآمر لأحداث انقلاب في المملكة ، وانه يوكل اليهم القلاع والحصون حتى تبقى مقاليدها في أيديهم(30) ، فاقتنعوا

---

28 ـ هو أبو الصباغ عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميري ، أصله من وادي آش كان من اعلام الادب ، وقد أقام مدة في دانية ثم دخل في خدمة صاحب المرية الذي بعثه في عدة سفرات الى باديس في غرناطة ، والى ابن عباد في اشبيلية ، راجع الترجمة الفرنسية للمذكرات (ص296 هامش17) .

29 ـ نفس المصدر .

30 ـ نفس المصدر (ص273) .

مناصب حكام الاقاليم .

ولما خلا له الجو ، كتب يوسف بن نغرالة الى ابن صمادح ليبلغه ان الشخصيات المهمة في الدولة قد خرجت كلها من غرناطة وانه الآن مستعد ليفتح له أبواب المدينة بمجرد ما يقرر الزحف عليها .

وفي هذه الاثناء عمل على حجب باديس على الناس ، وشاع خبر ، ربما كان اليهودي هو مصدره ، بان المظفر مات ، ولما انتشر هذا الخبر بين حاميات الحصون ساد القلق والاضطراب بين رجالها وتخلى معظمهم عن مهامهم ، فاصبحت بدون حراسة تذكر ، الامر الذي سهل على ابن صمادح الاستيلاء عليها ، واحد بعد واحد ، حتى لم يبق في أيدي الزيريين سوى حصن قبرة (31) .

وبعد ذلك ، بعث الوزير اليهودي برسالة الى ابن صمادح يحثه على الاسراع بالقدوم الى غرناطة ، بينما كان هو قد أعد لنفسه حصن الحمراء ليأوى اليه مع عائلته لدى مقدم ابن صمادح ، لينتظر ريثما تهدأ الحالة .

وفي هذه الاثناء زاد سخط سكان غرناطة المسلمين واشتد التوتر تحت تأثير عدد من العوامل ، أهمها الصراع الذي نشب بين يوسف ابن نغرالة والناية ، من جهة ، واستنكار بعض العلماء ، وفي مقدمتهم ابن حزم للالحاد الذي يجاهر به يوسف من جهة اخرى ، ولكن خصوصا ، بسبب انتشار قصيدة تنسب الى الفقيه الزاهد ابراهيم بن مسعود ، ابي اسحاق الالبيري (32) الذي اضطهده يوسف ونفاه ، قالها يستثير همة المسلمين ضد استبداد الوزير اليهودي وابناء ملته بشؤون الدولة (33) .

---

31 ـ في الاصل قبريرة ، وهو بدون شك تحريف ، والاولى قراءة قبرة Cabra . وحصن قبرة يقع على مرحلة خفيفة من حصن بيانة . وصفه الادريسي بانه حصن كبير كالمدينة « حصين المكان وثيق البنيان » . ومنه الى قرطبة 40 ميلا ، الادريسي (ص 205) راجع وصفه أيضا في صفة جزيرة الاندلس (ص 149 - 150) معجم البلدان (4/305 - 306) الحلة السيراء (2/365) المغرب (1/30) .

32 ـ انظر نبذة من أخباره في النفح (الفهرست) .

33 ـ انظر هذه القصيدة في ديوان الالبيري (151) .

وفيها يقول :

الاقل لصنهاجة اجمعين بُدُورَ الزمن وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين
لقد زل سيدكم زلة تقربها أعين الشامتين
تخيَّر كاتبة كافرا ولو شاء كان من المؤمنين
فعزَّ اليهودُ به فانتخوا وتاهوا وكانوا من الارذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى وقد جاز ذلك وما يشعرون
فهلا اقتدى فيهم بالاولى من القادة الخيرة المتقين
وانزلوا حيث يستأهلون وردهم أسفل السافلين
اباديس انت أمرؤ حاذق تصيب بظنك مرمى اليقين
فكيف تحب فراخ الزنى وقد بغضوك الى العالمين
فقد ضجت الارض من فسقهم وكادت تميد بنا أجمعين
وانًى أحتللت بغرناطة فكنت تراهم عابثين

الى أن يقول بشأن يوسف بن نغرالة :

فبادر الى ذبحه قربة وضَحِّ به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغوط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفَرِّق عراهم وخذ مالهم فانت أحق بما يجمعون

وقد استمر بعض اليهود يتصاعد حتى ١٠ شهر صفر 459 هـ (يناير 1067 م) حين اجتمع اليهودي مع بعض انصاره لاتمام اللمسات الاخيرة من مؤمرتهم . وحين ابلغهم ان ابن صمادح على وشك الدخول الى غرناطة . ولكن أحد الحاضرين ـ وكان من عبيد باديس وكان يبغض اليهودي ، ترك الاجتماع وخرج الى الشارع ليذيع سر المؤامرة الخطيرة على الجمهور .

واثر ذلك تجمعت جموع المسلمين وهجموا على قاعة الاجتماع ،

مصممين على قتل الوزير اليهودي .

ولكن يوسف وجد في كمه الورقة الاخيرة وأخرجها لينقذ بها رأسه . فقد جاء اليهم بالملك باديس ، وصاح في الجموع قائلا :

ـ « هذا سلطانكم ! »

وعندئذ حاول باديس تسكين اضطراب الجماهير ، ولكنه عجز عن ذلك ، حيث كانت الثورة قد بلغت درجة الغليان ، ولما رأى اليهودي ان العاصفة ستجتاحه ولا محالة ، لاذ بالفرار الى داخل القصر . ولكن الجماهير تعقبته حتى وقع في أيديهم ، بينما كان مختفيا في خزانة الفحم ، وقتلوه ، ثم تحولوا الى يهود غرناطة وقتلوا منهم عددا يتراوح في تقدير المؤ رخين بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف ، ونهبوا اموالهم واستولوا على ممتلكاتهم (34) .

وقد وصف ابن بسام الاحداث التي سبقت مصرع يوسف بن نغرالة ومذبحة اليهود بأسلوبه المعهود الذي تتزاوج فيه روعة البيان بالحقيقة التاريخية فقال :

ـ « فلما كان اليوم الذي أراد الله ان يختمه بداهيته الدهياء ، ويلبس سواد ليلته لغدرته الشنعاء ، نذر به قوم من الرجالة المغاربة ، وقد كان الناس قبل ذلك استرابوا باختلال الشأن واستوحشوا من احتجاب السلطان ، وقد كان اليهودي ملك ابن صمادح اكثر حصون غرناطة باحتجاز اموالها وفساد قلوب رجالها ، فأضافها ابن صمادح الى بلده ، وباديس لا يشعر بخروجها من يده ، واليهودي اثناء ذلك يريش ويبري ، وشفرته في أديم صاحبه تحلق وتغري .

« ولما كان اليوم الذي أراد الله فيه ازالة نعمته عليه وأراحة عباده وبلاده منه ، نذر به اولئك المغاربة ، فأعلنوا بالصياح ، وثاروا الى السلاح وأتى الصريخ بقية الجند وعامة أهل ابلد ، ونادى مناد منهم : غدر اليهودي وخان وطاح المظفر (يعني باديس) وحان ، فدخلوا القصر من كل باب وهتكوا حرمة

---

34 ـ قارن عن هذه الاحداث المذكرات (ص274) الذخيرة (272/2/1) النفح (322/4) الاحاطة (447/1) البيان (275/3) وفيه ان مقتل يوسف كان في سنة 458 هـ ، العبر (160/4 - 161) وفيه « ونكبهُ (يوسف) باديس وقتله وقتل معه خلقا كثيرا من اليهود » .

اليهودي دون حجاب ، وقتل - زعموا - في بعض خزان الفحم ، واستطال الناس على يهود غرناطة ، وقتل منهم يومئذ نيف واربعة آلاف - ملحمة من ملاحم بني اسرائيل ، باءوا بذلها وطال عهدهم بمثلها »(35) .

***

35 - الذخيرة (172/2/1) .

وبعد هذه الثورة العارمة التي كان من حظ باديس انها أكتفت بتخليصه من أعدائه ولم تنل من شخصه او من سلطانه ، أستشار المظفر من بقي على ولائه من قواد ورجاله ، فأشاروا عليه بالحل الوحيد الممكن لمشكلة تكالب جيرانه على مملكته واستخفافهم بأمره ، وهو ان يتولى شؤ ون المملكة من الآن فصاعدا بنفسه . وعندئذ نظم باديس جيشه ووزع العطاء بين رجاله ، ثم قام بنفسه على رأس حملة ونزل قادس(1) التي كان ابن صمادح قد احتلها ، ضمن ما أستولى عليه من حصون مملكته غرناطة ومدنها .

كان باديس قد خشي في بداية هذه الحوادث ان تنتشر الثورة وتتفكك المملكة كلها وعلى سبيل الاحتياط استنجد بابن النون ، ملك طليطلة ووعده بان يتنازل له عما يريده من البلاد التي تحته ، وازاء هذا السخاء لم يكن في وسع المأمون(2) ان يتخلف عن نجدته . وقد لحق به اثناء حصار قادس التي

---

1 ـ C . adis ، جزيرة بالاندلس ، طولها من القبلة الى الشرق اثنا عشر ميلا ، وعرضها ، في اوسع المواضع ، ميل واحد ، وهي قريبة من البر ولها ميناء على المحيط الاطلسي ، يبلغ عدد سكانها في الوقت الحاضر 130 نسمة ، ينسب اليها الغفاري القادسي (ت 430 هـ) من الحفاظ والرواة . راجع وصفها في صفة جزيرة الاندلس (ص144 - 152) معجم البلدان (4/290) الادريسي (الفهرست) .

2 ـ هو يحيى بن اسماعيل بن ذي النون ، تولى عرش طليطلة عقب وفاة ابيه (سنة435 ـ هـ) وجرت بينه وبين سليمان بن هود حرب بشأن وادي الحجارة(Guadahjara)انتصر فيها =

كانت على وشك السقوط في يد المظفر (3) .

وبفضل قوات الملكين المتفوقة ، ونتيجة ايضا لفتح باديس ابواب خزائنه وتوزيعه الاموال بغير حساب بحيث أفرغ ستة بيوت مال . في كل واحدة منها الف دينار ثلثي (4) سقطت قادس ، بعد ان طلب ابن صمادح الذي احيط به من كل جانب الى ابن ذي النون ان يتوسط بينه وبين باديس . وكانت نتيجة الوساطة ان سمح المظفر لابن صمادح ورجاله بالخروج من قصبة المدينة بأمان ـ القصبة التي استولى عليها ابن ذي النون ، بعدما ذكر باديس بوعوده .
وبعد ذلك تراجع ابن صمادح واعتذر عن ثورته لباديس وقبل باديس اعتذاره وانتهى الامر بينهما بالصلح وتجديد التحالف القديم الذي كان بينهما (5) .

وفي نهاية هذه الاحداث ، استرجع باديس جميع الاراضي والحصون التي انسلخت من مملكته ، نتيجة لمؤامرة يوسف بن نغرالة (6) ودعم ملكه .

= ابن هود ، صاحب سرقسطة ، واستنجد كل منهما بالنصارى على الآخر وكانت العاقبة وخيمة على كل منهما ، حيث اصبحت مملكته عرضة لعدوان متواصل من الاسبان ، وكذلك حارب المأمون جاره ابن الافطس صاحب بطليوس ، ثم حالف ابن عباد في مؤامرة انتهت باحتلال الاخير لقرطبة . وفي سنة 458 هـ استولى المأمون على بلنسية ، وقد مات في طليطلة بعد الاحداث التي نرويها بقليل (سنة 460 هـ) . راجع سيرته في البيان (165/3) ، دول الطوائف لعنان (ص 93 وما يليها) الذخيرة (1/4/3/4/- 116 113) أعمال الاعلام (ص 205 - 206) ازهار الرياض (208/2) نفح الطيب (الفهرست) .

3 ـ المذكرات (ص 274) .

4 ـ ربما كان « الثلثي » ينطبق على قطع منقسمة عن الدينار ، تزن كل واحدة منها ثلث الوزن الرسمي ، والمعروف ان الدنانير التي كانت تضرب في عهد ملوك الطوائف بالاندلس كانت أخف وزنا من التي كانت تضرب في القرن السابق ، راجع في هذا الموضوع
Prieto vivea les Reyes de taifor Estudios Historico nuninomatico M A dud, 1925, P. 98.

5 ـ المذكرات (ص 275 - 276) .

6 ـ نفس المصدر .

[illegible] راح يفكر الآن في ضخامة تكاليف العمليات العسكرية من المال ، ولمعرفة السبيل التي انفقت فيها تلك الاموال الطائلة استدعى باديس قائدي الحملة ، ابن النابة وعبد الله القروي ، وجمعهما بكبار موظفي الخزينة وطلب اليهما تبرير النفقات التي تحملها بيت المال .

فأما ابن النابة ، فقد برأ ذمته بسهولة من تهمة تبديد أموال الدولة ، حيث صرح بانه كان يرفض تسلم المال العين اثناء العمليات وكان يأمر بتحويلها الى ابن القروي .

وأما ابن القروي فيبدو انه عجز عن تبرير الاموال التي انفقها ، ولذلك قرر السلطان معاقبته بنفيه من أراضي غرناطة .

ولكن المشكلة هي ان ابن القروي كان قائدا محبوبا في الجيش ، وقد أثار قرار باديس شعورا قويا بالامتعاض في صفوفه .

ويؤخذ مما ورد في مذكرات الامير عبدالله الصنهاجي ان حركة عصيان واسعة النطاق قامت في الجيش نتيجة لقرار المظفر ، فتفككت وحداته وهرب كثير من الجنود والاطارات العسكرية ، كما تخلى عن المظفر ، لنفس السبب ، كبار رجال صنهاجة ، بحيث بقي الملك وحده ولم يرافقه في طريق عودته الى غرناطة من رجاله ، سوى ابن النابة الذي رفعه باديس الآن الى منصب الوزير(7) .

وكذلك كان ظهور النابة على المسرح السياسي وارتقاؤه الى الوزارة بصورة مفاجئة يتجاوز نطاق تغيير الاشخاص والسياسات ، حيث انه تناول الاسس التقليدية التي كانت تقوم عليها الدولة الزيرية ، فقد برز مع النابة بنو برزال الذين نصبهم الوزير بحماية العرش ، بدلا من صنهاجة التي تربطها بالاسرة الحاكمة اواصر الدم ، ويبدو ان ذنب صنهاجة الوحيد الذي كلفهم فقد الحظوة عند الملك ، هو انهم لم يكونوا هذا في قلوبهم .

---

7 ـ نفس المصدر .

وقبل هذه الاحداث كان ماكسن بن باديس الذي ذكرنا ان المظفر نفاه من غرناطة اتجه الى جيان ، وهناك استغل اسمه ومركزه شخص يدعى مسكن واستولى على السلطة واستقل بولاية جيان مستترا وراء ابن السلطان المنفي (8) .

ولما وصل الناية الى الوزارة ، كان من بين التدابير التي اتخذها اعداد حملة للقضاء على ثورة مسكن واعادة هذه الولاية الى حضيرة الطاعة . ولما وصل الى جيان استعمل الحيلة قبل القوة العسكرية ، فاقنع حامية القصبة فقامت بثورة على مسكن الذي هرب للنجاة برأسه .

وكذلك عاد الناية الى غرناطة مرة أخرى مظفرا مكللاً بالنصر ـ ذلك النصر الذي جعله في مركز يسمح له بفرض شروط على باديس ، وفي مقدمتها ابعاد من بقي من خصومه السياسيين .

ولكن مجد الناية وسلطانه الذي لم يعرف كيف يستغله بحكمه ، كان ينطوي على عوامل نكبته وخرابه . فقد وجهت اليه تهم عديدة ليس أقلها خطرا انه يتآمر على أمن الدولة ويطمح الى اعتلاء عرش غرناطة بمساعدة بني برزال .

وللتخلص من ظله الذي أصبح الآن ثقيلا على الكثرين ، دبرت مؤامرة ضده وكلف بتنفيذها احد عبيد باديس (اسمه واصل) وأحد اصدقائه المقربين الى الناية . فقد كان الناية هو الذي عمل لرفع مكانته عند السلطان وكان وثيق الصلة به بحيث انه نزل في بيته بقادس ، في نفس الليلة التي حددت لتنفيذ الجريمة . وبذلك سهل عليه الناية مهمته ، حيث ضربه بالرمح ليلا ثم قطع رأسه .

وهكذا انتهت اسطورة الناية بنفس الطريقة التي انتهت بها اسطورة سلفه في الوزارة وعدوه ، يوسف بن نغرالة .

على ان تساقط قطع الشطرنج المهمة حول الملك وابتعاد كبار انصاره

---

8 ـ نفس المصدر .

ورجاله عليه واحدا بعد واحد ، لم يؤثر على مركز باديس وسلطانه ، على الاقل في الظاهر .

وكذلك كان يبدو ان اغتيال النابة عمل يستهدف ازالة سطوة هذا الوزير على باديس ، ولربما كان له وقع حسن على الملك ، ولكنه بعد التمعن في البحث والاستقصاء وبعد ما منح عفوه لواصل ، تبين للملك ان المؤامرة كانت في الحقيقة موجهة اليه بطريقة غير مباشرة ، ألم يرسل المتآمرون الذين دبروا اغتيال النابة خاتمة الى ماكسن المبعد الذي قرروا تنصيبه على العرش مكان ابيه .

ولما ادرك أبعاد المناورة وعجزه عن وقوفه في وجه العاصفة ، قرر العمل لكسب الوقت . وبعد ما منح العفو لقاتل وزيره ، قرر ان ذلك غير كاف لترضية خصومه فرأى ان يكافئه على فعلته ، وكأنما قدم اليه خدمة كبيرة ، فعينه قائدا لسلاح الخيل(9) .

ولكن الامور سارت من سيء الى أسوأ ، فقد ظهر ما يشبه الاجماع بين حاشية المظفر ، بل وبين نسائه أيضا ! على ضرورة عودة ماكسن الى غرناطة وخلع باديس المظفر . . .

وازاء العزلة التي وجد باديس فيها نفسه،ظهرت الحاجة الى مستشار يساعد برأيه على انقاذ ما يمكن انقاذه من سلطته . ولهذه الغاية كتب باديس بخط يده سرا الى شخص نصراني يسمى أبا ربيع ، لا نعرف عنه شيئا ، سوى انه قد عمل تحت الوزير اليهودي يوسف بن نغرالة من قبل ، يستحثه على القدوم اليه . ولكنه على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذها ، فقد عرف بهذا المسعى مدبروا اغتيال النابة ، وعلى رأسهم ابن القاضي ، صاحب مدينة باغة(10) الذي كان مع ذلك ، لا يزال من رجال باديس ، وهذه الصفة هي التي سمحت لابن القاضي بان ينذر باديس ويحذره من استقدام أبي ربيع ، قائلا انه اذا قدم فسيتحول عن باديس من بقي معه من رجاله وانه هو نفسه ، لن يبقى

---

9 ـ نفس المصدر (ص280) .

10 ـ (PRI2GO) .

بجانبه ، ولكن باديس لم يهتم بهذا الانذار بل أجاب محدثه اجابة حاسمة ، قائلا :

ـ لا أبقى الله منكم أحداً !

وبينما كان ابو ربيع في طريقه من دانية الى غرناطة ، كان ابن القاضي يعقد محالفة مع صديقه ، ابن يعيش ، صاحب قبرة ، للوقوف في وجه باديس .

وبوصول أبي الربيع الى غرناطة ، اعتقد المظفر انه قد بلغ الآن نهاية متاعبه وان هذا النصراني يحمل معه الحل السحري لمشاكله . وبعد ما اخبره بحقيقة الوضع ، سلم اليه مقاليد الامور وأراح كاهله .

ولكن المشورة التي سيقدمها ابو الربيع الى الملك لم تكن من النوع الذي يستسيغه ، أو يتوقعه ، فان العراك في المرحلة الجديدة هو بين الملك وابنه المنفي ، او بعبارة ادق بينه وبين انصار ابنه الذين يريدون عودته الى غرناطة لارتقاء العرش .ولشد ما كانت دهشته عظيمة حينما أشار عليه النصراني بان يكتب الى ابنه بيده ليعلن اليه عفوه ويستقدمه ويعينه وليا للعهد ، ولسان حاله يقول :

ـ وداوني بالتي كانت هي الداء !

وقد اقنعه ابو الربيع بمنطق سليم بان هذا الاجراء من شأنه ان يهدىء الخواطر ويقضي على المعارضة في الوقت الذي يصبح فيه ابنه في متناول يده ، وتحت رحمته ، بحيث يتقي شره . وقد قبل المظفر هذه النصيحة على مضض وكتب الى ابنه يبلغه عفوه ويستقدمه الى غرناطة .

ولما وصل ماكسن الى العاصمة ، احسن والده استقباله وأغدق عليه الاموال والنصائح أيضا ! ولكن نصائح باديس لم تكن نصائح الاب للابن ، بل نصائح ملك خائف على عرشه لمنافس محتمل ، وقد كانت هذه النصائح التي يوجهها ابن الربيع كلها منسقة بحيث تجعله يتصرف بصورة تجعله بغيضا في أعين انصاره ومؤ يديه .

وقد كان في مقدمة النصائح التي قدمها باديس لى ابنه انه يجب عليه ان

يحذر صنهاجة ويمقتهم ويعاملهم بالشدة والقهر .

ولما كان ماكسن فظا غليظا قليل الذكاء بطبعه ، فقد فاتته حيلـة أبيه ، وذهب في تنفيذ مخططه الى أبعد مما كان يأمله باديس ، فاتجه ببغضه واحتقاره في المكان الاول الى اوليائه والمدافعين عن قضيته .

وقد كان في مقدمة من صب عليهم اهانته واحتقاره ابن عمه ، أم العلوّ التي كانت ترغب في الزواج منه والتي كان لها نفوذ قوي في القصر واستمالت اليه كثيرا من نساء رجال الحاشية والجيش ، ومن نسـاء صنهاجـة . فبعـد ما شتمها قال لهـا انها لا تصلح زوجه له .

وكذلك نجح في ان يحول هذه السيدة من مناصرة مخلصة الـى امـرأة تبغضه وتقود المؤ امرات ضده ، كما وفق في ان يبعد عنـه كل من كان يميل اليه(11) .

ولما جمع أبو الربيع معلومات وافية عما يجري في القصر وفي المحيط السياسي وعن وضع ماكسن بصفة خاصة ، تقدم به الى السلطان ليبلغه نجاح مخططه ، نجاحا أكبر من المتوقع ، بدون شك .

ان الوثائق التي بين أيدينا تسدل ستارا من الصمت عن السنوات القليلة الباقية من حياة باديس وحكمه وعن الدور الذي لعبه ابو الربيع النصرانـي في الدولة بعدما تمكن بمكره وحيله من استعادة زمام الامور الى يد المظفر ، ونحن كذلك ، لا نعرف شيئا عن مصير ماكسن ، ابنه ، بعدما قضى على كل الفرص التي كان يتمتع بها في ولاية العهد .

ومع ذلك ، فنحن نستطيع ان نتصور دون ان نجهد خيالنا ، ان يكون باديس قد استخلص العبرة من الاحداث الخطيرة التي واجهها في اواخر عهده الداخل والخارج ، واذا كان الامر كذلك فقد يعني سكوت المؤ رخين ان مملكة غرناطة قد دخلت من جديد في فترة من الهدوء والاستقرار ، وحينئذ يكون معنى صمتهم ان السعداء لا قصص لهم .

---

11 ـ نفس المصدر .

وفي 20 شوال ، سنة 465 هـ (يوليو 1074 م) مات باديس المظفر (12) ودفن بمسجد القصر (13) .

ما هي مكانة باديس ، في رأي المؤ رخين ، بين معاصريه من ملوك الطوائف ؟

يوفر بعض أعلام المؤ رخين الاندلسيين عناصر مفيدة للجواب عن هذا السؤ ال ، ونحن نفضل ان ننقلها اقتباسا حتى تحتفظ هذه الاراء بدقائقها وبقيمتها كاملة .

وصف الوزير لسان الدين بن الخطيب باديس بالعبارات التالية :

« كان باديس يبساً طاغية جبارا شجاعا داهية حازما جلدا شديد الامر ، سديد الرأي ، بعيد الهمة مأثور الاقدام ، شره السيف ، وأري زناد الشر ، جماعة للمال ، ضخمت به الدولة ونبهت الالقاب وأمنت لحمايته الرعايا ، ضخم تحت جناح سيفه العمران واتسع بطاعته المرهبة النظر ، وانفسح الملك ، وكان ميمون الطائر مطعم الظفر (14) .

وأشار لفتح بن خاقان ، الاديب الاشبيلي ، الذي ولد بعد وفاة باديس بخمس عشر سنة الى المظفر فقال :

« كان باديس بن حبوس بغرناطة عاتيا في فريقه عادلا عن سنن العدل

---

12 ـ الاحاطة (450/1) وفي العبر (180/6) ان وفاة باديس كانت في سنة 467 هـ .

13 ـ ويضيف ابن الخطيب ان اثر المسجد كان قد ذهب في عهده ، ولكن قبر باديس بقي يحف به حلْق له باب . وقال ان قبر باديس كان يقع بجانب قبر الامير المجاهد أبي زكرياء يحيى بن غانية من دولة الموحدين . وكذلك يروي هذا المؤ رخ ان قبر باديس قد تحول الى مزار في عهده ، تحيط به الاضاليل والخرافات مما يتصل بعبادة الاولياء ، فعلى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والمستشفين من الاسقام ، حتى أولو الدواب الوجعة ، ما ليس على قبر معروف الكرخي وأبي زيد البسطامي » ، نفس المصدر .

14 ـ نفس المصدر (443/1) .

وطريقه ، يجترىء على الله ، غير مراقب ، ويجري الى ما شاء غير ملتفت للعواقب ، وقد حجب سنانه لسانه ، وسبقت اساءته احسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولم يشرب الماء الا من قليب دم ، أحزم من كاد ومكر ، واجزم من زاوج وابتكر ، وما زال متقدا في مناحيه متفقدا لنواحيه ، لا يرام بريث ولا عجل ، ولا يبيت له جار الا على وجل »(15) .

وكذلك نقل ابن الخطيب عن ابن حيان (ابي مروان) الذي كان معاصرا لباديس وصفه المظفر بهذه العبارات :

« واما ارفع أملاك البربر في هذا الوقت شأنا ، وأشدهم سلطانا ، وأكثرهم جلالا ، وأوسعهم أعمالا ، فباديس بن حبوس ، من سلاطين صنهاجة ومستخدم الكثير من قبائل زناتة ، الممتد سلطانه اليوم الى ما بين أطراف كورتبى بسطه من أقلم قرطبة ، الى مالقة واستجه ، وما تحت ذلك من أقليم قرطبة ، أملى النصر العزيز على الاعداء املاء ، واختبارا ، فلبسه بغيا واستنكارا ، وأساء الانتقام ، ولم يُقِلْ العثرة ، وأخذ بالظنة ، وأسرف في العقوبة (وكان) شديداً بالعصبية ، وتقلد الحمية الجاهلية واستأثر بالقسوة والجبرية »(16) .

واما ابن خلدون فقد أشاد خصوصا ، في معرض الحديث ، عن باديس ، كما فعل ابن فضل الله العمري(17) ، باعماله في البناء والتشييد والتمدين وذلك حين يقول :

« وباديس هذا هو الذي مصَّر غرناطة واختط قصبتها وشاد قصورها ، وشيد حصونها ، وآثاره في مبانيها ومصانعها ، باقية بهذا العهد »(18) .

***

---

15 ـ القلائد (ص20) ونقل هذه الفقرة ايضا ابن الخطيب ، المصدر المذكور (443/1) .

16 ـ اعمال الاعلام (القسم الخاص بارندلس ص264) .

17 ـ راجع اقتباس(Fagnam , extraits Inedits (P . 104 من مسالك الابصار .

18 ـ العبر (180/6) وفي رواية الادريسي ان الذي حصن غرناطة وحصن اسوارها وبنى قصبتها ، هو حبوس بن ماكسن وليس باديس ، راجع المغرب وأرض السودان (ص 203) . وهذه أيضا ، هي رواية عبد المنعم الحميري ، الذي نقلها عن الادريسي ، راجع صفة جزيرة الاندلس (ص23 - 24) .

[illegible]

الطرائف ؟

[illegible]

[illegible]

والشاعر الفتح بن خاقان ، الأديب الأشبيلي ، الذي ولد [illegible]

[illegible]

وكان يأنس من [illegible]

[illegible]

***

[illegible]

[illegible]

الفصل الخامس

غرناطة
عاصمة بني زيري

تقع غرناطة (او أغرناطة)(1) على مسافة 696 كيلومتر من مدريد في مكان يبلغ ارتفاعه على مستوى البحر ، 686 متراً في المتوسط ، عند السفح الشمالي لجبل الشارات .

وتحيط بغرناطة من ثلاث جهات سلسلة من الجبال ذات اللون الازرق وتشرف على سهول غامقة الخضرة يأخذ منظرها بالالباب .

---

1 ـ غرناطة Grenade بفتح أوله وسكون ، كما ضبطها ياقوت الذي ينقل عن أبي محمد عفان ان الصحيح ، أغرناطة ، بالالف في أوله اسقطها العامة ، كما اسقطوا الف البيرة فقالوا : لبيرة . معجم البلدان (995/4) ، وقد اختلف المؤ رخون في اشتقاق اسم غرناطة ، فيرى البعض ان الاسم يرجع الى عهد الرومان وانه مشتق من الكلمة اللاتينية Grenda ومعناها « الرمانة » وهذا هو ما ذهب اليه الكاتب مقالة غرناطة في الموسوعة الفرنسية الكبرى ، وهو أيضا ما يقرره الجغرافيون العرب الذين يقولون ان معنى غرناطة بلسان العجم « الرمانة » (ارجع مقالة سيمونيت في دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة غرناطة) ومعنى ذلك ان المدينة كان لها أصل روماني ، على ان ليفي بروفنسال وغيره يرون ان غرناطة مدينة اسلامية (راجع : Grenade musulmane , Universite D'Alger , 1937 , P . 79 - 80 وأما المستشرق الاسباني simonet ، فيرى رأيا آخر ، فيرجح ان الكلمة راجعة الى أصل قوطي وانها مزيج من كلمة « ناطة » وهو اسم قرية كبيرة كانت تقع غير بعيد من البيرة وكلمة « غار » التي أضافها المسلمون اليها عند نزولهم بالاندلس ، وهو اسم احدى قبائلهم (راجع :
Simonet , description del reino de grenada , grenada , 1872 - 1872 , P . 40 - 41)

ومناخ غرناطة مناخ صحي ، وهواؤ ها عليل ، وجوها لطيف ، لأن جبال الشارات تحميها من الرياح الجنوبية ، بينما تمدهـا الانهـار النازلـة من هذه الجبال برطوبة معتدلة ، وخضرة دائمة في جنباتها ، في الوقت الذي تشتد فيه الحرارة في مختلف أنحاء الاندلس ، في الصيف .

وغرناطة عرضة لامطار غزيرة تنهمر اليها من السحب التي تتجمع فوق المحيط الاطلسي . وهذه الامطار ، اذا كانت لا تبلغ كمياتها ما تتلقاه قرطبة ، فهي لا تقل في مجموعها عن الكميات التي تصيب اشبيلية . ولكنه اذا أضيفت الى هذه الامطار مياه العيون العديدة المجاورة لها ، والمياه التي تنحـدر من جبل الشارات في شكل جداول ، نتيجة لذوبان الثلوج ، ادركنا بسهولة لماذا اشتهرت غرناطة برطوبة جوها في الصيف وبالبرد القارس في الشتاء (2) .

ومن الجبال المجاورة لغرناطة والتي لا يكاد يفارقها الثلج ، ينزل عدد من الانهار ذكر ابن سعيد ، نقلا عن ابن اليشع ، انها بلغت نيفا وعشرين نهرا (3) تجري لتروي فحصها المشهور .

واشهـر هذه الانهـار وأكبرهـا ، همـا نهـران : نهـر شنيل (أو سنجيل) (4) . الذي ينحدر من جبل شكّير ، بجنوبي المدينة ويمر على

---

2 ـ ومن طريف ما أعتذر به عن برد غرناطة ، قول القاضي أبي بكر بن شبرين :

رعـى اللـه من غرناطـة متبوأ   يسـر كئيبـا او يجـر طريدا

تبـرم منهـا صاحبـي عندمـا رأى   مسارحهـا بالبـرد عدن جليدا

هي الثغـر صان اللـه من أهلت   به ومـا خير ثغـر لا يكون برودا

3 ـ كتاب الجغرافيا (ص167) . على ان ابن الخطيب يقول في الاحاطة (103/1) انه ينزل من جبل شلير ، وعدد الانهار ستة وثلاثون نهرا . والفرق ليس بذي أهمية ، حيث ان نهرا ما قد يكون صغيرا او كبيرا او ان عدد الانهار التي تنزل من الجبل قد زاد خلال الفترة التي تفصل بين الكاتبين .

4 ـ بالاسبانية Genil أو xenil ، وهو مشتق من اللاتينية Singilis . ونهر شنيل من روافد النهر الكبير ، وكانت تمتد على ضفافه في العهد الاسلامي حقول وبساتين ، ولـكن النهـر أصبح الآن ضحلا قليل المياه ، ويغلب على المناطق التي يمر بها الجفاف والجدب .

غربيها الى فحصها ليشق فيه طريقه مسافة اربعين ميلا ويسقى البساتين وقرىً وضياعاً كثيرة البيوت والغلال ، وابراج الحمام ، وغير ذلك(5) ، وينتهي الى فحص لوشة(6) .

ونهر شنيل يشق مدينة غرناطة في وسطها . ومن أهم ميزاته ، وجود الذهب الاحمر فيه ، واكثر ما يوجد الذهب في وسط المدينة ، وخصوصا بموضع يعرف بألبر دولية ، يقع بين قنطرة القاضي ، والقنطرة المعروفة باسم قنطرة الحواتين ، على ان الذهب يستخرج من النهر أيضا في أعاليه وفي اسفله(7) .

وذهب نهر شنيل ، ليس من الذهب الردىء النوع او الرخيص السعر ، حيث ان سعره يزيد عن سعر الذهب العادي في الاسواق ، بالربع والخمس .

ونهر شنيل يدخل الى غرناطة من ناحية الجوف ، ثم ينقسم فيها الى قسمين ثم يخرج من المدينة من جهة القبلة . ويتم العبور على النهر في المدينة بواسطة أربع قناطر محكمة البنيان(8) .

والنهر الثاني الكبير الذي يمر بغرناطة ، هو نهر حدرة (جدّروه)(9) الذي ينزل من ناحية بوادي آش ، شرقي شُكيِّر ، فيمرّ بين بساتين ومزارع وكرم الى ان ينتهي الى غرناطة فيدخل على باب الدَّفاَّف بشرقيها ، ويشق المدينة

---

5 ـ من وصف ابن فضل الله العمري ، صاحب مسالك الابصار ، نقله القلقشندي في صبح الاعشى (5/212-216) .

6 ـ loja بالاسبانية (سان فرنسيسكو لوشة) من أقليم غرناطة ، وبينهما ثلاثون ميلا . وصفها ابن سعيد بانها تقع بين انهار وظلال اشجار في بساط ممتد ، المغرب (2/157) ، وقال الحميري ان بها غارا فيه اربعة نفرٍ موتي لا يعلم اول أمرهم ، وكان الولاة يتعهدون بتجديد أكفانهم ، صفة الاندلس (ص173) راجع ايضا عن لوشة ، معجم البلدان (5/26) الادريسي (ص204) الاحاطة (الفهرست) الحلل السندسية (1/189) .

7 ـ كتاب الجغرافيا (للزهري) مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالجزائر (ورقة47) .

8 ـ نفس المصدر (ورقة 48 ظ) .

9 ـ يذكره ياقوت باسم حدّرة : Darro بالاسبانية .

نصفين ، ويتم العبور عليه بواسطة خمس قناطر ، وهي قنطرة ابن رشيق ، وقنطرة القاضي التي بنيت في سنة 447 هـ (1055 م) والتي لم يبق منها الآن سوى قوس واحد ، وقنطرة حمام بن جاس ، وقنطرة الجديدة ، وقنطرة الفود(10) .

وهذا النهر قطعت منه ساقية كبيرة تمد حاجة المدينة الى مياه الشرب والغسل بحيث يجري الماء في الاسواق والحمامات والمساجد ، ويبرز في أماكن على وجه الارض ، وحيثما طلب الماء وُجِد(11) وتسير عليه الارحى .

كانت غرناطة قبل ثورة البربر عبارة عن قرية صغيرة يسكنها اليهود الذين كانوا يعملون خصوصا في التقاط الذهب في الانهار المجاورة ، وانما كانت قاعدة الولاية في عهد الامويين هي البيرة(12) التي نزلها جند دمشق ، وكثير من موالي عبد الرحمن بن معاوية الذي بناها وأسكنهم بها ، ثم خالطتهم العرب ، بعد ذلك ، وأصبحت من قواعد الاندلس الجليلة .

وقد خربت الفتنة البيرة وجلى عنها أهلها واستوطنوا غرناطة التي لا تبعد عنها الا بستة أميال .

ولما استولى سليمان بن الحكم على زمام الخلافة في قرطبة (سنة 399 هـ) وزع الولايات على انصاره من البربر ، كما رأينا ، وكانت غرناطة من نصيب بني زيري وأقاربه واتباعه من صنهاجة .

ونحن لا نعرف شيئا عن منجزات زاوي بن زيري في مجال تحصين المدينة وبناء المرافق الاساسية فيها ، وان كنا نرى ان من الطبيعي ان يتجه خلال فترة الاضطراب الطويلة التي عرفتها الاندلس ، الى تحصين المدينة وتزويدها بوسائل الدفاع الاولية التي سيكملها ويحسنها خلفاؤه من بعده .

---

10 ـ مسالك الابصار ، نقل القلقشندي في المصدر المذكور (5/212-216) راجع ايضا معجم البلدان (4/195) وصفه الاندلس (ص23-24) .

11 ـ نفس المصدر (القلقشندي) .

12 ـ راجع وصف البيرة في صفة جزيرة الاندلس (ص29-30) الاحاطة (الفهرست) معجم البلدان (1/244) المغرب لابن سعيد (2/125-127) .

على ان الادريسي يخبرنا ان حبوس الصنهاجي هو الذي مدّنها وحصّن أسوارها ، وبنى قصبتها(13) .

وآثار سور مدينة غرناطة وتحصيناتها التي ترجع الى العهد الزيري ، لا تزال قائمة حتى الآن في داخل المدينة الحالية ، والسور يمتد ابتداء من باب البيرة حتى الباب الجديد .

والسور مبني بالاسمنت وتتخلله ابراج شبه مستديرة ، وبقايا السور الذي ينفتح منه بابان يتخذ كل منهما شكل قوس مبني بالحجر والطوب المكوى ، يتجه موازياً لنهر دارو ، على ضفته الشمالية ، ويكمله حائط في شكل قوس مبني بالحجر ، يمتد بين برجين ، ثم يصعد السور حتى قمة الهضبة التي يقع عليها قصر الحمراء ، حيث يستند الى حصنين صغيرين(14) . وآثار السور الزيري وابراجه لا تزال تعتبر من أجمل التحصينات التي أقيمت في الاندلس في القرن الخامس الهجري .

وقد ذكر صاحب مسالك الابصار(15) ان هذا السور يخترقه ثلاثة عشر بابا ، وهي باب البيرة ، وهو أضخمها ، وباب أكحل ، وباب الرخاء ، وباب المرضى ، وباب المصرع ، وباب الرملة ، وباب الدباغين ، وباب الطوابين ، وباب الفخارين ، وباب الخندق ، وباب الدفاف ، وباب البنود ، وباب الاسدر ، وقال انه كان حول المدينة اربعة ارباض ، وهي : ربض الفخارين ، وربض الاجل ، وهو كثير القصور والبساتين ، وربض البيازين بناحية باب الدفاف ، وهو كثير العمارة ، ويخرج منه نحو خمسة عشر الف مقاتل ، وهو ربض مستقل بحكامه وقضاته وغير ذلك ، وربض الرملة(16) .

وهذه الابواب كلها خربت ولم يبق منها سوى آثار باب الرملة ، الذي هدم هو الآخر في سنة 1884 ، ثم أعيد بناؤه جزئيا(17) .

وقد وصف العمري جامع غرناطة بانه « من ابدع الجوامع واحسنها

---

13 ـ الادريسي (ص203) .

14 ـ دائرة المعارف الاسلامية (مادة غرناطة) .

15 ـ المصدر المذكور (نقلا عن القلقشندي)214/5) .

16 ـ نقلا عن صبح الاعشى (214/5) .

17 ـ راجع . L'architecture musulmane paris , 1954 , p . 321 (G)

منظـرا وهـو محـكم البنـاء ، لا يلاصقــه بنــاء ، تحف به دكاكين الشهــود والعطارين . وقد قام سقفه على أعمدة حسان ، والماء يجري داخله ومساجدها (غرناطة) ورباطاتها لا تكاد تحصى »(18) .

وأشهر قصور غرناطة ومبانيها قاطبة ، هو قصر ، أو قلعة الحمراء ، وهذا المبنى يقع على هضبة من صخر يلتف به نهر حدرّو ، قبيل التقائه بنهر شنيل حيث تتكون ثنية تتجه فتحتها نحو الجنوب الشرقي ، وقد سميت هذه القلعة « الحمراء » لأن اسوارها تضرب الى الحمرة ، وهي في معظمها مبنية بالتـابيا التي هي مزيج من الصلصال والجير والحصباء(19) .

واما اول من وضع الحجر الاساسي للقلعة البدائية التـي تحمـل اســم « الحمراء » فنحن لا نعرف ، بل ولا نعرف حتى تاريخ هذا العمل ، ولـكن اسم الحمراء ورد ذكره لأول مرة في معرض الحديث عن معـركة وقعـت في سنـة 377 هـ (890 م) في عهـد عبداللـه الامـوي ، حين أجبـر جماعـة من المرتدين عن الاسلام ، من الاسبان ، سوّارا ، ومن معه من عرب قبيلة قيس ، الى الاعتصام بالحمراء ، ثم تمكنوا من الافلات من قبضتهم ، بعد ان قاموا بهجوم مصحوبا بخدعة حربية .

ونحن في هذا البحث سوف لا نتعرض لوصف قصر الحمراء من الناحية المعمارية وغيرها ، لان هذا القصر انما شيد حسب الرأي السائد في القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشـر ميلادي) في عهـد بنـي الاحمر الذين تنسب اليهم بعض الروايات تسمية الحمراء ، خطأ ، وذلك على الرغم من وجود احتمال قوي بان القصر واسواره الخارجية كانت قائمة قبل ذلك العهد(20) .

---

18 ـ نقلا عن المصدر المذكور .

19 ـ راجع مقالة(Shead (A في دائرة المعارف الاسلامية (مادة الحمراء) .

20 ـ يمكن لمن يريد التوسع في البحث عن قصر الحمراء في هذه الفترة ، استشـارة المراجـع التالية :

Girault de frangey , L'architecture des arabes et des mores , 1841 ; Goury and ouvn , plans and elevation , sections and details of the alhombra , 1848 ; jones , moorish remains in spain ; Galvert , the alhombra , 1907 ; borman , die baokunst die alhombra zu grenada ; dozy , histoire des musulmans D'Espagna ; mar çais (G) L'architecture musulmane D'occident .

يوجد كلمة بالمرجع رقم ٢٠ في داخل الاجنبي وهي (في جزاين)

والواقع ان نظرية ظهرت في منتصف العقد السادس من القرن الجاري ، لا نستطيع تبنيها لأنها تعوزها الحقائق المادية من جهة ، ولأنها ظهرت في اطار البحث عن مفاخر اليهودية الذي تدعمه الصهيونية العالمية ، من جهة اخرى (وهو مجهود مشكوك فيه) .

وهذه النظرية أعلن نواتها المستشرق اليهودي فردريك باجيبور لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في كمبرج بانجلترا في سنة 1954 ، ثم وسعها ونشرها في كتاب مستقل متوسط الحجم في سنة 1968 (21) .

وملخص النظرية ان مباني القلعة الحمراء قد تحولت الى قصر الحمراء ، ثلاثة قرون قبل التاريخ الشائع لبناء القصر ، وان الذي قام بعملية تحويل القلعة العسكرية الى قصر للسكن لم يكن شخصاً آخر سوى يوسف بن نغرالة الذي سبق ان تحدثنا عن وزارته لباديس ، وقد التجأ الكاتب الى بعض النصوص العربية (ومنها نص ورد في مذكرات عبدالله الصنهاجي) وبعض النصوص العبرية التي منها أشعار ابن غابرول ،وحاول ان يثبت بتحليلها ، ان قصر الحمراء كان مقر الوزير اليهودي يوسف ، وان قصر باديس هو الذي يقع على هضبة البيْسين (Albaicin) والمقابل لقصر الحمراء ، وكذلك أعاد هذا الباحث اليهودي بعض الرموز التي استخلصها من التنميقات والزخارف المعمارية المنقوشة في آثار القصر الى أصل عبري .

وأهم النصوص العربية التي اعتمد عليها الكاتب لتأييد نظريته ، هو ما ذكره عبدالله الصنهاجي ، آخر ملوك بني زيري ، في مذكراته ، من ان يوسف قد بنى لنفسه قصراً أعظم من أي قصر آخر في غرناطة .

وهذه النظرية التي لقيت مروّجين في الاوساط الاكاديمية في الولايات المتحدة ، لم تثبت امام الانتقادات التي وجهها إليها عدد من الباحثين الذين من بينهم المستشرق الاسرائيلي شيرمان (H . Schirman) الذي يقع هذا الموضوع في مجال اختصاصه والذي سبقت الاشارة الى عمله الذي يتعلق ببني

---

21 - Bargebehir (F) A cycle of studies on the elenenth century in moorish spain , Ed . by walter de gruytar 2 co berlin 1966 .

نغرالة ، والمستشرق الاسباني ، جراسيا جومز (Gracia Gomez) ومع ذلك فان باحثاً آخر ، وهو أوليج جرابر (Oleg Graber) قد اعتمد هذه النظرية واتخذها محورا لعدة محاضرات .

وأما مؤرخ المعماري ، جورج مارسي ، فقد اكتفى في كتابه الذي خصصه للفن المعماري في المغرب (والاندلس) بالقول بان القلعة الحمراء قد ظهرت الى الوجود في أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) في عهد بني أمية ، كما لاحظنا ذلك . ولكن النهضة الضيقة التي تمتد على طول سبكة (Sabika) والتي يسقيها نهر شنيل انما حُصِّنت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) على يد الزيريين (22) . على ان الحصن الذي يدور بمساحة 740 مترا طولا ، و220 متراً عرضا ، انما بني في عهد الدولة الناصرية (وعلى وجه التحديد ، في عصر محمد الاول ومحمد الثاني) التي اتخذت غرناطة عاصمة لها .

وقصر الحمراء ، مع مجموعة من المباني ، تمثل مدينة سلطانية قائمة بنفسها ، وتشرف على المدينة الشعبية التي تمتد تحت أقدام هضباتها ، وهي تحتوي على الثكنا العسكرية والمخازن ، كما تحتوي على صهاريج المياه الضخمة التي تسمح للمدينة بتحمل الحصار مدة طويلة (23) .

وكذلك تشتمل مباني القصر على عدد كبير من المنازل السكنية والقاعات والحمامات ، وعلى المسجد الجامع الذي سبقت الاشارة اليه والذي وصفه العمري بانه « من ابدع الجوامع واحسنها بناء ، وبه الثريات الفضية معلقة ، وبحائط محرابه احجار ياقوت مرصعة في جملة ما نمق به من الذهب والفضة (24) .

ونحن لا نعرف ما اذا كانت الثريات والتنميقات التي يذكرها صاحب مسالك الابصار ترجع الى العهد الزيري الذي بني فيه الجامع ، أم أنها كانت

---

22 ـ المصدر المذكور (ص 304) .

23 ـ نفس المصدر .

24 ـ نقلا عن القلقشندي في المصدر المذكور .

من ضمن ما استحدث عند تجديد القصر في عهد الدولة الناصرية .

ومباني غرناطة الزيرية تعتبر مندثرة كلها ، ولم يبق من آثارها غير القطع التي سبقت الاشارة اليها ، وسوى حمام يسمى(Banuelo) ، وهو يحتوي على قاعة لخلع الملابس وللاستراحة ، وفي وسطه حوض ، تأتي بعده ثلاث قاعات ذات قبب تفصل بينها عرصات تعلوها أقواس ، وحيطان الحمام مبنية بالاسمنت الصلب ، ولكن الاقواس مبنية بالطوب المكوي .

ومدينة غرناطة التي تقع عند أقدام جبل سيبرانيفادا ، بين هضبتين تشرف عليهما الحمراء ، ويفصل بينهما نهر دارو ، وكلتاهما تحيط بها سهول ، تطل على الفحص المشهور ، فحص غرناطة الذي يحمل الآن اسم Vega de) (grenada ، وهذا الفحص كان أيام الدولة الاسلامية من انظر واخصب أراضي الاندلس(25) .

وقد اشتهر فحص غرناطة بعدد من المنتجات الزراعية الرفيعة والوافرة المحاصيل ، أهمها ، من الفواكة ، التفاح والقراصيا البعلبكية(26) التي يقول عنها ابن فضل الله العمري انها « لا يكاد يوجد لها مثيل في الدنيا منظراً ، وحلاوة ، حتى ليعصر معها العسل »(27) .

وكذلك ينتج الفحص الجوز والقسطل ، والتين ، والاعناب ، والخوخ ، والبلوط وقصب السكر . ومن المزروعات الصناعية الحرير وعود اليلنوج الذي تنتجه ناحية دلاية(28) والذي ذكر الرازي انه لا يفوقه عود الهند ذكاء وعطر رائحة(29) .

---

25 ـ راجع وصف موقع غرناطة وسهولها من الناحية السياحية في الوقت الحاضر في Enrique sordo , L'espagne mauresque , paris 1964 , p . 108 et suit .

26 ـ يشبه شجر الاجاص ، وفاكهته تشبه العنب الاسود ، وهو يعرف في مصر باسم خوخ الدب ، راجع(335 - II) Dozy, Supt., Aux dictionnaires arabes

27 ـ نقلا عن القلقشندي في المصدر المذكور .

28 ـ Dalios الحديثة ، وهي بلدة صغيرة تقع قرب المرية في جنوبي جبل « عذرة(Gador) غير بعيدة من شاطيء البحر .

29 ـ نقلا عن ابن الخطيب في الاحاطة (99/1) .

وفي جبل شلير الذي يشرف على غرناطة ، انواع مختلفة من العقاقير والاعشاب التي تستعمل في الادوية يعرفها الشجارون معرفة دقيقة ، وبعضها ، فيما يقول ابن فضل الله العمري لا توجد في الهند ولا في غيرها من البلدان .

وقد تعرض ابن الخطيب لذكر العقاقير المتوفرة في جبل شلير في العبارات التالية :

« وبجبل شلير منها سنبل فائق الطيب ، وبه الجَنْطيانا ، يحمل منه الى جميع الافاق ، وهو عقير رفيع ، ومكانه من الادوية الترياقية مكانة ، وبه المرقشينة على اختلاف انواعها ، والالازَوَردْ ، وبفحصها (غرناطة) وما يتصل به القرمز ، وبها من العقاقير النباتية والمعندية ما لا يحتمل ذكره الايجاز وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيته وغلة شريفة وفائدة عظيمة تمتاز منها البلاد وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها الا البلاد العراقية ، وفحصها الا فيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب ، وسمر الليالي ، قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المدانب وتتخلله الانهار جداول ، وتتزاحم فيه القرى والجنات في ذرع اربعين ميلا او نحوها (30) .

وتمتاز أراضي فحص غرناطة (الى جانب خصبها العظيم) أيضا بما تحتوى عليه من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتية (31) التي كانت بدون شك توفر دعامة هامة لصناعات غرناطة ، ولا سيما صناعة الاسلحة ولوازم الخيل والحلي والاواني الخ . .

وأما بساتين غرناطة وحدائقها ، ومنتزهاتها ؛ فهي تمتد في معظمها خارج اسوار المدينة مباشرة ، وهي جنات (32) وارفة الاشجار كثيرة الكروم وتحمل اسماء مثل : فدان الميسة ، والجنة المعروفة باسم « عصام » والجنة التي كانت تحمل اسم المعروي ، والجنة المنسوبة الى قداح بن سحنون ، والجنة المنسوبة الى ابن المؤذن ، وجنة النخلة السفلى ، وهذه الاسماء ربما

---

30 ـ الاحاطة (105/1) .

31 ـ نفس المصدر (104/1) .

32 ـ الجنة في لغة غرناطة معناها الحديقة او البستان .

كان بعضها مما استحدث بعد عهد الزيريين ، ولكن ابن الخطيب الذي ينقلها الينا ، لا ينسى ان يذكر بصفة خاصة سطرا من شجر الحور ، ينسب الى مأمل أحد خدام الدولة البادسية(33) .

وسكان غرناطة يتميزون بخصائص اجتماعية واخلاقية وخلقية ، عنى المؤرخ والاديب الكبير ، لسان الدين بن الخطيب ، بتسجيلها في فصل خاص في كتاب الاحاطة نقتبس منه العبارة التالية :

« أحوال هذا القطر في الدين واصلاح العقائد ، أحوال سنية ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس(34) ، امام دار الهجرة ، جارية ، وطاعتهم للامراء محكمة واخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة ، وصورهم حسنة ، وانوفهم معتدلة ، غير حادة ، والوانهم زهر مشربة بحمرة ، والسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب(35) كثير وتغلب عليهم الامانة ، واخلاقهم ابية في معاني المنازعات ، وانسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثيراً ، ولباسهم الغالب والفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ، وتتفاضل البزّ بتفاضل الجدة والمقدار ، والكتان والحرير والقطن والموعر ، والاردية الافريقية والمقاطع التونسية ، والمئازر المشفوعة صيفا ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الازهار المتفتحة في البطاح الكريمة ، تحت الاهوية المعتدلة(36) .

وعلى عكس ما كان متبعاً في المغرب ، فان ابن الخطيب يلاحظ ان لباس العمائم قليل في زي أهل غرناطة ، الا ما شد من شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربي منهم ، وهذه العادة لا بد وان تكون من بقايا العهد الذي كانت فيه الاغلبية الساحقة من سكان غرناطة وولايتها ، من البربر . فان

---

33 ـ الاحاطة (1/122 - 123) .

34 ـ كان أهل الاندلس يعملون بمذهب الاوزاعي امام أهل الشام قبل ذيوع مذهب مالك ، أيام معاصرة هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقد كان ذيوع هذا المذهب على يد جماعة من أهل الاندلس رحلوا الى المدينة وتعلموا على الامام مالك .

35 ـ كذلك في النص وربما كان الافضل قراءة غريب .

36 ـ الاحاطة (1/140 - 141) .

البربر ، فيما عدا العلماء والاشراف منهم ، لا يلبسون العمائم .

ويمضي ابن الخطيب فيقول :

« واعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغنا بمدينتهم فاش ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها ، وقوتهم الغالب فيه البرّ الطيب ، عامة العام ، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي والفعلة في الفلاحة الذرة العربية ، مثل اصناف القطاني الطيبة وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة ، يدخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام ، الى غير ذلك من التين الزيتون ، والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز(37) .

وهذا الوصف لعادات سكان غرناطة واخلاقهم ، على الرغم من ان ابن الخطيب قد سجله بعد اكثر من قرنين ونصب ، بعد سقوط دولة بني زيري ، فان من الممكن الاعتقاد بان سكان غرناطة كانوا يتوارثون هذه الخصائص جيلا عن جيل ، وهذا يصدق بصفة خاصة على السمات الفيزيائية والملابس ، بالنظر الى تغلب العنصر البربري الذي أخذ معه كثيرا من عاداته من المغرب .

***

كان بودنا ان نضيف صفحة او صفحتين لوصف الحياة الادبية والثقافية بصفة عامة في غرناطة ، ولكنه من سوء الحظ ، ان ما وصل الينا من الادب من انتاج العصر الزيري ، قليل بصورة تسترعي النظر ، بحيث ان ما أشرنا اليه في صفحات اخرى من هذا الكتاب ، يكاد يكون كل شيء .

هل كان مرجع هذه الظاهرة الى انغلاق قصور البربر نسبيا على الادب والى قلة اكتراث الزيريين بالادباء ، على اثر الفتنة العظمى التي هدت الاندلس ، والى ما نجم عنها من الضغائن والاحقاد بين العرب والاندلسيين والبربر ، ام ان مرجعه الى اهمال مؤ رخي الادب عمدا او تناسيا لانتاج أدبي ترعرع في حضن غرناطة الزيرية تحت تأثير نفس العواطف ؟ .

---

37 ـ نفس المصدر .

ربما كان كلا الاعتبارين صحيحا ، بمعنى ان ملوك البربر الاوائل كانوا قليلي الميل الى الادب ، وان القليل الذي قيل في مدح هؤلاء الملوك قد ضاع ، فعلا بحكم هذا الاهمال .

ولربما كان للنزاع السياسي المستمر والمنافسة السياسية بين غرناطة واشبيلية اثر سلبي على الادب في غرناطة ، بمعنى ان مدح بني زيري والتقرب اليهم يشكل عقبة في طريق الشعراء الذين يطمعون في الوصول الى مكان صغير في مجلس ابن عباد . ونحن نملك شواهد على ان بعض الشعراء حاولوا التقرب من بعض ملوك العرب والحصول على حمايتهم بهجاء بني زيري والبربر (38) .

على ان موقع غرناطة بجبالها وهضابها وانهارها ومنتزهاتها وجمالها الخلاب ، كان في جميع الازمنة مجالا لتأملات الشعراء والفنانين ومنبعا فياضا للوحي بروائع القصائد والقطع النثرية ، في القديم والحديث .

وهذا الموقع وما يحيط به هو الذي اوحى بالمثل الاسباني الشائع :

QUIEN NO HA VISITO GENADA
NO VISITO NADA

« من لم ير غرناطة لم ير شيئا على الاطلاق » . ومن بديع النثر الفني الذي قيل في غرناطة تلك القطعة التي وردت في رسالة لابن البحر تصور مدن الاندلس العظيمة ، وكل منها تتفاخر بمزاياها :

---

38 ـ والمثال الذي يتبادر الى الذهن في هذا السياق هو خلف بن فرج الابيري السميسر ، فانه لما بلغ المعتصم بن صمادح انه هجاه ، احتال في طلبه حتى حصل في قبضته ، ثم قال له : انشدني ما قلته فيَّ ، فقاله : وحق من حصلني في يدك ما قلت فيك شرا ، وانما قلت:

رأيت آدم في نومي فقلت له ... أبا البرية إن الناس قد حكموا
ان البرابر نسل فيك . قال اذن : ... حواء طالقة ان كان ما زعموا

فنذر عبدالله بن بلكين دمي فخرجت هاربا الى بلادك ، فوقع علي من أشاع ما بلغك لتقتلني انت فبدرك هو ثأره بك ، ويكون الاثم عليك ، فقال : وما قلتم فيه خاصة مضافا الى ما قلته في عامة البربر ، فقلت :

يبني على نفسه سفاها ... وكأنه دودة الحرير

قال المعتصم ؛ لقد أحسنت في الاساءة اليه .

قالت غرناطة :

« لي المعقل الذي يمتنع ساكنوه من النجوم ، ولا تجري الا تحته جياد الغيم السحوم ، فلا يلحقني من معاند ضرر ولا حليف ، ولا يهتدي الي خيال طارق ولا طيف ، فاستسلموا قولا وفعلا ، فقد أفلح اليوم من استعلى لي بطاح تقلدت من حد أولها اسلاكا ، واطلعت كوكب زهرها ، فعادت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطافي كَأَدْ مع العشاق ، وبرد نسيم برد ذماء المستجير بالانتشاق ، فحسني لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعوني ، فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الاعدل ، ومالي به من عوض ولا بدل ، ولم لا يعطف على عنان مجده ، ويثني وان انشد يوما فاياي يعني :

بلاد بهـا عق الشبـاب تمائمي وأول أرض مسَّ جلـدي ترابها (39)

ومن غرر الشعر الذي قيل في مدح غرناطة والحنين الى ربوعها ، هذه الابيات لابن الحجاج ، يوسف بن سعيد بن حسان :

أحِـن الـى غرناطـة كلمـا هفت نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق

سقـى اللـه من غرناطـة كل منهل بمنهـل سحـب ماؤهـن هريق

ديار بدور الحسـن بين خيامها وأرض لهـا قلـب الشجـي مشوق

أغرناطـة العلياء باللـه خبري اللهائـم البـاكي اليك طريق

ولما ذكر شنيل قال :

وقـد شن شنيل فرنـدا مهندا نضـى فوق دُرٍّ ذُرَّ فيه عقيق

اذا نم منـه طيب نشـر أراكه اراك فتيت المسـك وهـو فتيق

ومهمـا بكى جفـن الغمـام تبسمت ثغـور اقـاح للـرياض أنيق

---

39 ـ نفح الطيب (1/172 - 173) .

الباب الثالث

عهد عبد الله بن بلكين

ثالث غرناطة .

وإلى المعقل الذي يمتنع ساكنوه من النجوم ، ولا يجري إلا تحته جياد الغيم السجوم ، فلا يلحقني من معاند ضرر ولا حيف ، ولا يهتدي إلى خيال طارق ولا طيف ، فاستنشقوا قولا وفعلا ، فقد أطلع النور من استطل في مطالع فلذت من خد أوديتها أسلاكا ، وأطلعت كواكب زهرها ، فعاقت أفلاكا ، ومياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق ، وبرد نسيم يرد نفاه المستجير بالأشواق ، فحسني لا يطمع فيه ولا يحتال ، فدعوني ، فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الأفضل ، وما لي به من عوض ولا بدل ، ولم لا يعطف على عنان مجده ، وبشي وإن اشتد يوما فيابي ومني :

بلاد بها عق الشبابُ تمائمي ... وأول أرض مسَّ جلدي ترابها (59)

ومن غرر الشعر الذي قيل في مدح غرناطة والحنين إلى ربوعها ، هذه الأبيات لابن الحجاج :

أحِنّ إلى غرناطة كلما هفت ... نسيم الصبا تهدي الهوى وتشوق

سقى الله من غرناطة كل منهل ... بمنهل سحب ماؤهن غريق

ديار يدور الحسن بين بيوتها ... وأرض بها قطب الشمس مشرق

لغرناطة العليا بالله جيرتي ... الهاشم البحتري اليشه طريق

ولما ذكر شنيل قال :

رعى الله من شنيل لرشفنا مهندا ... تشبس لونه خزٌ فيه تفتق

إذا تم منه طوبة لشمس أرائة ... أراك الشيب المسك وهو تحلق

ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ... ثغور النبات للشرائح أنيق

---

59 ـ نفح الطيب (172/1 ـ 173)

الفصل الاول

عبدالله وجيرانه

لما توفي باديس بن حبوس ، اتفق مستشاروه ورجال دولته وأشياخ صنهاجة ، على تقديم عبدالله بن بلكين ، وأخذوا له البيعة على الناس ، ولقبوه المظفر بالله ، الناصر لدين الله ، وقد عدلوا اليه عن تقديم عمه ، ماكسن بن باديس الذي كان واليا من قِبَل أبيه على جيّان ، بسبب ما أشتهر به الاخير من سوء السجية وانهماكه واجترائه على سفك الدماء .

كان عبد الله عند ولايته الامر صبيا لم يبلغ الحلم بعد ، وقد كانت غرناطة اذ ذاك حافلة بأعلام العلماء وحملة السيوف والاقلام ، ومع ذلك فقد أنفرد بتربية عبدالله وبتدبير ملكه الوزير الصنهاجي ، سَمَاجة ، الذي استقل بشؤ ون الدولة في مملكة غرناطة .

وأما ولاية مالقة فقد كان على رأسها تميم بن بلكين ، شقيق عبدالله الذي تلقب بالمعز بالله ، والذي كان قد عينه في هذا المنصب في حياته جدُّه باديس(1) .

كان الخطر الاساسي الذي واجهته غرناطة بعد وفاة باديس ، هو نفس الخطر الذي كانت تواجهه المملكة عقب وفاة حبوس بن ماكسن : محاولة بني عباد التوسع على حساب الزيريين .

---

1 ـ راجع أعمال الاعلام (القسم الثاني الخاص بالاندلس ص270) .

فقد ورث المعتمد عن أبيه المعتضد(2) مع مملكته ، اطماعه التي لا تحد بها حدود ، وسياسته العدوانية تجاه بني زيري ؛ وكذلك استغل فرصة صغر سن عبدالله وأخذ يعمل لضم مملكة غرناطة الى اشبيلية ، ومنذ سنة 466 هـ (1074 م) ، أي عقب وفاة باديس بسنة واحدة ، زحف بجيشه على جيان واستولى عليها مع حصون أخرى .

على انه من الصحيح أيضا ان سياسة بني عباد التوسعية لم تكن تستهدف مملكة غرناطة وحدها ، بل كانت تشمل جميع ممالك المسلمين بالاندلس تقريبا ، ولكن الصدف الجغرافية شاءت ان تكون غرناطة جارة اشبيلية ، ثم انه يجب الا ننسى انها مملكة جميلة ، وغنية .

وهذه الستراتيجية التوسعية التي سخر المعتمد لخدمتها كل ذكائه وفصاحته وموارده المالية ، تمثل الخلفية الاساسية لعلاقات اشبيلية السياسية مع جيرانها ، بما في ذلك العلاقات مع النصارى ، وللاحداث التي ستزعزع الاندلس قبل وصول المرابطين .

ولهذا السبب لا يمكن فهم ما كان يجري في غرناطة وما كانت هذه المملكة تتعرض له من الضغوط السياسية والعسكرية ، دون فهم هذه الخلفية ، ولو بصورة اجمالية .

فبعد ما استعاد المعتمد المدن والاراضي التي احتلتها طليطلة ، واستولى على قرطبة التي انتزعها من ابن ذي النون ، أخذ يقوم بمناورات واسعة لتطويق طليطلة نفسها ويعمل لاثارة الفتن في هذه المملكة كانت حليفة لاشبيلية ومن الممالك الاولى التي اعترفت بهشامها المشبه .

ولكن شيئا كان ينغص على المعتمد نجاحه وانتصاراته . فهو يعرف ان العلاقات بين طليطلة وألفونس السادس علاقات متينة ، وان في استطاعة بني ذي النون ان يعتمدوا على مساعدة ملك قشتالة في جميع الحالات .

---

2 ـ توفي المعتضد في غرة جمادى الاولى سنة 461 هـ في رواية ابن خلكان ، وفي جمادى الثانية سنة 460 هـ في رواية ابن عذارى .

وكذلك قرر صاحب اشبيلية انه لكي يصل الى ما يصبو اليه من بسط سلطانه على الاندلس المسلمة ، لا بد من ان يظفر بصداقة الفونس السادس ، ويفصل بينه وبين طليطلة ، مهما كلفه ذلك من التضحيات ، وفي مرحلة تالية ، قد يتمكن من تحويل العلاقات بين النصارى وطليطلة الى عداوة بحيث تصبح طليطلة نفسها هدفا لاطماع النصارى .

وبعد ذلك يستطيع المعتمد توجيه جيوشه باطمئنان الى المملكتين اللتين لا تزالان تحتفظان باستقلالهما : غرناطة وبطليوس .

وأما بني هود ، فسيضطرون الى الخضوع لارادته بدون مقاومة ، حيث ان مملكتهم ، سرقسطة ، محاطة بالاعداء من كل جانب ، وهي بعد من الضعف بحيث ان المقتدر بن هود لم يحتفظ بعرشه المتزعزع الا باحاطة نفسه بالجنود المرتزقة من القشتاليين .

والقطعة الرئيسية في لعبة الشطرنج الضخمة التي خططها المعتمد ، هو صديقه ووزيره الشاعر ، ابن عمار (3) الذي كان أداة فعالة لتحقيق كثير من المكاسب السياسية التي حصلت عليها اشبيلية منذ وفاة المعتضد .

---

3 ـ هو محمد بن عمار الفهري الاندلسي الشبلي ، ابو بكر ، يلقب بذي الوزارتين . ولد في احدى القرى التابعة لشلب (Silves) في سنة 422 هـ (1031 م) من أصل عربي ومن اسرة فقيرة مغمورة ، ودرس الادب في شلب ثم في قرطبة ، وبعد ذلك أخذ يجول في الاندلس وينظم الشعر لحساب من يستطيع دفع ثمن قصائده التي هي مورد عيشه اليومي ، واستمر على هذه الحالة حتى التقى المعتمد الذي اصطفاه صديقا ، ورفع مكانته وجعل منه أقرب المقربين اليه ، على الرغم من معارضة المعتضد لهذه الصحبة . وبعد ما تولى المعتمد الملك أصبح ابن عمار وزيره ومستشاره الاول بحيث كانت منزلته في مستوى منزلة جعفر البرمكي عند الرشيد . وفي فترة لاحقة خلع عليه لقب الامارة واستنابه بمرسية . ولكن محاولة ابن عمار الاستقلال بها باءت بالفشل ، وانتهى الامر الى ان قتله المعتمد بيده صبرا في سنة 477 هـ . انظر ترجمته في وفيات الاعيان (225/4 - 229) . المغرب (389/1 - 391) النفح (652/1 - 656) ، القلائد (ص83) بغية الضبي (ص 102) المعجب (ص77) الرايات لابن سعيد (ص225) المطرب لابن دحية (ص169) الشذرات (356/3) . راجع ايضا مقالة A . cour في دائرة المعارف الاسلامية (مادة ابن عمار) وكذلك تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي (133/4 وما يليها و163 وما يليها) .

اتجه ابن عمار في المرحلة الاولى الى برشلونة فجؤ د علاقات الصداقة التي تربط أميرها النصراني بالمعتمد ، ثم سار الى ليون التي كانت قاعدة ملك قشتالة ، واجتمع بالفونس السادس ، وأقنعه بعقد معاهدة بينه وبين المعتمد(4) . وقد كان من أهم مواد المعاهدة مادة يَعِدُ النصارى بموجبها ان يساعدوا اشبيلية بالجنود المرتزقة ضد جميع اعداء المعتمد من المسلمين .

وفي مقابل ذلك ، تعهد المعتمد بن عباد بدفع ضريبة سنوية لألفونس السادس ، والاسوأ من ذلك ، هو ان ابي عباد تعهد ايضا بان لا يعترض مشروعات الفونس السادس لاحتلال طليطلة .

ذلك هو الثمن الذي دفعه المعتمد في مقابل اطلاق يده ضد مملكة غرناطة ومملكة بطليوس .

وفي ظل المعاهدة الجديدة ، راح الفونس يعمل لتنفيذ مخططه لاحتلال طليطلة ، وذلك على الرغم من العلاقات الودية التقليدية التي كانت تربط أسرته بأسرة بني ذي النون وبالرغم من ان طليطلة وفرت للملك النصراني ملجأ وملاذاً اثناء مطاردة شقيقه سانشو له ، قبل ان يتولى الحكم . وقد استمرت مناوشات الفونس ومحاصرته لمملكة بني ذي النون من سنة 472 هـ . حتى سقطت طليطلة نهائيا في يده ، في 27 محرم سنة 477 ه (1085 م)(5) .

ولكنه اذا كانت المعاهدة قد أطلقت يد الفونس على طليطلة ، فان ابن عباد لم يجن منها تلك الفوائد التي كان يعتقد أنها تضمنها له .

فان الفونس السادس لما شاهد ما كان يواجهه عبدالله الصنهاجي من الصعوبات ، نتيجة ، خصوصا لتهديد جاره القوي ، وجد الفرصة سانحة ليفرض عليه حمايته ، فبعث اليه سفيرا ، وهو مستشاره ، بيدرو انسورز

---

4 ـ انظر تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف اشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان (ص59 - 60) .

5 ـ راجع مقالة ليفي بروفنسال عن هذه الاحداث وغيرها في دائرة المعارف الاسلامية (مادة طليطلة) ، وكذلك لنفس الكاتب مقالة عن سقوط طليطلة في مجلة Hesperis ، عدد 12 سنة 1930 (ص48 وما يليها) .

(Pedro Ansurez) (6) ليطلب اليه دفع ضريبة قدرهـا 20 الف دينـار في مقابل بسط حمايته عليه ، ولكن عبدالله رفض هذا الطلب حيث كان واثقا من مناعته ، لان مملكة طليطلة تفصل بين مملكتيهما ، ولم يكن يدري ان الفونس لم يكن يطمع في مملكته في تلك الاونة ، وانما هو يساومه في مقابل الحرية التي يتيحها لابن عباد ضد مملكته .

وهذا الرفض كان ينتظره ابن عمار الذي سارع على عرض مبلغ 50 الف دينار على سفير الفونس في باغه ، في مقابل عقد معاهدة أخرى مع اشـبيلية يتخلى الملك النصرانـي بموجبهـا عن غرناطـة لابـن عبـاد ، وبالاضافة الى هذا المبلغ ، وعد ابن عمار بان يتنازل لملك قشتالة عن جميع الاسلاب والغنائم التي تقع في يد المعتمد عندما يستولي على عاصمة بني زيري .

ولكن الفونس الذي يقضي مخططه بان يملأ خزائنه بالذهب والفضة قبل ان يضم ممالك المسلمين الى مملكتـه التـي تشمـل ليون وقشتالـة وغـاليسيا ونافار ، لم يكن يسمح لابن عباد ببسط سلطانه علـى الانـدلس الاسـلامية ، ويقف بعـد ذلك في طريق مشروعاته ، والفـونس علـى كل حال ، لم يكن معجلا ، حيث يرى ان عامل الزمن في مصلحته وان استمرار تطاحن الملوك المسلمين ، هو أفضل طريق لاستنزاف قوتهم ، بحيث تسقط الاندلس ثمـره ناضجة في يده ، في نهاية الامر .

ولذلك أكتفى بالسماح لابن عمار ببناء حصن على مسافة ستة فراسخ من غرناطة بقصد مناوشة المدينة وشن غارات منه على أراضيها ، وزوده بالعمال والجنود المرتزقة لهذه الغاية .

ولما تم بناء حصن بليلش ، كما يسمى (7) وضع المعتمـد فيه حامية قوية وأخذ يوجه منه عمليات استفزازية ضد ملك غرناطة .

---

6 ـ كان معلم الفونس السادس قبل ان يصبح مستشاره وقد لعب دورا مهما في تخطيط وتنفيذ سياسة الفونس تجاه المسلمين ، راجع عنه ، (فهرست) .
Menédez pidal (R) , L'Espagne del cid , madrid , 1947

7 ـ راجع عن حصن بليلش Belillos الهامش الذي نقله ليفي بروفنسال عن Felix Gamenez في الترجمة الفرنسية للقطعة الثانية (ص30 هامش 5) .

على ان تكاليف بناء الحصن وأمور المرتزقة من النصارى كانت باهضة فوقعت مشكلة بشأنها مع الفونس السادس ، مما دفع الاخير الى سحب جنوده وأضطر المعتمد الى الاكتفاء بترك حامية صغيرة فيه(8) .

وعندئذ لاح بريق امل في انفراج الموقف لعبدالله ، فزحف على الحصن بجيشه في محاولة للاستيلاء عليه ، ولكن مناعة الحصن اضطرته الى التراجع عنه ، الامر الذي تسبب في انهيار الروح المعنوية في جيشه وبين سكان غرناطة ، ولا سيما بعد ما أخذت الحامية تقوم بنشاطها من جديد في شن الغارات وأعمال التخريب في سهول غرناطة .

وازاء هذه الحالة ، اضطر عبدالله الى مراجعة موقفه من عرض الفونس السادس وقبل ان يدفع الضريبة التي طلبها .

وأما الشخص الذي قام بدور الوسيط في هذه المفاوضات ، فهو لم يكن سوى ابن ذي النون ، العوبة الفونس ، والذي كان يحلم بضم غرناطة الى مملكته في الوقت الذي يتظاهر فيه بالصداقة للملك الصنهاجي .

ولكن ابن عمار سيظهر على المسرح مرة أخرى ، ويحاول عرقلة المساعي للاتفاق بين الملكين ، وعلى الرغم من ان وزير اشبيلية كان لا يزال يواجه مشكلة اتمام دفع تكاليف بناء الحصن ، فانه لم يبخل بنصيحته لألفونس بان يستولي على غرناطة ليأخذ أسلابه ويسلم المدينة الى المعتمد ، وقد اغراه بسهولة الاستيلاء عليها بسبب صغر سن عبدالله ، ولكن الملك النصراني قاوم هذا الاغراء ونظر الى الامر من زاوية اخرى : لماذا يسمح بأخذ المدينة لأمير مسلم يزيد بها قوة وقد يصبح عدوا له في المستقبل ؟ .

وبدلا من خطة ابن عمار فضل الفونس تنفيذ خطته الخاصة ، فبعث الى عبد الله بسفير « ينذر باقباله ويأمرنا بالخروج اليه » ، على حد تعبير عبدالله ، لتجديد العهد معه كما يفعل مع غيره من سلاطين المسلمين .

ولما تلقى عبدالله هذا الانذار ، مرت بخاطره ، وهو الرجل الحذر

---

8 ـ قارن مذكرات عبدالله (319/2) وأعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس ص270) .

المتخوف ، عدة أسئلة ، أهمها : لماذا يقبل الملك بنفسه على رأس جيشه في هذه الظروف الدقيقة ؟

وكان الجواب الوحيد الذي تبادر الى ذهنه ، هو ان الفونس انما ينوي القيام بهذه الرحلة للقبض عليه ليقتله ! .

واثر ذلك ، وقع في حيرة مذهلة : هل يسلم نفسه مكتوف اليدين ويسلم ملكه في هذا اللقاء ويحرم نفسه حتى من مقاومة رمزية ، أم يرفض اللقاء فيتخذ الفونس ذلك ذريعة للهجوم على غرناطة ، فتكون النقمة والحرب وضياع المملكة لا اختيار الا بين شرين ! .

ولكن ملك غرناطة قرر بعد التفكير والتشاور مع وزرائه ، اجراء المقابلة التي طلبها الفونس ، وحدد للقاء مكانا غير بعيد من غرناطة .

ولدهشة عبدالله ، فقد ساد المقابلة جوّ وديّ ، ولم يكتف الفونس السادس خلالها بالاعراب عن تقديره لملك غرناطة ، بل عرض عليه أيضا ان يدافع عن مملكة الزيري بنفس الحزم الذي يدافع به عن مملكته ولكنه نظرا لأن لكل شيء في هذا الوجود ثمن معين في وقت معين ، فقد طالب الفونس في مقابل حمايته لغرناطة بمبلغ خمسين الف دينار . .

هل يرفض الملك الصنهاجي دفع هذا المبلغ ويفوت على نفسه فرصة كما فعل حين رفض ضريبة 20 الف من قبل ، فيدخل الفونس في مزايدة جديدة ؟ .
ومما زاد من دقة الموقف ان عبدالله كان يعرف ان الفونس جاء لهذا اللقاء ومعه اعوان اشبيلية الذين ينتظرون من الملك النصراني ان يسلم اليهم غرناطة في مقابل نفس المبلغ . .

لم يبق من حيلة سوى الاستجداء والاستعطاف والتضرع والاحتجاج بان دفع هذا المبلغ سيضع غرناطة في حالة من الفقر تسمح لابن عباد بالاستيلاء عليها في غير عناء .

وأضاف الملك الزيري لألفونس السادس انه متى استولى ملك اشبيلية على غرناطة ، سيكون من القوة بحيث لا يرضى بالخضوع لسلطانه .

وبهذه الحجج التي ترينا ، ان كنا في حاجة الى مزيد من الادلة ، الى اية حالة بلغ ملوك المسلمين من الذل والهوان ، قبل الفونس ان يخفض مبلغ الضريبة ، كما يسميها عبدالله احتشاما ، بدلا من الجزية ، الى 25 الف دينار (9) .

ولكي يضمن عبد الله رضى الملك النصراني قرر ان يحتفل بهذه الصفقة الكبيرة ونصب خيمة كبيرة لهذه الغاية ملأها بأفخر الثياب والفرش وأجمل الأواني والتحف ليقدم كل ذلك الى الفونس ، عربونا على الولاء والصداقة ، ولكنه لما استدعاه الى الخيمة وأخذ يرقب ملامحه ليرى أثر الغبطة والسرور في نفسه لدى مشاهدته تلك التحف النادرة ، رأى بدلا من ذلك تعابير الاستهزاء والاستخفاف لانه اعتبر الهدية أقل من مقامه ! وللخروج من هذا المأزق المحرج ، قرر عبد الله من تلقاء نفسه رفع مبلغ الضريبة الى 30 الف دينار .

وبهذه المبادرات والمناورات التي يختلط فيها الوعد والوعيد حق لالفونس ان يعتبر خطته ناجحة تماما . ولما عاد ابن عمار الذي كان ينتظر ان يسلمه مفاتيح غرناطة ، ابلغه الملك النصراني في شيء من التذمر ان غرناطة في حالة من المناعة والحصانة تتناقض مع وصف وزير اشبيلية لها بالضعف .

ولما يئس ابن عباد من الاستيلاء على غرناطة بواسطة الفونس السادس ، قرر ان يلجأ الى مساعيه للصلح مع ملك غرناطة ، فوقع الجانبان اتفاقا حصل بموجبه صاحب اشبيلية على معقل اسطبة (10) المهم والذي يقع غير بعيد من اشبيلية ، في مقابل حصول ملك غرناطة على قلعة اسطلير (11) .

ولكن هذا الاتفاق الذي نزع شوكة في جنب ملك غرناطة وحل مشكلة كانت تقلق صاحب اشبيلية ، لم يضع حدا لمطامع المعتمد ولا لمحاولاته لاستعمال ضغوط ألفونس في مقابل المال ضد الملك الزيري .

---

9 ـ المذكرات (321/2) .

10 ـ Estepa بالاسبانية .

11 ـ هي قلعة يَحْصُب(Alcala la real) التي تحمل أيضا اسم قلعة بني سعيد ، راجع مقدمتي لكتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص5 هامش1) والمراجع التي أحلت اليها .

ـ كاسترو(12) ومارتش(13) معقلين يشرفان على جيان التي تحتها اشبيلية ، كما ذكرنا ، ومدينة جيان بدون هذين الحصنين مدينة سهلة يسير لأي جيش يزحف عليها ، وكذلك الح ابن عمار على الفونس ليستعمل نفوذه لدى عبدالله للحصول على الحصنين ، ووعده بالمال في مقابل مساعيه .

ولـذلك مارس الفـونس ضغطـاً قويا علـى عبداللـه لكي يتنـازل علـى الحصنين ، ووعده بحصن المطمر(14) الذي كان في يد ابن النون ، ويقع على حدود مملكة غرناطة .

عبثـا حاول عبداللـه مقاومـة ضغــوط الملك النصرانــي والتخلص من الحاحه ، فقد انتهى الامر بتـوقيع اتفـاق تنـازل ملك غرناطـة بموجبـه علـى الحصنين ، وكذلك تضمن نفس الاتفـاق مادة تنص علـى ان يدفـع عبداللـه لألفونس السادس ضريبة سنوية مقدارها عشرة آلاف دينار .

وفي سياق الحديث عن هذا الاتفاق الذي لم يكن غريبا بين الاتفاقات التي كان يعقدها ملوك الطوائف مع ألفونس ، يعترف عبدالله الصنهاجـي في سذاجة مؤثرة قائلا : « قَبِلْنا قوله ورأينا اعطاء عشرة آلاف في العام ، ندفع بها مضرة ، خير من هلاك المسلمين وفساد البـلاد ، ان لم تكن بنـا قدرة علـى ملاقاته ومكابرته .

وهكذا ظل ابن عمار يقتطع من مملكة غرناطة قطعة فقطعة ، بعـد ما فشلت خططه في ضمها الى مملكة اشبيلية ، عن طريق شراء الفونس بالمال .

***

كانت امارة مرسية في حوزة زهير الصقلبي ثم أتت بعده الـى ابـي بكر احمد بن اسحاق بن طاهر ، ثم الى ابنه ابي عبد الرحمن بن طاهـر ، وهـذه الامارة هي التي اتجهت اليها انظار ابن عمار بعد ما حاول وجهه عن غرناطة .

---

12 ـ Castro بالاسبانية ، احدى القواعد التابعة لغرناطة حاليا راجع :

Dozy , recherches (i - 311 - 313).

13 ـ لم تسعفنا المراجع التي بين أيدينا للتعرف على هذا الحصن .

14 ـ مذكرات عبدالله (322/2) .

وفي سفره لزيارة كونت برشلونة ، ريمون بيرينجر (Reynond berenger) توقف ابن عمار في مرسية واجتمع بعدد من اعيانها من الساخطين على ابن طاهر او من هم على استعداد لخيانته فعقد معهم صداقات وبذل أموالا (15) .

وفي غضون هذه الاقامة ، عرف ابن عمار ضعف جيش الامارة وقلة وسائل الدفاع التي يملكها صاحب مرسية ، ابن طاهر ، ولما اجتمع بكونت برشلونة عرض عليه عشرة آلاف دينار في مقابل مساعدته العسكرية للاستيلاء على الامارة . ولضمان توفير مال الصفقة ، قدم ابن عمار رهينة ذات بال ، وهو رشيد بن المعتمد نفسه . .

ولما كتب ابن عمار الى المعتمد يخبره بالحلف الذي ابرمه مع صاحب برشلونة ، نسي ان يبلغه انه وضع ابنه رهينة في يد النصراني .

وكذلك زحفت قوات كونت برشلونة على مرسية واستولى ابن عمار على المدينة في سنة 474 هـ(16) . ولكنه لما طالبه بالمبلغ المتفق عليه ، أسقط في يده ، لانه لم يكن قد تلقى المال من المعتمد ، الامر الذي اعتقد معه الكونت ان الوزير الماكر قد خدعه ، فلم يَرَ بدّا من اعتقاله مع رشيد بن المعتمد . ولما حاولت قوات اشبيلية تخليصهما ، شتتها ريمون بيرنجير الثاني بدون صعوبة .
وبعد مفاوضات اقنع فيها ابن عمار صاحبه بحسن نيته ، اطلق سراحه وسار للقاء المعتمد الذي كان في جيان ، ليخبره بنتيجة مناورته ، وبالطبع ، فان المعتمد لم يسعه الا الموافقة على دفع عشرة الاف دينار ، في مقابل اطلاق سراح ابنه ، ولكن الكونت راح يطالبه الان بمبلغ ثلاثين الف دينار .

ونظرا لأن ابن عباد لم يتمكن من جمع هذا المبلغ ، فقد عمد الى ضرب كمية من النقود المزيفة، مزجها بنسب معتبرة من معادن غير الذهب المتفق عليه ، ودفع المبلغ المطلوب ، وقد كان من حسن حظه ان النصراني لم ينتبه الى هذه الخدعة الا بعد ان أطلق سراح رشيد بن عباد .

وبعد ما صفى الامر في مرسية لابن عباد ، ولى وزيره ابن عمار ، أميراً

---

15 ـ في رواية ان اهل مرسية هم الذين استغاثوا بالمعتمد ، فارسل اليهم وزيره ، ابن عمار .
16 ـ اعتمدنا رواية ابن الابار ، وفي رواية أخرى ، في سنة 471 هـ .

عليها واخذ الاخير يباشر حكمها باسمه دون ان يذكر اسم المعتمد في توقيعه ، الامر الذي اعتبره صاحب اشبيلية ، بحق ثورة ، على حكمه وأحسن بهذا العمل وكأنه طعنة من يد رجل وثق به مدة خمس وعشرين سنة ، على ان ابن عمار لم يكتف بالثورة على سلطة اشبيلية ، بل بلغ به الامر ان هجا المعتمد بقصيدة طعن فيها في شرفه ، وهو أمر لم يكن يغفره له هذا الامير الذي يعرف قيمة الشعر والهجاء لانه هو أيضا شاعر .

ولما ثار ابن رشيق احد القوام على ابن عمار واستولى على مرسية هرب ابن عمار والتجأ الى الفونس السادس ، آملا ان يساعده على استرجاع امارته الزائلة ، ولكن ابن رشيق كان قد سبقه الى حظوته بالهدايا والاموال ، ولذلك ، فقد اكتفى الملك النصراني بالرد على ابن عمار بان القصة كلها لا تعدو قصة سارق سرقة ثان ، وسرق الثاني ـ سارق ثالث(17) .

وعندما يئس من مساعدة الفونس ، دخل ابن عمار في خدمة المقتدر بن ذي النون ، صاحب سرقسطة ، ثم خدمة اخيه ، أمير لارده ، ولما حاول الاستيلاء على حصن منيع كان في يد بني سهل لحساب ملك سرقسطة ، وقع في الاسر في أيديهم وعرضوه للبيع بطريقةالمزايدة ، فاشتراه ولي نعمته السابق ، المعتمد ، الذي دفع مبلغا اكبر مما عرضه غيره وأخذه لينتقم منه فقتله صبرا بيده ، كما ذكرنا (18) و(19) .

وبعد اختفاء ابن عمار ، هذا العبقري الذي سخر موارد ذكائه لخدمة اغراض ابن عباد التوسعية ، في المرحلة الاولى ، ثم لخدمة اغراضه الشخصية في المرحلة الثانية زالت العقبة الاساسية التي كانت تعترض طريق التفاهم والوئام بين صاحب اشبيلية وعبد الله الصنهاجي ، والتفاهم الذي قام بينهما بعد ذلك ختمه . الطرفان باتفاق تبادلا فيه الترضيات ، على أساس المعارضة في

---

17 ـ قارن بشأن هذه الاحداث وعن ابن طاهر ، صاحب مرسية ، الحلة السيراء (116/2 وما بعدها) المغرب (247/2 - 247) القلائد (ص256) أعمال الاعلام (ص160) المعجب (ص122) .

18 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (181/4) .

19 ـ نفس المصدر .

بعض أطراف مملكتيهما ، وهذا الاتفاق لم يلبث ان تحولَ الى قاعدة للامن والسلام ، ثم الى تبادل المشورة والمساعدة بقصد التغلب علـى ضعفهمـا ، ولمحاولة التخلص من وصاية ألفونس السادس(20) .

والاتفاق مع ابن عباد ، ثم التفاهم مع ألفونس السادس ، على أساس دفع ضريبة سنوية سيضمن نفسا جديدا لمملكة غرناطة ، وفترة من السلم مع الدول المجاورة ، استغلها عبدالله لاصلاح شؤ ون البلد الـداخلية وللعنـاية بشؤ ون الرعية ، وخصوصا الاسترجاع لسلطته المتفتتة على الاقاليم .

فعلى الرغم من ان عبد الله بن بلكين ، كان هو الملك المتوج ، فقد كان صاحب الامر والنهي والحاكم الحقيقي لمملكة غرناطة ، وزير من قبيلة صنهاجة ، يدعى سماجة ، وكان بمثابة الوصي على العرش ، نظرا لصغر سن عبدالله .

كان سماجة فيما يقـول ، ابـن الخـطيب ، « حازمـا شديد السطـوة ، مرهوب العقاب ، جواداً شجاعا فاضلا »(21) .

وقد اشتهر سماجة ، خصوصا بالتشدد في تطبيق احكام الدين الحنيف ، فمنع تناول الخمر وجعله جريمة خطيرة يعاقب مرتكبها بالقتل ، وقد فاجأ ذات يوم جماعة من الاعيان والشباب وهم يتناولون الخمر ويمرحون ، فأسقط في أيديهم وأيقنوا بالتهلكة ، وهذه الحادثة سجلها أحد الحاضـرين من الشعـراء بالابيات التالية :

بينمـا نحـن بالمصلـى نسقى　　وجنـاح العشـي فيه جنوح
اذ أتانـا سماجـة يتلألا　　ردّ في الشـرق من تحليه بوح
فطفقنـا نقـول بعض لبعض　　أغبـوق شربنـا أم صبوح

---

20 ـ مذكرات عبدالله (325/2) .
21 ـ اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس (ص269) .

ومما يدل على قيمة سماجة وعبقريته السياسية انه هو الذي كان خلال سنوات عديدة يدبر أمور الدولة ويواجه مؤ امرات ابن عمار ومناورات الفونس السادس ومطامعه ، ولا سيما ، بعد بناء حصن بليلش الذي كان ابن عباد يهدد منه مدينة غرناطة نفسها وفحصها بصفة مباشرة .

ولكن الرجل السياسي المحنك لم يشأ ان يعترف بان الملك الشرعي قد كبر ، ويريد مباشرة حكم المملكة بنفسه . ولكي يقيم من نفسه في غرناطة حاجبا دائما ، على طريقة المنصور بن أبي عامر ، راح سماجة يقوم بمناورات لتدعيم مركزه وللاحتفاظ بالسلطة في يده بحيث يكون واسطة بين الملك والرعية ، ومما زاد من خطورة ميول سماجة ، ان غيره من كبار الوزراء وكبار الموظفين ، كانوا يقلدونه في مطامحه ، بحيث كان كل واحد منهم يسعى الى تجميع أكثر ما يمكن من السلطة في منطقة اختصاصه .

ولما أدرك عبدالله ان السلطة تفتت تدريجيا وان الحكم يوشك ان يفلت من يده ، سارع الى عزل سماجة الذي اعتبره المسؤ ول الرئيسي عن تدهور الوضع السياسي الداخلي في المملكة ، فأخذ زمام الامور ، بيده ، ثم عمل على تحديد مناطق النفوذ واختصاصات الوزراء وكبار موظفي الدولة الذين سمح لهم بالاتصال به شخصيا مباشرة لاستشارته فيما يعرض لهم من القضايا .

وفي نفس الوقت ، قام عبد الله بعزل كثير من الولاة والعمال على الاقاليم ، ممن كانوا موالين لسماجة ، او من عملائه ، بعد خروجه من الوزارة ، وعين مكانهم شخصيات جديدة(22) .

وأما الوزير سماجة ، فبعد ما سمح له الملك بالاحتفاظ بامواله وممتلكاته ، بل وأمره بالتردد على مجلسه ايضا ، حتى يضمن عدم قيامه بأي نشاط ثوري ، أمره في مرحلة تالية ، بالخروج من غرناطة والتوجه الى المرية للاقامة هنالك .

وفي المرية أحسن ابن صمادح(23) ، صاحبها ، استقباله رعاية للملك

---

22 ـ مذكرات عبدالله (229/2) .

23 ـ هو محمد بن معن بن محمد بن صمادح التجيني (المعتصم) صاحب المرية وبجانة وغيرهما . ولي الامارة بعد وفاة ابيه في سنة 443 هـ ، وكان اديبا عالما بايام العرب =

الصنهاجي وكانت تربط بلده بغرناطة روابط تقليدية حيث كان يعتقد ان ابعاد الوزير كان اجراء مؤقتا ولن يلبث ان يعود الى منصبه .

على ان سماجة لم يلق السلاح ازاء اللين الذي عامله به عبد الله الصنهاجي ، بل وجد في الخطوة التي خصه بها ابن صمادح مشجعاً ، ومن اقامته في المرية فرصة لكي يغذي مطامح هذا الامير ويحثه على العمل من أجل تحقيق المخطط الذي فشل فيه في عهد باديس ووزيره ، يوسف بن نغرالة ، للاستيلاء على غرناطة .

وهذا الاغراء لم يلبث ان وجد صدى الاستحسان في نفس ابن صمادح الذي قدر ان الوزير السابق وأعوانه من الموظفين والولاة المخلوعين وغيرهم ، سيوفرون قاعدة لسلطانه على غرناطة ، متى قرر القفز على مملكة عبدالله .

ولما بلغت اخبار مناورات سماجة الى عبدالله الذي كان قد ضايقه من قبل رفض ابن صمادح التنازل له على بعض القرى الواقعة على الحدود بين البلدين ، سارع الى اعادة تحسين بعض القلاع والحصون الواقعة قرب المرية ، ثم وضع حاميات قوية فيها ، بحيث تشكل خطا دفاعيا قويا لمملكة غرناطة ، وتوفر في نفس الوقت قواعد مهمة لتهديد مملكة ابن صمادح .

وعندما حاول ابن صمادح الذي ضاق ذرعا بحصار غرناطة لبلده التخلص من هذا التهديد دخل في سلسلة من المعارك مع عبدالله خسرها كلها وترك عددا من كبار ضباطه اسرى في يد ملك غرناطة(24) .

وبعدما أثبت تفوق إسلحته على جاره وتيقن أنه أصبح في حالة ضعف لا يخشى معها جانبه ، جنح عبدالله الى السلم وقرر ان يتركه وشأنه ، بعدما يعترف بلسطان غرناطة ويعلن ولاءه لملكها .

= واخبارهم ويقرب الشعراء ويواصلهم . مات في سنة 484 هـ اثناء احتلال يوسف بن تاشفين للاندلس ، راجع سيرته في الحلة السيراء ، (2/78 - 88) البيان (3/167، 173) القلائد (ص 47) وفيات الاعيان (1/81 - 84) الذخيرة (1/2/247) اعمال الاعلام (ص220) المطرب لابن دحية (ص34) نفح الطيب (3/366، 368، 395، 411، 413) .

24 ـ مذكرات عبدالله (2/330) .

واثر ذلك عقد الطرفان معاهدة صداقة كانت بدون شك في مصلحة كل منهما .

ولكن استعادة عبدالله الصنهاجي لزمام الامور في الداخل وقضاءه على الثورات والفتن التي كانت تنهش مملكته واستتباب السلم بينه وبين جيرانه ، أمور لم تحظ برضى الجميع . وقد كان في مقدمة الساخطين على هذه التطورات شقيق عبدالله ، تميم بن بلكين ، امير مالقة ، الذي كانت تداعبه الاحلام في الجلوس على عرش غرناطة طالما كان أخوه ضعيفا مهددا من الخارج ،ومملكته مضطربة .

ولكي يحول دون نمو قوة غرناطة ، لجأ الى العمل المباشر فارسل قطعا من اسطوله لضرب المنكب وشاط(25) ثم اعقب هذه الغارة البحرية بتوجيه قوة صغيرة من الخيالة لتتوغل في الاراضي المجاورة للمدينتين .

على ان تميم لم يحسب حسابا دقيقا لجميع الظروف قبل ان يقوم بهذه العمليات . فان عبدالله استغل فرصة انشغال ألفونس السادس بمحاصرة اشبيلية ليرغم المعتمد على دفع المتأخر من ضريبته السنوية(26) ضمن لنفسه حرية التصرف ، بعيدا عن كل تدخل أجنبي في الشؤون العائلية ، فزحف بجيشه على مالقة نفسها لكي يعيد أخاه الى صوابه .

وفي الطريق ، فوجىء ملك غرناطة بالسهولة التي استسلمت بها الحصون الامامية التي تحمي مالقة ، بحيث انه لم يكد يتحرك في داخل حدود الامارة حتى استسلم له ما كان على طريقه منها بحامياتها وبدون مقاومة .

---

25 ـ Jete ، تقع على مسافة ثمان كيلومترات شمالي المنكب ، هي ميناء صغير ذكره الادريسي (ص199) .

26 ـ ذكر دوزي ان الفونس قام بهذه الحملة في سنة 1082 م ، وبذلك يمكننا ان نؤرخ لهذه العملية التي أوردها عبدالله بدون تاريخ في مذكراته (2/330 - 331) . وهذا التاريخ يوافق سنة475 بالتقويم الهجري ، راجع الى جانب المصدر المذكور لدوزي ، Menedez (المصدر المذكور ، ص224 - 225) وكذلك الترجمة الفرنسية للمذكرات (ص58 هامش 50) .

على انه لما وصل الى الحمة(27) التي تقع في الجنوب الغربي من غرناطة ، في الطريق الى مالقة ، علم ان قوات مالقة قد تجمعت لمواجهته في صخرة دومس(28) ، فاتجه الى هذا الحصن الذي استولى عليه واحتله بدون كبير عناء ، ثم زحف على حصن آخر يشرف على طريق غرناطة ـ مالقة ، وهو حصن اشتنير(29) فاستولى عليه ايضا ثم نهض الى مرية بلش(30) ، ومن هناك اتجه الى حصن مونت ماس(31) المنيع والذي لا يمكن احتلال مالقة بدون السيطرة عليه .

وعلى عكس الحصون السابقة ، فقدوجد عبدالله في هذا الحصن مقاومة لم يكن يتوقعها ، فان سكانه رفضوا الاستسلام ، وذلك لقربه من مالقة ، ولخوفهم من انتقام تميم منهم ، متى تم الصلح بين الاخوين العدوين مؤقتا ، وكذلك اكتفى عبدالله بتشديد الحراسة العسكرية على الحصن ثم عاد ادراجه الى غرناطة ليترك لأخيه مهلة للتفكير .

وفي الطريق الى عاصمته ، تلقى عبدالله أخبار استسلام عدد آخر من الحصون التابعة لمالقة ، بحيث بلغ عدد الحصون التي فقدها تميم في هذه الحملة عشرين حصنا ، بسكانها وحامياتها وأسلحتها ومخازنها ـ وهو أمر من شأنه ، الى جانب قيمته السياسية ، ان يدعم قوة ملك صنهاجة العسكرية في الجولة التالية .

وبعد ذلك جاء دور حصن مونت ماس الذي استسلم هو الآخر ، بعد مقاومة رمزية ، وهدمه عبدالله .

وكذلك انفتح الطريق أمام غرناطة الآن الى مالقة ، وقد سار اليها على رأس قوة صغيرة وواصل سيره بدون عناء حتى أبواب مالقة . وقد كانت هذه المسيرة فيما يبدو ، استعراضاً عسكريا يقصد منه التهديد والتخويف أكثر مما كان حركة بقصد غزو المدينة .

---

27 ـ ذكرها الادريسي (ص199 - 200) .

28 ـ تعرف ليفي بروفنسال ، استنادا على بعض المصادر على دومس فيDymas من أراضي مالقة . راجع ترجمة المذكرات (ص59 هامش54) .

29 ـ كذا ورد اسم هذا الحصن في مذكرات عبدالله ، والمصادر التي بين يدي لم تسعفني بالتعرف عليه .

30 ـ ذكره الادريسي (ص199) وقال انه صغير القدر ويقع على ضفة البحر .

31 ـ يقع هذا الحصن في شمال شرقي مالقة .

ولكن عبدالله أخطأ التقدير حين ظن انه سيهزم أخاه قبل ان يدخل في معركة معه ، وكذلك كانت مفاجأته كبيرة حين وجد ان أخاه يحتفظ بجيشه كاملا وان الشجاعة والجرأة لا تنقص رجاله .

وبعدما دخل الطرفان المعركة ، كاد جيش تميم ان يلحق هزيمة بجيش غرناطة . على ان ثبات عبدالله وتصميمه ضمن له النصر الى النهاية .

وعلى اثر ذلك ، وجه تميم الى أخيه وفدا ليطلب اليه العفو ويعتذر عن أخطائه . وقد قبل عبدالله عذره وعفا عنه ، بل وأعاد اليه بعض الحصون ، ولو أنه حرمه من بعض الحصون التي كان يخشى ان يستعملها اذا خطر له القيام بثورة أخرى . .

كما كان نجاح عبدالله في تسوية مشاكله الداخلية والخارجية مثاراً لمخاوف تميم بن بلكين فقد وجد كباب بن تميت أحد عبيد عبدالله وقائده على حصنين يسمى أحدهما أرشذونة والآخر أنتقيرة(32) في نجاح عبد الله اخضاع أخيه سببا لقلقه ، حيث كان مقتنعا بان عبدالله سيتحول اليه الآن لتسوية مشاكله معه (وقد كان لا يعترف بسلطة غرناطة الا اسميا) فبينما كان عبدالله منهمكا في عمليات اخضاع حصون مالقة ، كان هذا العبد يسعى مثل النملة ، لجمع المؤن بقهر السكان ، واضطهادهم استعداداً للحرب التي يتوقعها .

ومن الامور التي كان يأخذه عليها عبدالله ان كبابا هذا كان لا يفتأ بشن الغارة تلو الغارة على اراضي اشبيلية التي يرتبط صاحبها بغرناطة بمعاهدة سلم وصداقة كما ذكرنا .

ولما احتج المعتمد بن عباد ضد هذه الاعتداءات المتكررة ، رد عبدالله على رسوله بأنه سيقوم باخضاع كباب بالقوة ، اذا التزم صاحب اشبيلية بعدم مساعدته وبعدم السماح له بالدخول الى ارضه .

ولما رد ابن عباد بالايجاب ، سارع ملك غرناطة باصدار الامر الى كباب بان يتنازل عن الحصنين(33) .

وكما كان يتوقع ، فان كبابا لم ير مخرجاً من المأزق الذي وضع فيه نفسه الا

---

32 ـ حصن يقع على مسافة 35 ميلا من مالقة ، ذكره الادريسي (ص 204) مع ارشذونة ووصفهما بانهما كانتا من الحواضر ثم أخلتهما الفتن في زمان الثورة بالاندلس .

33 ـ مذكرات عبدالله (2/334-335) .

بالكتابة الى ابن عباد ليعرض عليه ان يتنازل له عن الحصنين ، ولكن ابن عباد ابى عليه ولاؤه للمعاهدة الا ان يبعث برسالة كباب الى الملك الصنهاجي ويحثه على العمل لقمع ثورته .

وفي نفس الوقت ، كتب المعتمد الى كباب يحثه على تسليم الحصنين الى عبدالله ويعده بان يتوسط لدى الاخير للحصول له على الأمان ، والعفو ، ولكن كباب أصر على موقفه وفضل الحرب ضد غرناطة على الاستسلام .

وقبل ان يزحف على كباب ، كان على عبدالله ان يخضع شخصية اخرى اهم وأخطر منه شأنا ، وهو ابن تاقنوت ، صاحب (والي) غرناطة الذي كان متحالفا مع كباب ، هو وأخوه قائد حصن جريشة(34) .

وبعد ما استولى على هذا الحصن الذي حاصره مدة ستة أشهر ، قبض على الاخوين واستشار الفقهاء بشأنهما ، وافتوا بقتلهما ، قتلا في ساحة عمومية ، ثم سار الى كباب على رأس جيشه وحاصره مدة حتى أحس بالضعف ويئس من كل مساعدة خارجية ، فطلب الأمان ، فمنح له واستسلم ، وقد عفا عنه عبدالله ، بل واستخدمه في جيشه ، النظامي بعد ذلك(35) .

***

سقطت طليطلة عاصمة القوط سابقا في يد الفونس السادس ، كما ذكرنا ، في 27 محرم سنة 478 هـ (25 مايو سنة 1085 م)(36) وبذلك عادت هذه المدينة العظيمة الى النصرانية بعد ان حكمها المسلمون 372 سنة ، واتخذها ملك قشتالة عاصمة لمملكته منذ ذلك التاريخ وعادت الكنيسة اليها لتركب أجراسا في صوامع مساجدها .

وعلى الرغم من اتفاق ابن عمار ـ الفونس الذي استعرضنا محتواه من قبل ، كان ينطوي على جرثومة الاحداث الخطيرة التي عرفها الاندلس بعد ذلك ، بسبب الترضيات المهمة التي قدمها المعتمد للملك النصراني ، فان سقوط طليطلة كان له وقع سيء في نفس ملك اشبيلية ، خصوصا وان الفونس لم يكتف

34 ـ من حصون جيان ، لم نتمكن من التعرف عليه .

35 ـ نفس المصدر .

36 ـ هذا هو تاريخ الشائع بين الرواة ، ولكن ابن خلكان يذكر في وفيات الاعيان (27/5) ان طليطلة سقطت يوم الثلاثاء ، مستهل صفر 478 هـ .

بالاستيلاء على المدينة ، بل بسط سلطانه أيضا على جميع الاراضي الواقعة على نهر تاجة ، وعلى قلاع مدريد ، ووادي الحجارة وقلعة رباح ، وأصبح يهدد قرطبة وبطليوس(37) .

وأما بقية الطوائف ، فبدلا من ان يتعظ كل منهم بهذا الحدث الجلل وبدلا من ان يضموا جهودهم ويقوموا بعمل يجنبهم مصير القادر الاحمق ، سارع معظمهم الى ارسال السفراء لتهنئة الملك النصراني على فتحه العظيم ، وليقدموا اليه أفخر الهدايا بهذه المناسبة . بل ان احد هؤلاء الملوك أبى الا ان يحضر بشخصه الى طليطلة ليهنىء ألفونس ويغمره بالهدايا . ولكي يعبر له الفونس السادس ببلاغة عن مدى احتقاره له ولهداياه ، قدم اليه في مقابلها هدية ، عبارة عن قرد . .

ولكن الملك المتزلف رفض ان يدرك سخرية الفونس فقبل هديته بامتنا ، واعتزاز(38) واما المعتمد بن عباد ، فقد أدرك الآن انه لا توجد ، بعد سقوط طليطلة واسطة تذكر بينه وبين أهداف الفونس السادس ، وذلك على الرغم من ان الاتفاق لا يزال قائما بينهما شكليا . ولكي يرفع الغموض الذي يسود الموقف ، كتب الى الملك النصراني ينذره بان اي توسع منه خارج أراضي طليطلة ، سيعتبر خرقا للمعاهدة . . .

ولكن الفونس أجابه بلهجة لا يمكن ان يفوت المعتمد ما تنطوي عليه من السخرية بانه يملك طليطلة بالاشتراك مع « صديقه » الامير يحيى القادر (بن ذي النون) .

ولكي يهوّن من وقع هذه الضربة في نفس المعتمد ، وجه اليه خمسمائة فارس من ذوي الدروع الحديدية لمساعدته ، او بالاحرى لاغرائه ، على الزحف على غرناطة كأنه يذكره بمضمون الاتفاق بينهما باطلاق يده على طليطلة ، في مقابل اطلاق يد المعتمد على غرناطة .

ولكن سياسة المعتمد تجاه غرناطة قد تغيرت ، كما ذكرنا . فهو يرتبط بمعاهدة صداقة مع المملكة الاسلامية الوحيدة التي لا تزال تتمتع بالاستقلال وتملك شيئا من القوة ، ولذلك ، فبدلا من ان يستقبل هؤلاء الفرسان بسواعد مفتوحة ويستغلهم لتنفيذ مطامعه القديمة ، ويدخل بذلك في لعبة جديدة مع

---

37 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/196) .

الفونس رد اليه جيشه وزادت شكوكه في حليفة النصراني .

والتقارب الذي وقع بين عبدالله والمعتمد ، على الرغم من انه وليد الظروف وأنه جاء في وقت متأخر ، لم يكن ليروق الفونس السادس الذي أعلن صراحة انه ينوي فتح جميع الممالك الاسلامية(39) .

ولما طلب الفونس الى المعتمد ان يسلم اليه بعض الحصون التابعة لمملكة طليطلة والتي كانت في يده ورفض طلبه ، أعتبر الملك النصراني هذا الرفض سببا موجبا للحرب ، فأعلن الحرب عليه وعلى بقية ملوك المسلمين(40) .

وقد اتجه تهديد الفونس في المكان الاول ، الى سرقسطة التي انهكتها الحرب وزاد ضعفها السياسي والعسكري ، خصوصا ، بعد وفاة أميرها العظيم المؤتمن ، في سنة 477 هـ (1085 م) ، وذلك الملك الذي كان مناط آمال المسلمين ، لا في مملكته فقط ، بل في الاندلس بأسرها .

ولكي يتمكن من تسديد الضربات التي كان يعتقد انها ستكون قاضية ، والتي أعدها طويلا ضد الممالك الاسلامية ، توج الفونس السادس انتصاراته العسكرية بمحالفة سياسية وعسكرية خطيرة الشأن مع سانشو الاول ، ملك أراجون ونفارا (نبره) ، ثم انضم اليهما الكونت ريمون بيرنجير ، كونت برشلونة ، وجمعوا جيشا ضخما من ليون وجليقة .

وبعد ما انتزعوا قورية(41) من بني الافطس (اصحاب سرقسطة) ،

---

39 ـ نفس المصدر (ص65) .

40 ـ نفس المصدر .

41 ـ وصف الادريسي (ص183) قورية بانها ذات سور منيع ، أزلية البناء ، واسعة الفناء وأنها من أحصن المعاقل وان لها بواد شريفة وضياع « طيبة عجيبة » وقد كانت قورية في التقسيم الاداري الاندلسي ، من مدن كورة لاردة ، وكانت قبل ان يفتحها موسى بن نصير تسمى cauriam . وقد وقعت قبل في يد اردونيو الاول ملك ليون في سنة 246 هـ (860 م) ، ولكن المسلمين استردوها . وبعد ما استولى عليها الفونس ، حررها المرابطون ، وظلت معقلا هاما في أيام الموحدين الى ان سقطت في يد النصارى نهائيا في سنة 597 هـ (1200 م) راجع أيضا الرازي ، صفة الاندلس (ص86) الحلة السيراء (2/352 - 353) معجم البلدان (4/413) الروض المعطار للحميري (ص 165) .

امتد زحفهم حتى سهول اشبيلية ، فاحرقوا القرى المحيطة بها وعاثوا فسادا وتخريبا في الارض ثم سارت قوة بقيادة الفونس نفسه ، لمحاصرة سرقسطة التي تعرضت لاقسى انواع العنف بالحرق والقتل والنهب .

على ان ضغوط الفوس القوية كانت تتجه خصوصا الى اشبيلية ، ومن ورائها غرناطة اللتين يحاول ملكاهما شراء فسحة من الوقت قصيرة للتنفس ، وبتسليم الحصون التي يطلب اليهما تسليمها وبالقبول بدفع جزية سنوية .

وموضع هذه الجزية او بعبارة أدق ، العجز عن دفعها ، سيكون سببا لتطورات خطيرة الشأن في حياة الاندلس الاسلامية .

فقد وجه الفونس السادس بعثة من السفراء الى المعتمد ليستخلص منه الجزية (التي يسمونها الضريبة احتشاما) المستحقة على سنة 478 هـ ، ولكنه لم ينس ان يرفق بهذه البعثة يهوديا اسمه أشاليب يعمل خبيرا في شؤ ون النقد ليمحص النقود التي تقدم لكي يتجنب ما وقع من قبل من دفع الجزية بعملة مزيفة .

ويبدو ان اليهودي لم يكن راضيا عن المال العين الذي قدمه اليه المعتمد ، ولذلك طلب اليه ان يدفع مقابل الجزية بالسفن الحربية بدلا من المال .

وقد أثار هذا الطلب غضب المعتمد واعتبره اهانة وضرب اليهودي بمحبره فقتله ثم صلبه (42) وأما رئيس الوفد ، البرهانس (43) فقد سارع بالعودة الى سيده وهو ينذر ويتوعد بالانتقام .

---

42 ـ وفي رواية أخرى ان بعض العبيد الصقالبة تسللوا الى خيمة اليهودي وقتلوه ، هو والنصارى الذين كانوا معه ، راجع تفصيل هذه السفارة في الحلل الموشية (ص-26 25) نفح الطيب (246/4) الكامل (142/10 - 143) وفيات الاعيان (28/5) الاستقصا (113/2) .

43 ـ هكذا تسميه الرواية الاسلامية وهو : Alver fassez الذي كان من أكبر قواد الفونس ورجال دولته .

وتحت وطأة التهديد الذي كان المعتمد يدرك انه ليس مجرد كلمات جوفاء ، استدعى ابنه ، الرشيد ، الذي كان قد ولاه العهد ، وابلغه انه قرر ان يستدعي المرابطين للعبور الى الاندلس ، حيث أنه لا طاقة له على مقاومة الفونس عسكريا .

ولما لفت الرشيد نظر والده الى ما ينطوي عليه استدعاء المرابطين الى الاندلس من الخطر في ان يستولوا على البلد ، أجابه المعتمد بكلمته المشهورة :

« والله لا يسمع عني ابدا انني اعددت للاندلس دار كفر ولا انني تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام ، مثلما قامت على غيري . وحرز الجمال عندي خير من حرز الخنازير »(44) .

وفي هذه المرحلة ، بعد سقوط طليطلة، ساد الرعب في قلوب المسلمين وزاد شعور الملوك بالخطر المحدق بهم وبعجزهم التام عن مواجهة الاحداث ، وقد كان البديل عن الخضوع للنصارى في نظر البعض ، هو الهجرة الى المغرب ، على ان أملاً ظلّ يداعب الكثيرين ، وهو ان يأتي الفرج من المغرب ، نفسه ، فان ميلاد قوة في الصحراء كانت تزحف تدريجيا نحو الشاطىء حتى أصبحت تواجه الاندلس ، كان حدثا تاريخيا لم يغفل أهل الاندلس عن متابعته باليقظة والاهتمام . ومما يزيد من قيمة هذه القوة انها تنبثق عن الالتزام بالاسلام ، وبالتالي ، فهي لا يمكنها ان تسمح بمحو الاسلام من شبه جزيرة الاندلس .

صحيح ان الاريستوقراطية والمثقفين الذين يدورون في أفلاك الملوك ، كانوا يسخرون من هؤلاء الصحراويين الاجلاف الذين اشتهروا بالضراوة والتفشف ، بقدر ما اشتهروا بالشجاعة واحتقار متاع الدنيا ، وقد كان أخوف ما يخشاه الامراء والاثرياء هو ان يتجه المرابطون متى وصلوا الى الاندلس وتفتحت اعينهم عن مباهج الحضارة ، الى نهب القصور ودور المسلمين بدلا من محاربة المسيحيين .

---

44 ـ الحلل الموشية (ص8) .

ولكن ما الحيلة ؟ لا بد من المراهنة واختيار أهون الاخطار ، لأن خطر المسيحيين يزداد شدة يوما بعد يوم .

وكذلك كان الفقهاء ورجال الدين في مجموعهم من رأي المعتمد ويميلون الى دعوة المرابطين للعبور الى الاندلس(45) .

ومن البوادر التي تشير الى تقبل الرأي العام للفكرة التي نضجت في أذهان بعض الامراء ، ان تميم بن بلكين قد التجأ اثناء النزاع الذي قام بينه وبين اخيه ، والذي ذكرنا اخباره ، الى المرابطين وطلب مساعدتهم له للاستيلاء على مملكة غرناطة .

ومهما يكن من امر فان المعتمد قرر تنفيذ خطته للاستنجاد بالمرابطين ، فاتصل بجارية ، ملك بطليوس ، المتوكل(46) ، وملك غرناطة ، عبدالله ، وتشاور معهما في الامر ورجاهما ان ينضما الى المسعى الذي ينوي القيام به ثم طلب الى كل منهما ان يبعث قاضي حضرته الى اشبيلية .

فبعث المتوكل قاضي بطليوس ، اسحاق بن مقانا(47) وأرسل عبدالله الصنهاجي أبا جعفر القليعي(48) قاضي غرناطة ، الى اشبيلية ، واجتمعا

---

45 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (199/4) .

46 ـ هو عمر بن محمد بن مسلمة التجيبي ، آخر ملوك بني الافطس تولى الملك عقب وفاة اخيه يحيى (المنصور) في سنة 473 هـ ، وكان قبل ذلك في عهد والده وليا على باير (evora) التي استقل بها عقب وفاة أبيه ، كان اديبا شاعرا ، اشتهرت بطليوس في عهده بابهة الملك وعظمة السلطان بحيث كانت في مرتبة اشبيلية ، قبض عليه وعلى والديه الافضل والعباس ، يوسف بن تاشفين وقتلهم يوم عيد الاضحى سنة 489هـ (1096م) راجع سيرته في الحلة السيراء (96/2 - 107) العبر (160/4) القلائد (ص 36) ، الرايات لابن سعيد (ص 29) اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس (ص 214) المغرب (364/1) صفة جزيرة الاندلس (ص 83) نفح الطيب (الفهرست) ، انظر أيضا مقالة بنو الافطس في دائرة المعارف الاسلامية .

47 ـ راجع نبذة عنه في نفح الطيب في سياق ترجمة المقري للمتوكل ابن الافطس (665/1) .

48 ـ سيأتي الحديث عنه أسفله .

بالقاضي ابي بكر ادهم(49) ، وانضاف اليهم الوزير ابو بكر بن زيدون (والد الشاعر) ثم سافر هذا الوفد حاملا معه رسالة من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين ونزل بالجزيرة الخضراء التي كان عليها يزيد بن المعتمد (الراضي) . ومن هناك أبحروا الى العدوة(50) واجتمعوا بيوسف مرة أخرى وجرت بين الفريقين مفاوضات بشأن مختلف الامور ، ومنها المكان الذي تنزل فيه قوات المرابطين في بر الاندلس ليكون قاعدة للعمليات العسكرية ، فاقترح ابن زيدون جبل طارق ولكن يوسف طالب بالجزيرة الخضراء(51) وقد اجابه الوزير ابن زيدون بعدم امكان ذلك ، فامسك يوسف .

وانطلاقا من هذه النقطة ، تقول الرواية ان يوسف كان يعامل المفاوضين الاندلسيين ببرود ويكتفي بردود مبهمة عن اسئلتهم ، بحيث انهم عادوا الى الاندلس وهم يجهلون القرار الذي سيتخذه أمير المسلمين ، فان يوسف لم يعد بالعبور الى الاندلس او بالمساعدة .

***

---

49 ـ قاضي الجماعة بقرطبة ، استقضاه المعتمد في سنة468 هـ ، وكان قد نظر قبل ذلك في احكام المظالم وشوور في الاحكام . توفي في سنة486 هـ . يمكن مراجعة نبذة عنه في الصلة لابن بشكوال (ص293) .

50 ـ وفي رواية أخرى ان المعتمد هو الذي سافر بنفسه للقاء ابن تاشفين ولكن المؤرخين الذين يرددون هذه الرواية اختلط عليهم هذا المسعى الاول بالرحلة التي قام بها ابن عباد في مرحلة تالية الى العدوة واجتمع خلالها بيوسف بن تاشفين . قارن روايات العبر (188/6) الحلل الموشية (ص28 - 29) وفيات الاعيان (114/7 - 115) الحلة السيراء أيضا تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي (199/4) واشباخ ، تاريخ الاندلس (ص 80 - 87) .

51 ـ كذا في الحلة السيراء (98/2 - 99) وعند غير ابن الابار . وفي الرواية الملك عبد الله الصنهاجي ان صاحب اشبيلية هو الذي عرض على يوسف ان يتنازل عن الجزيرة الخضراء . راجع المذكرات (338/2 - 339) .

الفصل الثاني

الطريق الى الزلاقة

استشار أمير المسلمين الفقهاء في أمر العبور الى الاندلس وأفتوا بان من واجبه ان يعبر لمقاتلة الكتلانيين ، ولكنهم أفتوا ايضا بانه اذا لم يتنازل له ابن عباد عن الجزيرة الخضراء التي يحتاج اليها لتكون قاعدة لعملياته ، فان من حقه ان يستولي عليها بالقوة .

وفي شهر ربيع الاول سنة 479 هـ (1086 م) وجه ابن تاشفين جيشا يتكون من 500 فارس بقيادة داود بن عيسى(1) الى الجزيرة الخضراء ونزل في ضواحي المدينة ، وبعد ذلك وجه داود انذارا الى الراضي ، (ابن المعتمد) يطلب اليه الجلاء عنها فورا(2) .

ان كل شيء يدل على ان نزول المرابطين في الجزيرة كان مفاجأة . فان الراضي اضطرب وحاول مفاوضتهم وعرض عليهم ان يحل مشكلة تموين الجيش ، ولكن بدون جدوى وعندئذ ، بعث الى والده برسالة مع حمامة يطلب اليه فيها ان يزوده بأوامره .

ولما تلقى المعتمد الرسالة أدرك انه لا يمكنه التراجع الآن وان عليه ان يمضي في هذه اللعبة الخطيرة حتى النهاية ، وتبعا لذلك ، أمر ابنه بان يسلم

---

1 ـ كان داود بن عيسى عاملا على سجلماسة ووادي درعة قبل ان يجتاز مضيق جبل طارق على رأس جيش المرابطين .

2 ـ مذكرات عبدالله .

الجزيرة الى المرابطين ويجلو عنها ويسير الى رندة .

وبعد ما أكمل داود تحصين المدينة ، لحق به يوسف بن تاشفين الى الجزيرة ، ثم سار الى اشبيلية ، حيث استقبله المعتمد مع كبار رجال دولته ، وقدم اليه كثيرا من الهدايا ، وهناك استدعى المعتمد جميع ملوك الطوائف للاجتماع بامير المسلمين ، فتوجهوا جميعا الى اشبيلية ، فيما عدا ابن صمادح الذي بعث ابنه مكانه ، معتذراً على عدم حضوره بنفسه ، لتقدم سنه ، ولعجزه عن السفر . ولكن ابن صمادح في الحقيقة انما كان يريد ، فيما يخبرنا عبدالله ، ان يتجنب الالتزام بشيء قبل ان يرى أي اتجاه تتخذه الحوادث .

وقد كان من بين الملوك الذين استجابوا وحضروا المؤتمر بانفسهم ، عبد الله الصنهاجي الذي يقول بشأنه في مذكراته .

« وبادرنا نحن الى الخروج وسررنا بذلك واعددنا ما استطعنا عليه للجهاد باموالنا ورجالنا ، وقدمنا الهدية الى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح . . . وظننا ان اقباله على الاندلس منة من الله عظمت لدينا ، لا سيما وخاصة من أجل القرابة(3) والذي شاع من خيرهم واقبالهم على الآخرة ، وحكمهم بالحق ، فنعمل انفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام ، فمن عاش منا كان عزيزا تحت ستر وحماية ، ومن مات كان شهيدا(4) .

ويمضي ملك غرناطة في مذكراته فيقول :

« ولقينا امير المسلمين في طريقه الى بطليوس بجريشة(5) ، ورأينا من اكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا فيه رغبة لو استطعنا ان نمنحه لحومنا فضلا عن أموالنا » .

سار جيش المرابطين ومعه جيش المعتمد وجيوش بقية ملوك الطوائف

---

3 ـ يشير الى كون المرابطين ينتمون الى صنهاجة ، مثل بني زيري .

4 ـ نفس المصدر .

5 ـ ذكرها الادريسي (ص175) وهي الآن من مقاطعة بطليوس ، وهي غير جريشة بمنطقة جيان .

التي وضعت تحت قيادة ملك اشبيلية ، في اتجاه بطليوس ، حيث انضم اليهم جيش المتوكل بن الافطس ، ثم اتجه الجميع نحو طليطلة حيث كان النصارى في انتظارهم .

فان الفونس السادس الذي كان محاصرا لسرقسطة لدى نزول المرابطين ، عرض على صاحبها المستعين ، لما علم بمقدمهم ، ان يفك الحصار على مدينته في مقابل مبلغ من المال ، ولكن ملك سرقسطة الذي كان على علم بمقدم المرابطين ، رفض ان يمنحه درهما واحدا .

وكذلك اضطر الفونس للتراجع الى طليطلة . وبعد ما جمع قواده ومختلف تشكيلات جيشه الذي شارك فيه عدد من الفرنسيين ، سار على رأسه ، وفي نيته ان يحمل الحرب الى ديار المسلمين ، وقد التقى بجيوش المسلمين غير بعيد من بطليوس في مكان يسمى الزلاقة(6) .

وقبل ان يتمكن من نصب خيامه تلقى الملك النصراني رسالة من يوسف ابن تاشفين يدعوه فيها الى الاسلام ودفع الجزية او يعلن الحرب عليه ، وقد رد عليه الفونس بلهجة الامتعاض ، قائلا ان المسلمين يدفعون له الجزية منذ عشر سنوات ، وأنه لا يخشى الحرب ، حيث ان تحت تصرفه جيشا كبيرا .

وهذه المرحلة التي سبقت معركة الزلاقة ، هي التي يصفها عبدالله ملك غرناطة الذي اشترك في القتال ، في مذكراته بالعبارات التالية :

« وتلو منا ببطليوس اياما حتى صح عندنا اقبال الفونس (الفونس السادس) في حفلة يروم الملاقاة ويظن انه يهزم الجيش لقلة معرفته به ، وساق القدر الى ان توغل في بلاد المسلمين وأبعد عن انظاره ونحن بازاء المدينه متربصين ، ان كانت لنا فيها ونعتٌ ، وان لم تسكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوى اليها ، وأمير المسلمين يدبر هذا الامر بحسن رأيه ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون ان يحوج الى التوغل في بلادهم ، وهم كما دخلوا الاندلس ولا يعرفون من لهم ومن عليهم ورجا بأن الرومي لا يخرج اليه احد فينصرف طريقه ويكفي الله المؤمنين القتال الى ان تريه الامور وجهها » ثم

---

6 ـ Socralios في الرواية الاروبية .

ارسل (الفونس) على يد ابن الافطس يقول له :

ها انا أقبلت أريد ملاقاتك وانت تتربص وتختبىء لاصل المدينة ، وتواعدا للقاء في يوم سمياه ولم يكن بين المحلتين الا نحو ثلاثة أميال(7) .

وفي سياق الاستعداد لمعركة الزلاقة أيضا كتب ابن الاثير :

« وسار أمير المسلمين والمعتمد حتى اتوا أرضا يقال لها الزلاقة . . . فقيل لأمير المسلمين ، ابن عباد ربما لم ينصح ، فلا يبذل نفسه دونك ، فأرسل اليه أمير المسلمين يأمره بان يكون في المقدمة ، ففعل ذلك ، وسار ، وضرب الاذفوش (الفونس) خيامه في سفح جبل ، والمعتمد في سفح جبل آخر يتراءون ، وينزل امير المسلمين وراء الجبل الذي عنده المعتمد ، وظن الاذفوش ان عساكر المسلمين ليس الا الذي يرى »(8) .

كان ترأى الجيوش الاسلامية مع جيش الفونس السادس يوم الخميس . وقد بعث الأخير الى ابن عباد يقول : غدا الجمعة ويوم السبت يوم عيد اليهود الذين منهم وزارؤه وكتابه ، ويوم الاحد يوم عيد النصارى ، واقترح يوم الاثنين للقتال(9) .

ولكن المعتمد الذي يعرف حيل الفونس ومكره ، تشكك في هذا الاهتمام غير الطبيعي من النصراني بقداسة يوم الجمعة ، وتوقع ان يكون الأمر خدعة ، ولذلك ظل متيقظا حذرا .

ولما طلع الفجر تأكدت مخاوف المعتمد . فقد جاءه فارسان من طلائعه

---

7 ـ نفس المصدر .

8 ـ الكامل (10/153) .

9 ـ قارن المعجب (ص133) وفيه ان المعركة وقعت في 13 رمضان سنة 480 هـ ، صفة جزيرة الاندلس (ص90) الكامل (10/154) وفيه ان المعركة وقعت في العشر الاول من رمضان سنة 479 هـ ، وفيات الاعيان (5/27) وفيه ان المعركة وقعت يوم الجمعة الاول من شهر رمضان سنة479 هـ ، العبر (6/186) روض القرطاس (ص96) الحلل الموشية (ص40- 41) وفيه ان المعركة وقعت يوم الجمعة12 رجب سنة479 هـ ، وهذا التاريخ الذي يوافق23 أكتوبر سنة1086 م ، هو الذي أوردته الرواية المسيحية واعتمده كل من المؤرخين دوزي واشباخ في المصدرين المذكورين .

يخبران انهما أشرفا على معسكر الفونس وسمعا ضوضاء الجيش واضطراب الاسلحة ، ثم تلاحقت بقية الطلائع تؤكد تحركات العدو .

وعند ذلك ، بعث المعتمد كاتبه ، ابا بكر بن القصيرة ، الى يوسف بن تاشفين ليعرفه بجلية الامر ، ولكن المرابطين تباطؤا في انجاد الاندلسيين ، حتى يتحملوا الصدمة الاولى .

وأما الفونس ، فقد كان يعتقد ، كما أشار ابن الاثير ، أنه لا يوجد سوى الجيش المقابل(جيش الاندلس) حيث ان قوات المرابطين كانت تختفي وراء الجبل الذي عسكر ابن عباد على سفحه المقابل للنصارى ، وكذلك ركز هجومه على هذا الجيش وأحاط به من كل جانب ، فاشتد القتال وصبر ابن عباد صبرا جميلا ، واشتد البلاء وأبطا على نجدته الصحراويون وساءت ظنون اصحابه ، وانكشف بعضهم ، وفيهم ابنه عبد الله ، واثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة « فلقت هامته » وجرحت يمنى يديه وطعن في أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يمينا وشمالا (10) .

ثم جاءته اول فرقة لنجدته من ابن تاشفين بقيادة داود بن عيسى ، تتكون من عشرة آلاف مقاتل ، فنفس الكرب عن ابن عباد ، ثم اقبل يوسف على رأس جيشه وكان ظهوره في الميدان على رأس قوة عظيمة جديدة مفاجأة كبيرة لألفونس السادس الذي طرح في المعركة بكل قوته ولم يترك وراءه سوى قوة صغيرة احتياطية ، ومما زاد من هول المفاجأة ان بقية جيش المرابطين أخذ النصارى من الخلف .

وقد اتجه هجوم يوسف بن تاشفين الى معسكر الفونس الذي أحرقه ثم أعمل السيف في مؤخرة جيشه الذي وجد نفسه محاصرا بين فكي كماشة .

وبعد ذلك التحم جيش ابن عباد بجيش المرابطين فصدقوا جميعا الحملة وصبرا الفريقان صبراً عظيما وتراجع المنهزمون من جيش الاندلس

---

10 ـ صفة جزيرة الاندلس (ص. 91 - 92)

وعادوا الى صفوفهم ، واستمر القتال يوما كاملا كان يسوده الظلام لكثرة العجاج والغبار ، حتى انكشف جيش الفونس وفر هو منهزما ، بعدما أصابه بطعنة في احدى ركبتيه ، أحد عبيد يوسف طعنة قيل ان أثرها بقي فيه طول حياته .

وقد لجأ الى تل يلي محلته في نحو الخمسمائة فارس ، ما منهم الاكلوم ، وكان القتل والاسر مصير غيرهم من جيشه(11) .

وبهذه الهزيمة التي أتت على خيرة جنود الفونس وضباطه اضطر النصارى الى الجلاء عن بلنسية والى فك الحصار قبلها ، كما ذكرنا ، على سرقسطة ، والى تحرير ملوك الطوائف من الضريبة السنوية ، والى اعادة الاعتبار الى المسلمين .

فاما يوسف بن تاشفين ، فقد قرر العودة الى العدوة بسبب وفاة اكبر ابنائه تاركا وراءه لدى المعتمد قوة تعداد رجالها ثلاثة آلاف مقاتل من المرابطين ولكنه قبل سفره عقد اجتماعا مع ملوك الطوائف حثهم خلاله على الاتفاق والائتلاف .

ويقول عبدالله الصنهاجي الذي شهد هذا الاجتماع في مذكراته ما يلي :

« جمعنا في مجلسه ، أعني رؤساء الاندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف

---

11 ـ تختلف الرواية المسيحية عن الرواية الاسلامية اختلافا كبيرا ، كما يختلف الرواة المسلمون فيما بينهم في تقدير عدد افراد قوات الطرفين . فالرواية المسيحية تبالغ كثيرا اذ تقدرعدد الجيوش الاسلامية بمئات الآلاف ، وكذلك تبالغ رواية بعض المؤرخين المسلمين حين تقدر عدد جيش الفونس بمائتي الف وثمانين الف مقاتل (روض القرطاس ص90) وفي الحلل الموشية (ص38) ان النصارى كانوا ثمانين الفا ، منهم اربعون الفا من ذوي الدروع الثقيلة ، وفي نفح الطيب (439/1) ان عدد النصارى كان ثلاثمائة الف ، وفي وفيات الاعيان (27/5) ان جيش الفونس كان يتألف من اربعين الف مقاتل ، وكذلك يختلف الرواة المسلمون في تقديرهم لعدد جيش المرابطين . ويبدو لي ان تقدير اشباخ قريب من المعقول حين يقول (المصدر المذكور ص133) ان جيش يوسف بن تاشفين الذي عبر الى اسبانيا لا يزيد عدد رجاله عن 70 الف مقاتل ، وان ما حشده الاندلسيون قد يبلغ نحو هذا العدد ، وبذلك يكون مجموع عدد القوات الاسلامية التي اشتركت في معركة الزلاقة نحو150,000 مقاتل .

وان تكون الكلمة واحدة ، وان النصارى لم تفترسنا الا للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض منهم على البعض ، فاجابه الكل الى ان وصيته مقبولة ، وان ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة(12) .

ولما تعرض لذكر ما يخص مملكة غرناطة وأسرته هو من هذا المجلس قال عبدالله :

« وانتدب اليه ذلك الوقت أخونا (تميم) صاحب مالقة ، وقال من غير روية ، « ان احوالي قد ضاقت بتعد اخي على بلادي وميراث جدي » يشيربذلك ان يأخذ له الامير حقه منا ، فلما قضى كلامه قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لي ؟ » فلما قال له ، لا ، ردّ عليه (يقول) : « ما ينبغي لنا ذلك الا برضاه » ، فقلت له :

« ان أمير المسلمين لم تكن غايته الا ما هو بسبيله من الجهاد ، وهو لا يرضى ان ينقض ما أحكمه آباؤ نا من قسمة وما قسموه من بلادهم بين ابنائهم ، وليس أحد حصل على شيء بقدرته ، الا بما تهيأ له عند الله ، والاباء من بعد ، مع اجماع المسلمين على الرضا بما تخيروه ، وقد كان الشيخ جدنا ، رحمه الله ، قد رتب ذلك ورأى ان مالقة لا غنى بها عن غرناطة ، لجعل أمرها مصروفا الينا من بعده ، كالذي كانت في حياته ، فانقضت من الامر ما أبرم وقاطعتنا وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل ، ولو رأى جدك ذلك صلاحاً لأعد لك لذلك عدة تغنيك عنا ، ولما تعديت المرة بعد المرة ، سعينا في صرف بعض الحال الى ما رتبها عليه الجد . . . فان شاء أمير المسلمين ان يبتدئ من جديد وينقض ما رتب الشيخ ، فهو لنا بمنزلته ، أمره نافذ ، وان رأى ما فعل من ذلك سداداً وصلاحا ، فلأي وجه تكلفه ما لا يليق به ؟.

فلما تكلمت بهذا وقعت مساكنة وأمر الامير بانصرافنا(13) .

وكذلك نرى ان وجود ابن تاشفين في الاندلس للجهاد ولرفع لواء الاسلام في تلك الظروف التاريخية ، لم ينس ملوك الطوائف نزاعاتهم

---

12 ـ مذكرات عبدالله (339/2) .

13 ـ نفس المصدر .

ومطامعهم ، فاذا كان تميم بن بلكين قد فشل في مسعاه لطرح طمعه في غرناطة على بساط البحث بهذه الصورة التي أقل ما يقال فيها انها لا تنطوي على لباقة ، فان ذلك الفشل لم يثبط عزيمته ، بل راح يلاحق امير المسلمين ، وهو في العدوة برسائله التي يشكو فيها من اخيه ويكرر مطالبه بشأن غرناطة .

وفي نفس الوقت ، شهد ابن تاشفين نزاعا آخر حادا بين ابن عباد وعامله على موسية ، ابن رشيق ، الذي قطع الخطبة لصاحب اشبيلية ، ولكن أمير المسلمين لم يلتزم موقف الحياة في هذه المرة ، بل فصل في القضية بما يرضى ابن عباد .

وفي هذه الاثناء ظهرت روح من السخط والثورة بين رعايا الملوك ممن استطاعوا مقارنة قوة المرابطين وتقشفهم بضعف هؤلاء الملوك وجشعهم ، وحياة الترف التي يعيشونها على حساب الشعب والطبقة الكادحة . وقد استهدفت هذه الثورة التي هي أقرب الى العصيان المدني ، بايعاز من الفقهاء نقطة حساسة في نظر الملوك ، فاعلن الكثيرون في استخفاف رفضهم لدفع الضرائب ، والمغارم (14) ولكن مخاوف الملوك من الشعب ومن ثورات الجند التي تندفع هنا وهناك ، أصبحت هموما خفيفة بالقياس الى خوفهم من جيش المرابطين الذي جاء الى بلادهم للجهاد ، ولكنه أخذ الآن يستحلي الاقامة فيها .

وفيما يتعلق بالنصارى ، فقد لحسوا جراحهم بعد وقعة الزلاقة ، واصبحوا يتجنبون منطقة بطليوس واشبيلية ، وراحوا يوجهون غاراتهم في الاتجاه الشرقي ، الى الامارات الاسلامية الضعيفة ، ولا سيما بلنسية ومرسية ولورقة والمرية .

ففي هذه المنطقة كان المسيحيون يحتلون قلعة حصينة اسمها أليبط(15) تتسع لحامية تتكون من12و13 الف مقاتل . وبواسطة هذه القلعة ،

---

14 ـ المغارم في عرف أهل الاندلس نوع من الضرائب على الملكية العقارية .

15 ـ ويسمى ايضا حصن لييط(ALEDO بالاسبانية) . يقع بين لورقة ومرسية على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم .

كانوا يسيطرون على الحياة في هذه المدن ويخرجون في غارات يعبثون اثناءها فسادا .

وهذه الحالة كانت مثارا لقلق المعتمد ، خصوصا ، وان اثنتين من المدن المهددة (لورقة ومرسية) كانتا تابعتين لاشبيلية ، على الاقل ، اسميا ، ولما تحرك لاعادة الأمن الى نصابه على رأس قواته والقوات التي تركها يوسف تحت تصرفه ، انتهت حملته بالفشل .

وازاء اشتداد ضغوط النصارى من جديد ، سار ابن عباد بنفسه الى العدوة لاقناع يوسف بن تاشفين بضرورة العبور مرة اخرى الى الاندلس على رأس قواته .

وبعد ما جهز ابن تاشفين جيشا كبيرا يتكون من 7,000 فارس عبر على رأسه مضيق جبل طارق الى الجزيرة الخضراء في ربيع الاول سنة 481 هـ (يوليو 1088 م) وأعد المعتمد ما يجب لاستقباله .

ولكن ابن تاشفين سلك في هذه الغزوة الثانية للأندلس طريق مالقة ومرسية واتجه مباشرة الى هذا الميدان الذي أصبح المسرح الرئيسي لعمليات النصارى ، وقد أمر يوسف ملوك الطوائف ان يوافوه بقواتهم الى اقليم مرسية ، فاستجابوا لدعوته ، وكان في مقدمة هؤلاء عبدالله الصنهاجي ، صاحب غرناطة ، وأخوه تميم ، صاحب مالقة ، وولاة بياسة ، وجياق ، ولورقة ، ومرسية .

ولما اجتمعت قوات المسلمين ، بدأ حصار هذه القلعة التي كان يحميها 13 الف مقاتل ، من بينهم الف فارس (16).

ولكن القلعة صمدت في وجه المحاصرين وتحملت جميع هجماتهم بادوات الحرب المختلفة وفشلوا في أحداث اي اثر في تحصيناتها ، وذلك في الوقت الذي استمرت في الحزازات والخصومات بين الملوك والامراء فكان كل يوم يمر يشهد نزاعا او مؤامرة جديدة .

---

16 ـ دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (211/4) .

وهنا نترك حصار حصن لييط ، لنعود قليلا الى الوراء ، لنحاول استخلاص الخطوط الرئيسية لسياسة عبدالله تجاه المرابطين ، على ضوء التجربة الاولى معهم .

شعر عبدالله ، مثل غيره من ملوك الاندلس ، ان هذا البلد لن يكون في المستقبل نفس الاندلس الذي عرفوه ، هم وأباؤهم من قبل ، فان الجنود قد اكتشفوا آفاقا جديدة لمطامحهم ، وروح الثورة تغلي كالبركان في الشعب الذي استنزف الملوك موارده . وخطر بقاء المرابطين في الاندلس خطر قائم ، ومما يزيد من جدية هذا الخطر ان الشعب يميل اليهم ويقارنهم بالملوك مقارنة ليست في صالح هؤلاء .

ومن الغرائب التي لوحظت في هذا السياق ان العرب والاندلسيين الذين كانوا يكرهون البربر الذين خاضوا معهم معارك دامت نصف قرن ، كانوا أكثر العناصر تعلقا بالمرابطين وأكثرها ميال الى يوسف بن تاشفين البربري ، والذي لم يكن يعرف الا حظا متواضعا من العربية .

وكذلك كان الفقهاء والقضاة ، بصفة عامة أكثر العناصر تشيعا ليوسف بن تاشفين واشدها الحاحا عليه بان يقوم بخلع ملوك الاندلس .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان ابن تاشفين يعرف جيدا ان النصارى يقفون بالمرصاد لملوك الطوائف وينتظرون اليوم الذي يترك المرابطون فيه الاندلس بفارغ الصبر ، وابن تاشفين لا يسعه ان يعبر الى الاندلس كلما اشتد ضغط المسيحيين على المسلمين .

وهذه التحديات والتهديدات كلها هي التي قرر عبد الله ان يواجهها بوسيلة واحدة : تعزيز قوته العسكرية .

وكذلك راح ملك غرناطة يجدد حصونه بعزم ويعزز حامياتها بالرجال والاسلحة ويزودها بالمئون لكي تتمكن من تحمل الحصار أطول مدة ممكنة ، وهو يعتقد ان التحصينات والاسلحة مفيدة دائما ، مهما كان العدو الذي يتربص بك الدوائر !

وملك غرناطة مقتنع ، وهو يحصن مملكته ، بان أمامه متسع من الوقت

للاستعداد المواجهة الطوارئي ، ففيما يتصل بالمرابطين ، يرى انه « ليس من الممكن ان يتعرض امير المسلمين لاحد من سلاطين الاندلس الا بعد ابرامه لأمر الرومي »(17) .

والنزاع بين المرابطين والمسيحيين حسب تحليل الملك الصنهاجي : اما ان ينتهي بانتصار الملثمين ، وفي هذه الحالة لا سبيل الى مقاومتهم ، ولا مناص لملوك الاندلس من الاعتراف بسيادتهم ، واما ان يكون النصر حليف المسيحيين ، وفي هذه الحالة يكون من الحكمة التيقظ والاستعداد لمواجهتهم بالقوة الضرورية .

وفي حالة انتصار المرابطين واستيلائهم على الانـدلس ، قرر عبداللـه الالتجاء الى المنكب التي حصنها وقوى وسائل دفاعها ليرقب من هناك تطور الاحداث ، واذا اقتضى الامر ، ليعبر من هناك بأهله وأمواله الى العدوة الى ابناء عمومته في افريقية(18) .

وكذلك نرى ان ملك غرناطة قد حلل الموقف تحليلا منطقيا دقيقا وأعد لكل حالة لبوسها ، ولكنه فاته ان يدرك ان قوة المنطق ومنطق القوة لا يلتقيان دائما ، كما ستثبت له الاحداث بعد لأي . على ان مما يشرف عبدالله انه لم يواجه قط ، على الاقل في مذكراته ، احتمال الوقوف في وجه جهاد المرابطين والتحالف او التعاون مع النصارى للدفاع عن ملكه ، بل على العكس ، كان الرجل مستعداً لتقديم المساعدة بالمال والرجال للمساهمة في الجهاد ، متى طلب اليه ذلك أمير المسلمين(19) .

وعلى هذا الاساس لبى نداء يوسف بن تاشفين ، كما ذكرنا ، وسار على رأس جيشه ، ومعه قاضي غرناطة القليعي للاشتراك مع بقية الملوك والامراء في محاصرة حصن لييط .

كان أحمد بن خلف بن عبد الرحمـن الغسانـي القليعـي (ويكنـي ابـا

17 ـ مذكرات عبد الله (3/88) .

18 ـ نفس المصدر .

19 ـ نفس المصدر (3/88 - 89) .

جعفر) من أعيان غرناطة ومن أصل عربي . كان فقيها عارفا بالاحكام كثير الرواية غزير العلم ، بعيد الصيت ، وقد اشتهر خصوصا ، ببراعته في تلاوة القرآن .

ومن الطوائف التي تتصل بالدور الذي سيلعبه هذا الرجل على المسرح السياسي انه قيل ان باديس ، جد عبدالله ، كان يتفرس ويتنبأ بان دولته ستسقط على يد هذا الرجل ، وكان لذلك ، يتسنح الفرص لقتله(20) .

ونحن عرفنا كيف ان أبا جعفر كان عضوا في السفارة التي وجهها ملوك الطوائف الى ابن تاشفين ، ومنذ يومئذ توثقت صلته بأمير المسلمين .

وقد ضرب القليعي خيمته اثناء حصار حصن لييط قريبا من خيمة ملك غرناطة ، الامر الذي كان معه من السهل مراقبة نشاطه عن كثب ، وقد لاحظ عبدالله ان قاضي غرناطة كان كثير التردد على خيمة يوسف بن تاشفين ، ويدخل معه في محادثات سرية طويلة ، لم يعرف مضمونها ، ولكنه لم يكن من الصعب عليه ان يتكهن بأنه يتصل بمصير مملكته .(21) .

وبالفعل ، فان القاضي كان يسعى اثناء هذه المحادثات للتغلب على وخز الضمير الذي كان يشعر به أمير المسلمين من الفكرة التي تراوده باحتلال الاندلس وقد راح قاضي غرناطة يرسم لوحة قائمة للحالة التي وصلت اليها الاندلس ، ولا سيما ، مملكة غرناطة التي يعرف شؤ ونها جيدا .

وقد كان لحجج القليعي الذي كان من أعلم أهل زمانه وأشدهم ورعاً أثر في نفس ابن تاشفين ، يفوق حتى أثر محاولات بعض فقهاء الاندلس لتحليله من التعهد الذي قطعه على نفسه عندما اجتاز المضيق بان لا يحتل الاندلس .
وهذا الاثر سيتكفل بتعزيزه أحد ملوك الاندلس ، المعتصم ملك المرية الذي كان يحث يوسف على البقاء في الاندلس . وهو مدفوع بذلك خصوصا ، ببغضه للمعتمد بن عباد وبغيرته منه .

---

20 ـ الاحاطة (153/1) .

21 ـ راجع روض القرطاس (ص106) الحلل الموشية (ص50) وانظر كذلك اشباخ ، المصدر المذكور (ص95 - 96) .

وكذلك كان يعزز هذا الاثر بطريقة غير مباشرة المعتمد نفسه الذي كان يوقع بابن رشيق صاحب مرسية اثناء حصار لييط ، ويصفه امام ابن تاشفين بانه حليف الفونس السادس ، كما كان تميم بن بلكين صاحب مالقة يواصل حملته ضد أخيه عبدالله صاحب غرناطة .

ومهما يكن من أمر ، فقد استمر المسلمون على حصار حصن لييط أربعة أشهر ، ولكنهم لم يوفقوا للاستيلاء عليه او للنيل منه ، بالرغم من الجهود العسكرية الكبيرة التي بذلوها وكثرة آلات الحرب التي استعملوها ، وكذلك تكبد المسلمون خسائر مهمة من جراء انقضاض النصارى المحاصرين عليهم بين آونة وأخرى .

وازاء هذه النتيجة السلبية والجو السيء الذي يسود المعسكر الاسلامي ، قرر يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد ، عدم جدوى مواصلة حصار الحصن ، ولكنه لما أعلن المعتمد هذا القرار في اجتماع الملوك ، اعترض عليه أولئك الملوك والامراء الذين تقع مدنهم وولاياتهم في المنطقة ، حيث رأوا ان الضغط سيقع على عاتقهم وحدهم بعد رحيل الجيوش المتحالفة ، بل ان جيش مرسية لم يتردد في ترك ميدان القتال بعدما اعتقل المعتمد أميرهم ، ابن رشيق ، كما ذكرنا ، وراحوا يعملون لقطع المؤ ن على الجيش الاسلامي .

ولما بلغت أخبار هذه التطورات الفونس السادس الذي كان منهمكا في اعادة تكوين جيوشه لمواجهة المسلمين ، قصد الى حصن لييط على رأس جيش كبير .

وبعد ما فكّ الحصار على لييط ، عاد الملوك والامراء المسلمون ، كل الى بلده ، بينما اتجه يوسف بن تاشفين الى لورقة ، ثم الى المرية ، ومن هناك اجتاز البحر الى العدوة .

وفي هذه المرحلة ، تحولت مخاوف ملوك الاندلس من احتلال المرابطين للبلد الى رجاء وتوسل الى ابن تاشفين بان يترك قوة عسكرية لمواجهة احتمال قيام النصارى بهجوم شامل لأخذ الثأر من معركة الزلاقة مستأسدين بالنجاح النسبي الذي احرزوه عند اسوار لييط .

ولكن أمير المسامين اكتفى بالرد عليهم بجواب غامض قائلا :
« اصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم ! » ولم يترك أية قوة في البلد .

ولما وجد النصارى انفسهم من جديد وجها لوجه أمام ملوك الطوائف ، تشجعوا وأخذوا يعملون لمضايقتهم ويعتدون على أراضي كل من يرفض دفع الضرائب اليهم ، وازاء الضغوط القوية التي واجهها ملك سرقسطة ، اضطر الى عقد معاهدة مع الفونس السادس ، وحذا حذوه ملوك شرق الاندلس ، فالتزموا جميع بدفع الضرائب ، بل والضرائب المتأخرة ايضا ، وكأن الزلاقة لم تكن قط !

وأما عبدالله الصنهاجي ، فقد وجد نفسه في دوامة : هل يدفع الضريبة التي يحمي بها عرشه المتزعزع لفترة أخرى فيفقر شعبه بالضرائب والمغارم فيزيد بذلك من روح الثورة ويلغم نفسه من الداخل ، ام يقف في وجه الفونس بما يتطلبه ذلك من الرجال والمال ، الامر الذي سيستنزف خزائن الدولة التي انخفض رصيدها لأنها تأثرت ، فيما يقول ملك غرناطة ، كثيرا « بضيافات » المرابطين ، والنتيجة على كل حال واحدة حيث انه سيضطر الى فرض الضرائب والغرامات ، ولو ضمن عبد الله لنفسه النصر في حرب مع الفونس ، لهانت عليه الخسائر المالية ، ولكن الرجل غير متأكد من هذه النتيجة ، بل الارجح عنده ان « تجتمع عليَّ الخسائر من وجهين » كمال قال(22) .

وبينما كان عبدالله يضرب اخماسه اسداسه ، تلقى انذارا من البرهانس(23) معتمد الفونس في المناطق الشرقية ، في شكل رسالة شخصية منه يبلغه فيها انه سيقوم باحتلال وادي آش (احدى ولايات غرناطة) عسكريا ، اذا لم يدفع الملك ضريبة ملائمة .

وبعد التفكير والتروي هدى ملك غرناطة منطقه الى ان النصارى سيحصلون باحتلال هذه الولاية على ثروة تبلغ ، على كل حال ، اضعاف الضرائب التي يطلبونها وذلك بالاضافة الى استعباد المسلمين ، كما

---

22 ـ مذكرات عبدالله (3/89 - 90) .

23 ـ ELVĀR HĀNZ

يقول (24) .

وكذلك اختار طريق السلامة وبعث لمعتمد الفونس بالمبلغ الذي طلبه على سبيل الضريبة وهو يعتقد انه قد اشترى الآن شيئا من الراحة .

ولكنه لدهشته ، تلقى اشعاراً آخر من البرهانس يبلغه انه بدفعه هذه الضريبة قد أثبت حسن نيته بالنسبة البرهانس شخصيا ، واما بالنسبة الى الفونس فان المشكلة لا تزال معلقة حيث ان ملكه قد أخبره انه يستعد للزحف على ملوك المسلمين جملة وان الذين يدفعون الضرائب منهم سينجون من حربه ، واما الذين يرفضون الدفع فسوف يكلفه سيده هو بمعاقبتهم بشدة ! ومن ثم ، فهو يأسف لان يبلغ ملك غرناطة ان المبلغ الذي دفعه سوف لا يفيده في شيء . . . في المحاسبة التي ستجري بينه وبين الفونس السادس . . .

وهذه المناورة قد تبدو لنا مذهلة ومخجلة بما تنطوي عليه من الاحتقار والسخرية وسوء النية ، ولكن ملوك الطوائف تعودوا كل ذلك ، ومن يَهُنْ يسهل الهوان عليه . وكذلك وجد عبدالله الصنهاجي ان الامر معقول نسبيا من حيث الصميم ، ولكنه مع ذلك تضايق منه من الناحية الشكلية ، فان البرهانس يتحدث عن الضريبة في عبارات غامضة ، فلا يحدد المبلغ ولا طريقة دفعها ، فهل يقوم هو بمبادرة لدى الفونس ليرجوه تزويده بالمزيد من التفاصيل ، ام ان الاولى ان ينتظر حتى يتصل به الملك النصراني ويقدم اليه « الفاتورة » ؟

ولكنه نظرا لأن عبد الله يعتبر دائما عامل الوقت مهما في مخططاته السياسية فان من السهل ان ندرك لماذا اختار الانتظار بعد التروي وامعان النظر ، ثم ان عبدالله لم ينس امكانية عودة المرابطين الى الاندلس . فان عاد جيش المرابطين والحق بالنصارى هزيمة مثل هزيمة الزلاقة ، فسيكف النصارى بدون شك عن المطالبة بهذه الضريبة اللعينة !

وحتى لا يترك الفرصة للاثر الطيب الذي احدثته الضريبة التي دفعها ، لبرهانس لكي ينمحي بسرعة ، قام عبد الله بزيارة معتمد الفونس شخصيا ، وفي غضون هذه الزيارة شرح له الصعوبات التي يعانيها في جمع المال ،

---

24 ـ نفس المصدر .

وكيف انه عاجز عن دفع ضريبة لالفونس ولا سيما بعد التكاليف الباهظة التي تكبدتها خزائنه لاستضافة المرابطين(25) .

ولكن البرهانس أخبره بكل برود بانه غير مفوض من قبل الفونس لتسوية مثل هذه المشكلة . . . الا انه مع ذلك رضي ان يوجه رسالة لسيده ليطلب اليه ان يوجه رسولا الى الملك الصنهاجي ليطلب اليه دفع الضريبة ، ولكنه أضاف قائلا انه اذا رفض ملك غرناطة بعد ذلك دفع الضريبة ، فسوف ينتقم منه هو بغزو اراضيه .

على ان الفونس وجد حلا أكثر فعالية فقد جهز جيشا كبيرا ووضعه تحت قيادته شخصيا وسار على رأسه في اتجاه غرناطة ، ولما اقترب من حدود المملكة ، وجه رسولا الى عبدالله يطلب ان يدفع الضريبة ، بل وجميع الضرائب المتأخرة عن ثلاث سنوات ايضا ، وهو ما يساوي مبلغ 30 الف دينار ، وقد انذره الرسول بانه اذا رفض ، فان الملك النصراني سيزحف على مملكته .

ولكي لا يكلف رعاياه شططا بفرض ضرائب جديدة لتحصيل المبلغ ، قرر عبدالله ان يدفعه من جيبه الخاص وليس من بيت المال .

ولكن الفونس الذي كانت سياسته تستهدف اضعاف ملوك الطوائف باستنزاف اموالهم اولا ، ثم بالاحاطة بهم واحدا بعد واحد ، في فترة لاحقة ، لم يقنع بما سلبه من صاحب غرناطة من المال ، بل عرض عليه أيضا عقد محالفة معه والاشتراك في الحرب التي يعتزم شنها على المعتمد بن عباد ، على ان شهامة عبد الله ابت عليه ان ينزل الى هذا المستوى ، فرفض عرض الملك النصراني(26) .

وزيادة على ذلك ، فقد سارع عبدالله بابلاغ مخطط الفونس الى جاره المعتمد وحثه على الاستعداد للدفاع عن مملكته .

---

25 ـ نفس المصدر .

26 ـ نفس المصدر (3/91-92) .

وبعد ما دفع عبدالله الضريبة تحت القهر ، كتب الى يوسف ابن تاشفين ليخبره بهذه الحقيقة وليؤكد له انه قام بهذا الاجراء تحت الضرورة القصوى .

ولكنه بدلا من الرد الذي كان ينتظره على سلوكه بالثناء والتقدير ، ولا سيما وانه دفع الضريبة من ماله الخاص ، جاء رد ابن تاشفين مقذعا موبخا صيغ في عبارات شديدة اللهجة ، وخصوصا ، حين يقول :

« أما مداهنتك وقولك الباطل فقد علمناه ، وسنعلم عما قريب كيف ترضى الرعية وما تصنع اذ زعمت أنك نظرت لها ، ولا تسوف ، فان هذا قريب غير بعيد »(27) .

وهذه الرسالة ستملء نفس الملك الصنهاجي (الذي يجد نفسه الآن بين المطرقة ، والسنديان) غمًا وبؤسا ، ولكنه يُعزِّي نفسه بان هذه الروح العدائية من ابن تاشفين الذي كان يعزه ويقدره الى مساعي اعدائية ، وفي مقدمتهم ، ابو بكر بن مسكن(28) ، الذي كان يغذي طموحا جامحاً لان يوليه المرابطين على غرناطة متى استولوا عليها من جهة والقاضي الفليحي من جهة اخرى . ونحن قد سبق ان اشرنا الى المناورات التي كان القاضي يقوم بها لوكا ابن تاشفين اثناء حصار لبيط، ضد ملك غرناطة ، والى مساعيه ، هو وغيره من فقهاء الاندلس لاقناعه باحتلال تلك البلاد والقضاء على ملوك الطوائف ، وهذه المساعي من قاضي مملكته اغاظت عبد الله غيظا شديدا .

وبمجرد عودته الى غرناطة ، استدعى القاضي ووبخه على قلة ولائه وقام من مجلسه مغضبا ، وعند ذلك أحاط الخدم والحرس بالقيعي وهموا بضربه او الفتك به ، ولكن ام عبدالله التي اعتادت التدخل في شئون الدولة توسلت الى ابنها ، فامر بتخليصه من موقف محفوف بالاخطار ، ثم أمر به وسجن في احدى غرف القصر .

وهناك أقبل القاضي على تلاوة القرآن بصوته الرخيم .وبأعلى ما استطاع ،

---

27 ـ نفس المصدر (92/3) .

28 ـ لا شك في ان يكون مسكن هذا هو الشخص الذي استولى على جيان في عهد باديس وتستر على ثورته بماكسن بن باديس المبعد من غرناطة .

بحيث كان نازلو القصر يجتمعون حول هذه الغرفة ليستمعوا الى قراءته المؤثرة في سكون وخشوع . وقد خافت ام عبدالله على ولدها من عقاب الله وسوء الاقوال ، فلاطفه مرة اخرى ، حتى أمر باطلاق سراح القليعي .

ولما خرج من سجنه هرب القاضي بالليل والتجأ الى قلعة يحصب (قلعة بني سعيد) التي كانت خاضعة في تلك الآونة لابن عباد ، ومنها اتجه الى قرطبة ، ومن هذه المدينة راح يكاتب يوسف بن تاشفين ويستحثه على غزو الاندلس(29) .

وفي نفس الوقت ، أخذ القليعي يتصل بفقهاء الاندلس وعلمائها يحثهم على اصدار فتوى بعدم شرعية ملوك الطوائف بصفة عامة وابني بلكين ، عبدالله ، وتميم بصفة خاصة .

وتحت تأثير مساعيه ، اصدر الفقهاء ، فتوى بسقوط حق عبدالله وأخيه تميم في الملك ونادوا بخلعهما .

وفيما يتعلق بالملوك الاخرين ، فقد اكتفت الفتوى بان تطلب الى أمير المسلمين ان يعمل حتى لا يفرضوا على الناس سوى ما يفرضه القرآن عليهم(30) .

واستناداً الى هذه الفتوى ، دعى ابن تاشفين ملوك الاندلس وامراءها الى الغاء جميع الضرائب التي تثقل كاهل الشعب .

وأما عبدالله ، فقد فكر كثيرا في أمر القليعي الذي كان مشعل هذه الفتنة واعاد النظر ، فأدرك الغلطة الفادحة التي ارتكبها ، وندم على اطلاق سراحه ، وقد بحث عنه هنا وهناك ، ولكن بدون جدوى . وعندئذ ، أنحى باللائمة على أمه وندم على مطاوعته لها(31) .

وفي هذه الاثناء ، زحف الفونس على اشبيلية . ولما رأى ابن عباد ان

---

29 ـ الاحاطة (1/155 - 156) .

30 ـ راجع دوزي ، تاريخ المسلمين في اسبانيا (4/227) .

13 ـ الاحاطة (1/154 - 155) .

الملك النصراني قام بغزو مملكته ، بينما احترم حدود مملكة غرناطة ، ساء ظنه في عبدالله وتوهم ان هذه العملية قد تمت بناء على تواطىء بين عدوه وجاره ، الملك الصنهاجي وهذه التهمة يدفعها عبدالله باشمئزاز ، ولا سيما حين يقول :

« ولو ان قضيتي تستوضح لوجدنا فيها ما لا مطعن ولا مقال ولا بينة ولا اسرار ، في ميل عن المسلمين ولا ادخال داخلة وعند الله تجتمع الخصوم »(32) .

وفي اعقاب هذه الاحداث كلها ، قام اليهود الذي يسكنون منطقة « اليسانة »(33) وكانوا يشكلون دولة داخل الدولة ، بثورة لسبب تافه في الحقيقة ، ولكن الظروف القاسية التي كانت تجتازها المملكة ، شجعتهم بدون شك ، على المخاطرة بالقيام بثورة مسلحة عندما أمر عبدالله ببناء السور المتصل بقلعة الحمراء ، في نطاق سياسته التي تستهدف تقوية الحصون ، عثر العمال في الاساس على قمقوم ملىء بالذهب (300 مثقال) . ولما بلغ السلطان خبر هذا الاكتشاف أمر بان يصرف المبلغ لمواجهة تكاليف البناء ولكنه نظرا لان هذا المكان كان هو موقع بيت اليهودي ، أبى الربيع ، وزير جده باديس ، بعث في طلب ابنه ليدله على المكان الذي وضع فيه ابوه كنوزه الاخرى .

وقد حدث ان هذا الشخص كان صهر ابن ميمون الذي قدمه السلطان على الطائفة اليهودية (أمين) في « اليسانة » وهذا الامين ، هو الذي نصحه بعدم المثول أمام السلطان .

ولما كان اليهود قد نقموا على السلطان فرضه غرامة « التقوية » الاضافية بالذهب ، فقد وجد شيخ اليهود في هذا الحادث ذريعة ليدعو اليهود الى حمل السلاح .

وبعد اتصالات ومفاوضات معقدة أبدى فيها عبدالله كثيرا من

---

32 ـ مذكرات عبدالله (93/3) .

33 ـ LUCENA ، ذكرها الادريسي (ص205) .

الديبلوماسية تمكن من القضاء على هذه الثورة التي كانت تهدد بتدخل اجنبي في شؤ ون المملكة الداخلية ، ومن تسوية مشكلة اليهود واعادتهم الى حظيرة القانون ، بعد ما اعتقل أمينهم ابن ميمون .

ولكن عبدالله لم يكد يقضي على هذه الثورة حتى واجه اضطرابات أخرى خطيرة في صفوف الجيش .

كان ملك غرناطة لا يولي على حصون غرناطة ومعاقلها الا من يثق بهم من شيوخ صنهاجة ، او من عبيده السود او البيض ، وأما زناتة ، فقد كانوا يشكلون قاعدة الجيش وحامية غرناطة .

وعلى عكس ما جرى به العمل في العهود الاولى ، فقد كانت صنهاجة في الفترات التالية عرضة للتمييز من الوزراء وكبار الموظفين الذين كانوا يفضلون عليها زناتة (ولا سيما في عهد الوزير اليهودي ابن نغرالة) حيث كان زعماء صنهاجة يحتقرونهم ويستعلون عليهم لأنهم ، هم من الأسرة الحاكمة ، ونحن قد عرفنا كيف دبرت صنهاجة نكبة يوسف بن نغرالة والثورة العارمة ضد اليهود في عهد باديس .

ولما خلف ابن النـاية يوسف في السلطة والوزارة ، خشي من ان يلقى مصير سلفه على يد صنهاجة ، فراح يبعد شيوخهم واحدا بعد واحد عن العاصمة بتعيينهم في المناطق الضعيفة الدخل ، كما عمل على تجريد من بقي منهم في غرناطة من نفوذهم وأموالهم ، وفي نفس الوقت ، عمل الناية على تحسين أوضاع زناتة في الدولة وعزز وجودهم في المراكز الحساسة ووضعهم على الولايات القوية ذات الدخل المهم ، وبهذه الاجراءات السياسية الطابع ، كان يبررها في الاصل ما كان يتمتع به الجندي الزناتي من الشجاعة والنخوة والطاعة وجدارته بالثقة .

ومع ذلك ، فان العداء التقليدي الذي انتقل من افريقية الى الاندلس والذي كان مستحكما بين القبيلتين عبر الاجيال ، يجعل من المستحيل على ملك غرناطة ان يضع رجال زناتة على قيادة الحصون ، دون ان يؤ دي ذلك الى انفلات توازن القوى ويعرض العرش نفسه للخطر .

وكذلك حاول عبد الله ان يرفع المستوى العام للجندي الصنهاجي الذي كان وضعه أقل من الجندي الزناتي ، فقرر ان يخصص خمسة او ستة فرسان من صنهاجة لكل واحد من الموسرين من زناتة للعناية بهم ، في مقابل ما استفادوه من الامتيازات والحماية التي كانوا يتمتعون بها في المملكة عبر السنين .

ولكن القرار وجد مقاومة عنيفة في صفوف زناتة ، ولما علم الملك ان عدداً صغيراً من زعماء القبيلة هم الذين يوجهون هذه المقاومة قرر نفي ثلاثة من كبارهم ، وكلف بتنفيذ أمره الخصي لبيب ، صاحب (الوالي علي) غرناطة .

على ان هذا العبد الذي ربّاه عبد الله وثقفه وكان يثق به رأى ان يبلغ مضمون هذا القرار المعنيين بالامر ، بل وأخبرهم أيضا بانه هو المكلف بتنفيذه وانه لذلك لا خوف عليهم ، وما عليهم الا ان يتكتلوا ويتعصبوا ويعملوا لاخافة السلطان ، وانه هو سيقف بجانبهم دائماً(34) .

وعقب ذلك قامت قوات من الجيش (من زناتة) بمظاهرات صاخبة تطالب بالغاء القرار ، والا فسيتركون خدمة السلطان ويلتجئون الى أمير آخر .

ولكن عبدالله اثبت قوة شخصيته مرة أخرى ، وأبى الا ان يؤكد قراره تاركاً لزناتة الحرية في البقاء في جيشه ، والذهاب حيث يشاءون ، ثم أبعد لبيبا العبد وبعض شيوخ العبيد الذين كانوا على رأيه ، كما أقصى رجال الحاشية الذين كان لهم دور في الفتنة .

تلك لمسات تبرز خلفيَّة نظام الحكم في غرناطة الزيرية في أواخر ايامها .

وفي هذه المرحلة ، كان على عبدالله ان يواجه الفونس السادس بمكره وقوته ، وشكوك جاره ابن عباد ، في الوقت الذي تغلي فيه الثورة في صفوف الجيش ، بل وحتى في حي اليهود . وفي نفس الوقت ، كان ملك غرناطة موضوع فتوى صريحة للفقهاء والقضاة في الاندلس بعدم شرعية حكمه .

فلو كان سهما واحدا لاتقيته . ولكنه سهم وثان وثالث على ان السهم

---

34 ـ مذكرات عبدالله (3/95 - 96) .

القاتل مع ذلك ، لم يأته من داخل مملكته ولا من الاندلس ، وانما جاءه من اولئك الذين جاءوا لحماية الاندلس المسلمة ضد النصارى واصبحوا يتطلعون الآن الى الاندلس الاسلامية للاستقرار والبقاء فيها ، ونعني بذلك المرابطين .

فلما كانت سنة 483 هـ ، جاز يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة الى الاندلس يرسم الجهاد ، فسار حتى نزل على طليطلة ، فحاصر الفونس فيها ، وشن غارات على أطرافها ، فافسد زرعها وخرب عمرانها وقتل وسبا ، وهو لا يعتمد الا على جيش المرابطين ولم يلحق به أحد من ملوك الاندلس الذين كانوا يتشككون في نياته ، فغاظه ذلك وأثر في نفسه .

ولما عاد من غزوة طليطلة ، عرج على غرناطة التي كان ينكر على صاحبها أمورا شتى أهمها استعداداته العسكرية وتحصينه لمعاقله ومراسلاته مع صاحب قشتالة ، فأراد ان يتجنى عليه « تجني الذئب على المعزة » على حد قول لسان الذين ابن الخطيب ، « متلمسا المعاذير لا كلها » .

فوجه ابن تاشفين جيشه لمنازلة غرناطة التي حاصرها ، في رواية نحو شهرين ، ثم تبادر اليه الرعايا معلنين طاعته ، ولما رأى عبدالله نكول أهل البلد عن الدفاع عنها ، قرر بعد ما استشار امه « التي كان يبدو انها كانت حتى اللحظة الاخيرة تأمل في الزواج من ابن تاشفين » التي نصحته بالخروج للقاء يوسف ، فخرج اليه في خيل بسروج الحلي وعمائم الشرب والصقالبة أمامه ، وولدان الروم حول ركابه(35) .

فلما وصل الى أمير المسلمين ، وهو على فرسخين من المدينة ، سلم عليه وترجل وسأله العفو فعفا عنه وأمره بالركوب ، فركب والتفت به الخيل وأمر فعرج به الى خباء واستوثق به وبمن معه واحتفظ بهم رهائن ، وكتب الى أمه قائلا :

« ان كان لك بابنك حاجة فمكنينا من البلد ، ونمكنك من ابنك » فلم

---

35 ـ قارن عن استسلام غرناطة للمرابطين ، الكامل (155/10) الاستقصا (20/1) اعمال الاعلام (القسم الخاص بالاندلس (ص270) العبر (187/6) الحلل المرشية (ص 15) ، وكذلك دوزي : ABBADIDIS .

تجـد الام بدا من اسـلام البلـد اليه في يوم الاحـد 10 رجـب ، سنـة 483 هـ (سبتمبر 1090 م) .

وبعد ذلك ، دخل ابن تاشفين الى غرناطة وخاطب أهلها بما آرضاهم من ضمان وبالرفق وافاضة الخيرات . .

واثر ذلك ، خلع يوسف تميم صاحب مالقة وشقيق عبدالله ، وملك هذه الولاية ايضا وقبض على الآخوين ،وبعث بعبدالله الى مراكش وبأخيه تميم الى السوس الاقصى ، في المرحلـة الاولـى ثم جمـع بينهمـا فيمـا بعـد بمدينـة مراكش ، مع حريمهما وأولادهما وأقاما بها حتى ماتا مغمورين .

وفي غرناطة عثر يوسف ورجاله من الصحراويين على كنوز بني زيري ، فرأي فيهاْ « من الاموال والذخائر » حسب تعبير ابن الاثير ، « ما لم يجده ملك قبله بالاندلس » . ومن جملة ما عثروا عليه ، مسبحة فيها اربعمائة جوهرة ، فقومت كل جوهرة بمائة دينار ، ومن الجواهر ما له قيمة جليلة ، الى غير ذلك من الثياب والاواني الفاخرة .

ومن الامور التي تدعو الى العبرة في سقوط غرناطة ان ابن عبـاد الـذي كانت مملكته الهدف التالي للمرابـطين ، كان يطمـع جديا في ان يوليه ابـن تاشفين على عاصمة بني زيري ويضيف بذلك جوهرة ثمينة الى تاج اشبيلية ، فقد قام بزيارة أمير المسلمين لتهنئته بفتحه ، وفي غضون هذه الـزيارة لمـح برغبته ، ولكن يوسف أعرض عنه .

وفي السنة التالية استولى جيش المرابطين بقيادة سير بن ابي بكر اللمتوني على اشبيلية ثم على قرطبة (في 3 صفـر 484 هـ) بعـد ما قتـل المأمـون بن المعتمد بن عباد ، وأسر المعتمد نفسه الذي احتفظ به يوسف ابن تاشفين أسيرا في القيد في اغمات ، حتى وفاته .

[illegible]

فلما كانت سنة 480 هـ [illegible]

[illegible] طليطلة [illegible]

[illegible]

ولما عاد من غزوة طليطلة ، عرج على غرناطة [illegible]

[illegible]

وجه ابن تاشفين جيشه لمنازلة غرناطة التي [illegible]

[illegible] ولما رأى عبد الله [illegible] أهل البلد

[illegible]

فلما وصل الى امير المسلمين ، وهو على فرسخين من المدينة ، سلم [illegible]

[illegible]

« ان كان لك يابنك حاجة فمكنيا من البلد ، ولمكنك من ابنك » قال

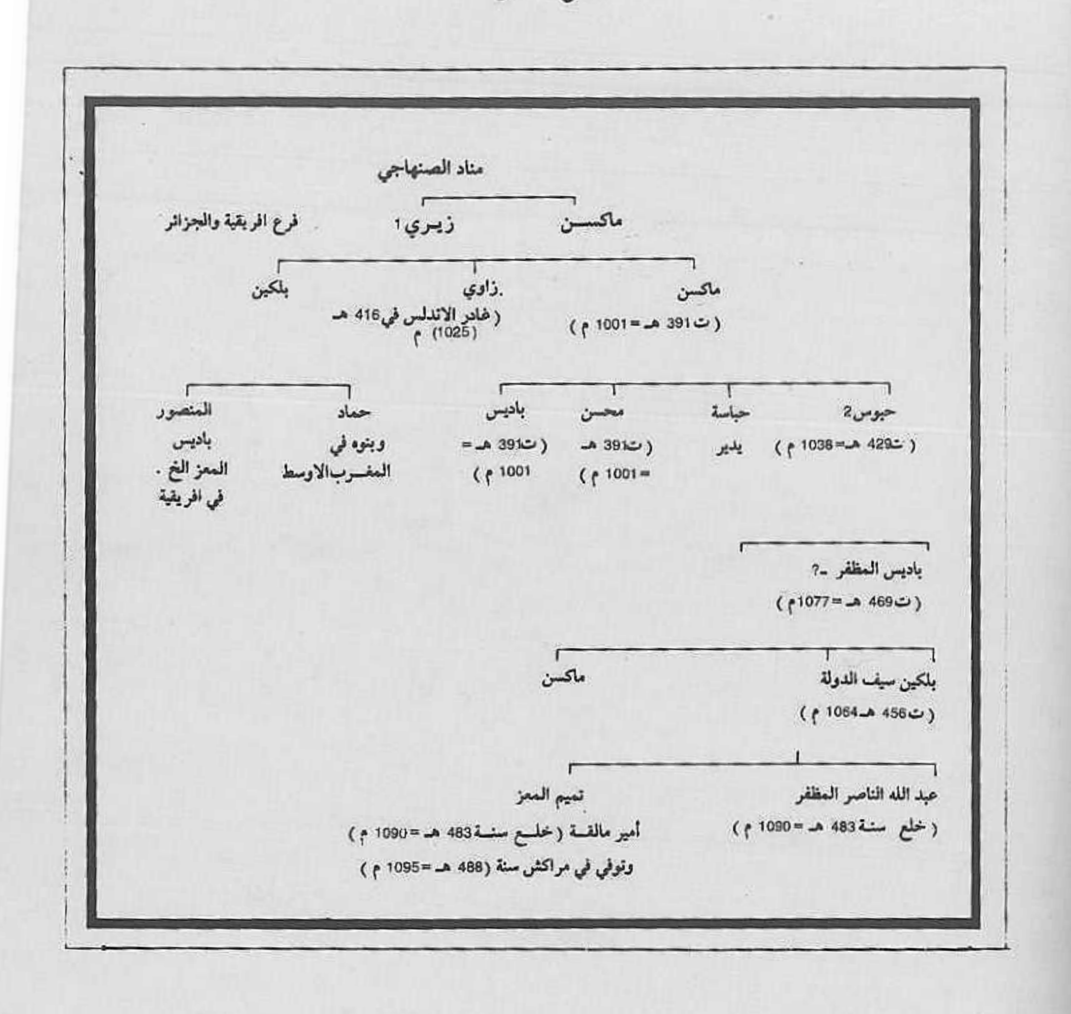
---

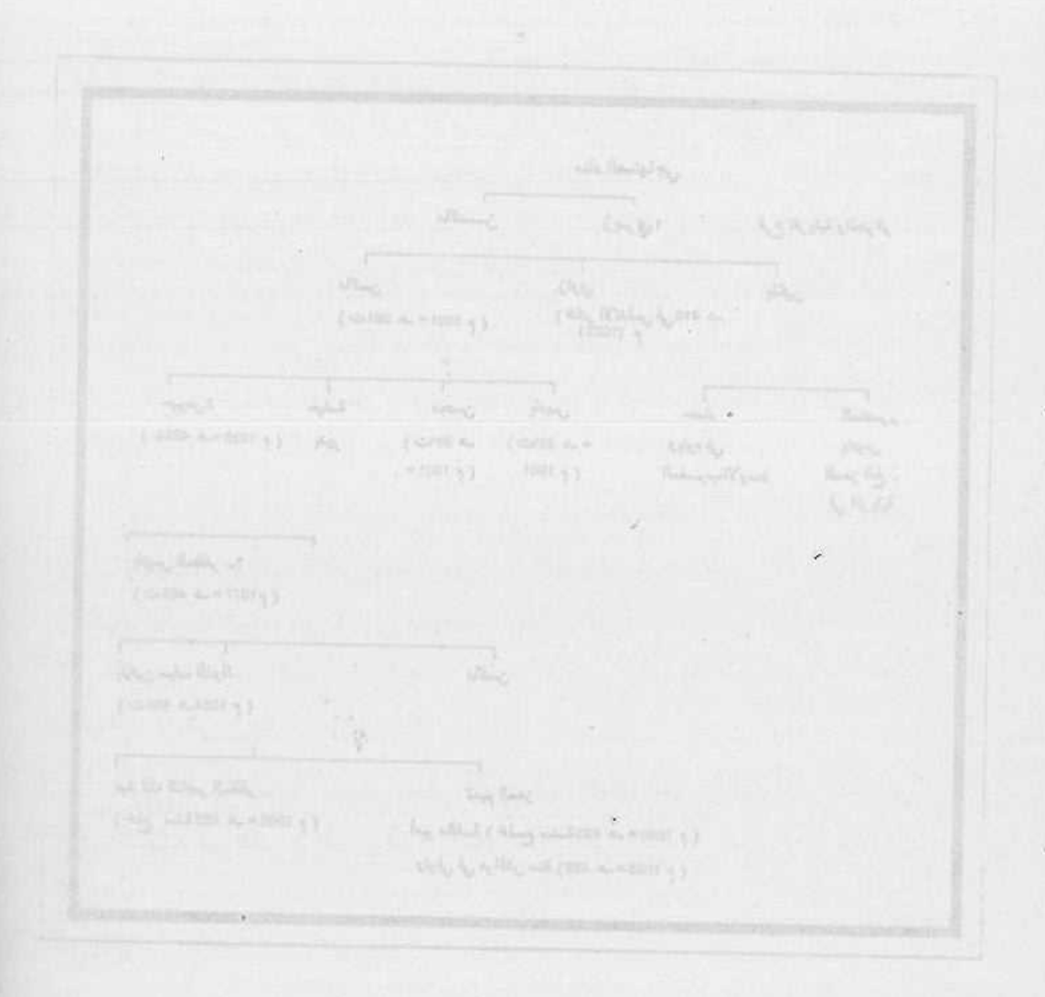
33 ـ عن استلام غرناطة للمرابطين ، الكامل (10/188) الاستقصا (2/[illegible]) أعمال الأعلام (القسم الخاص بالاندلس (ص 270) العبر (6/187) الحلل الموشية ([illegible])

34 ـ دوزي : ABBADIDIS ، [illegible]

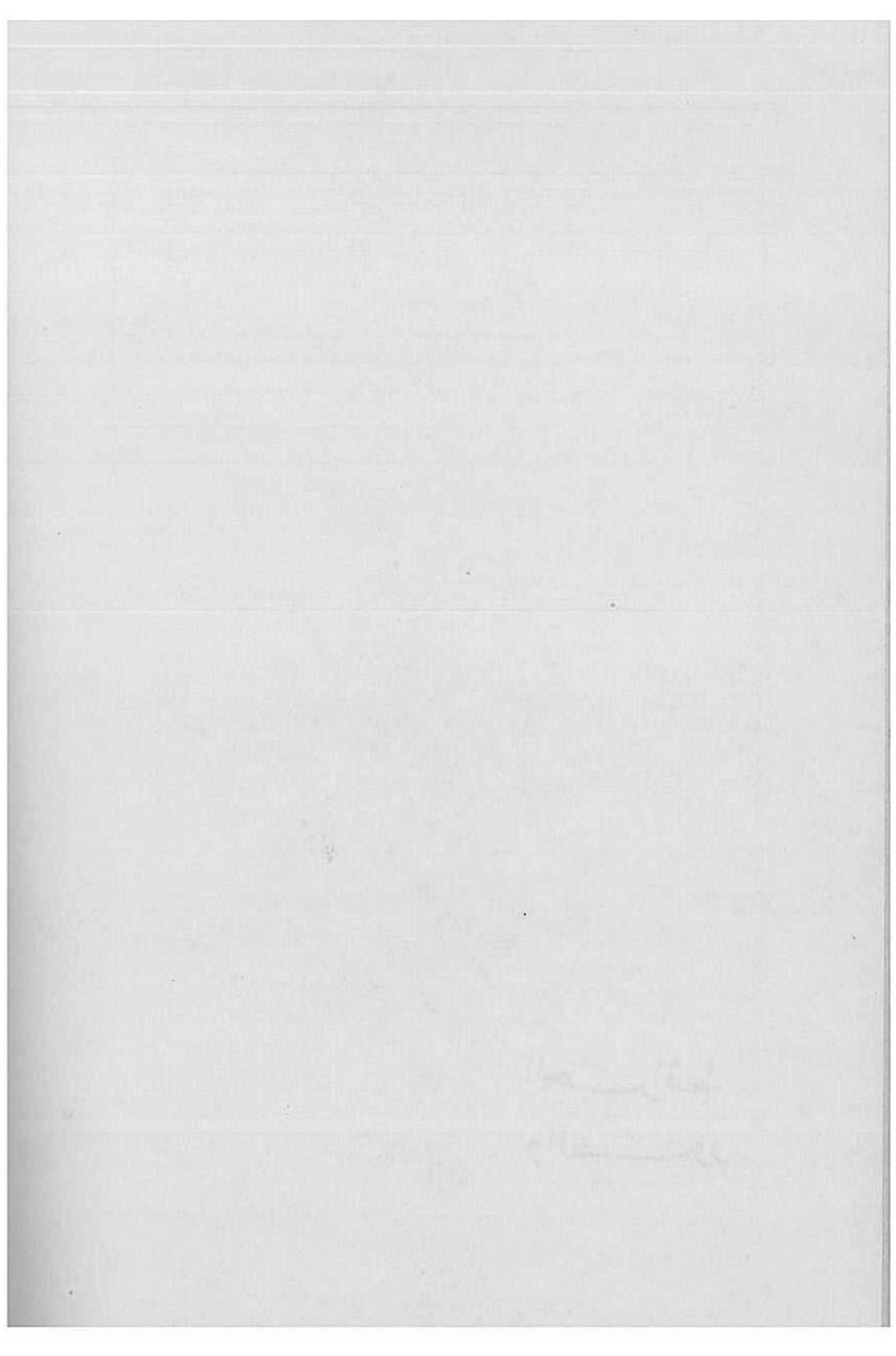
شجرة نسب بني زيري

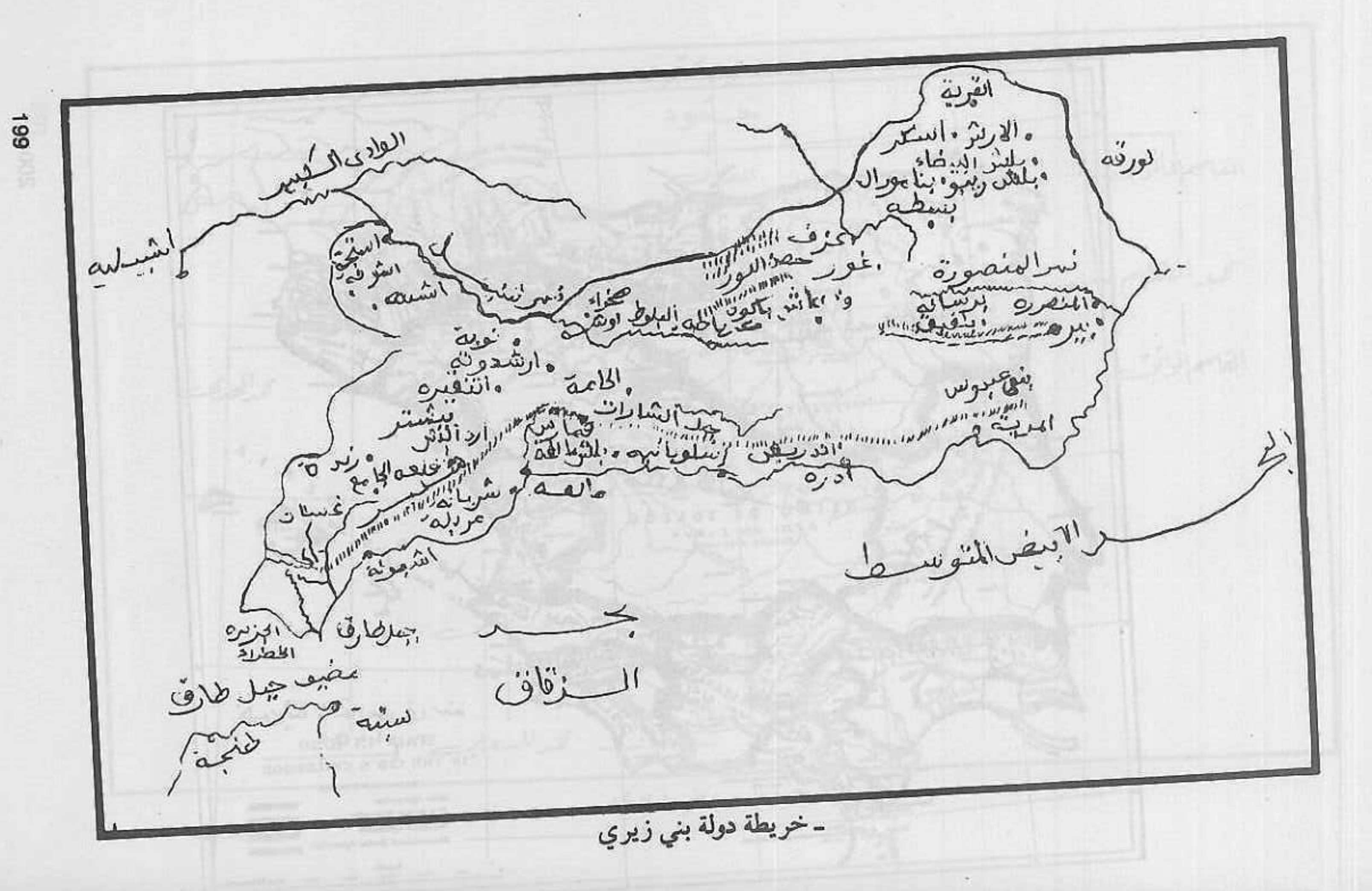
ملوك غرناطة





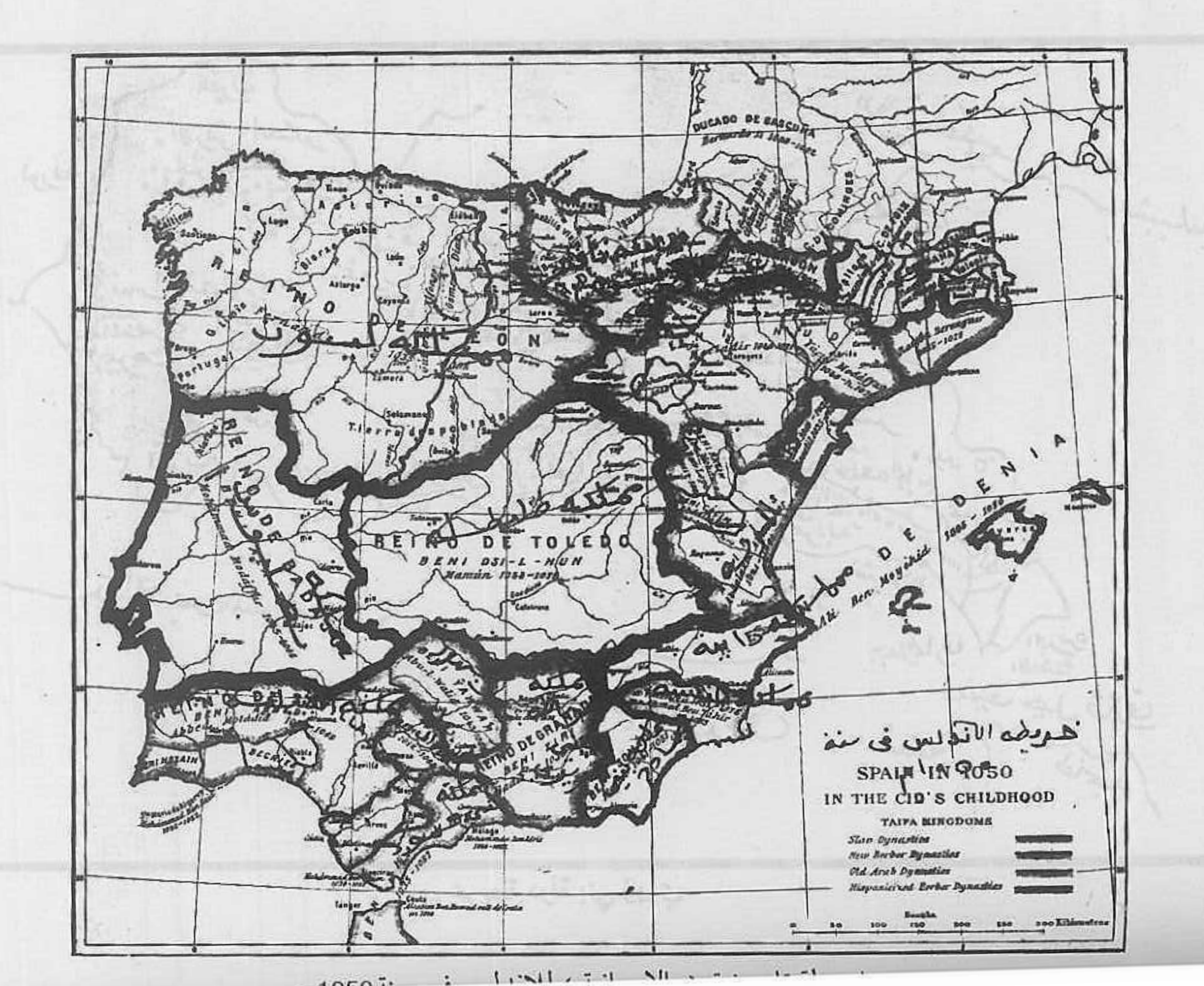
الخرائط والصور





- خريطة دولة بني زيري

- خريطة دولة بني زيري



خريطة الأندلس في سنة
SPAIN IN 1050
IN THE CID'S CHILDHOOD
TAIFA KINGDOMS
Slav Dynasties
New Berber Dynasties
Old Arab Dynasties
Hispanicised Berber Dynasties
REINO DE LEON
REINO DE TOLEDO
BENI DSI-L-NUN
DENIA
DUCADO DE GASCUÑA
Portugal
Asturias

بنو حمّود

حمّود

القاسم المأمون — ادريس — علي الناصر

محمد المعتصم — يحيى المعتلي — إدريس المتأيد

القاسم الواثق — إدريس العالي — حسن المستنصر — يحيى — محمد المهدي

إدريس الموفق

محمد المستعلي

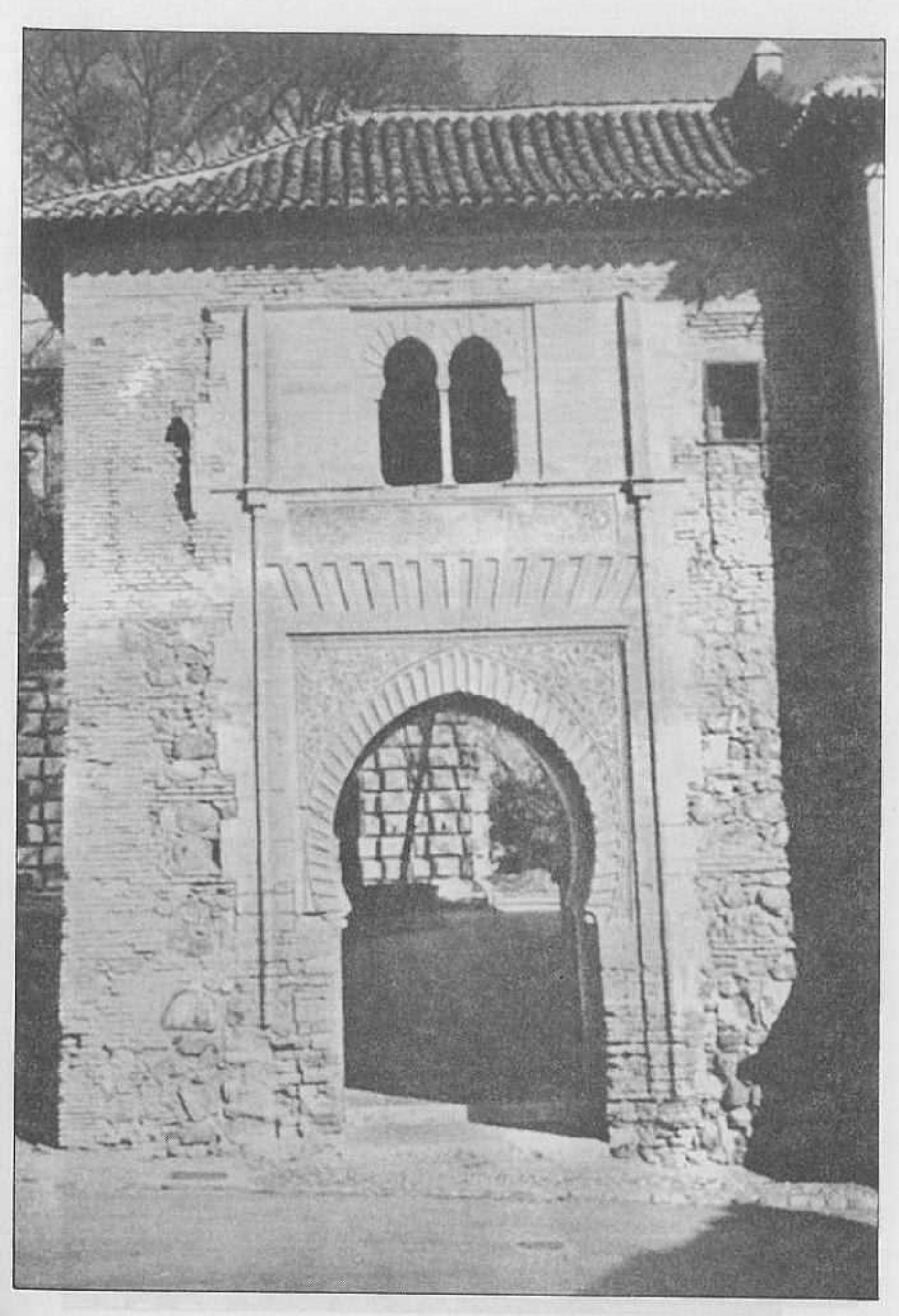
- شجرة نسب بني زيري



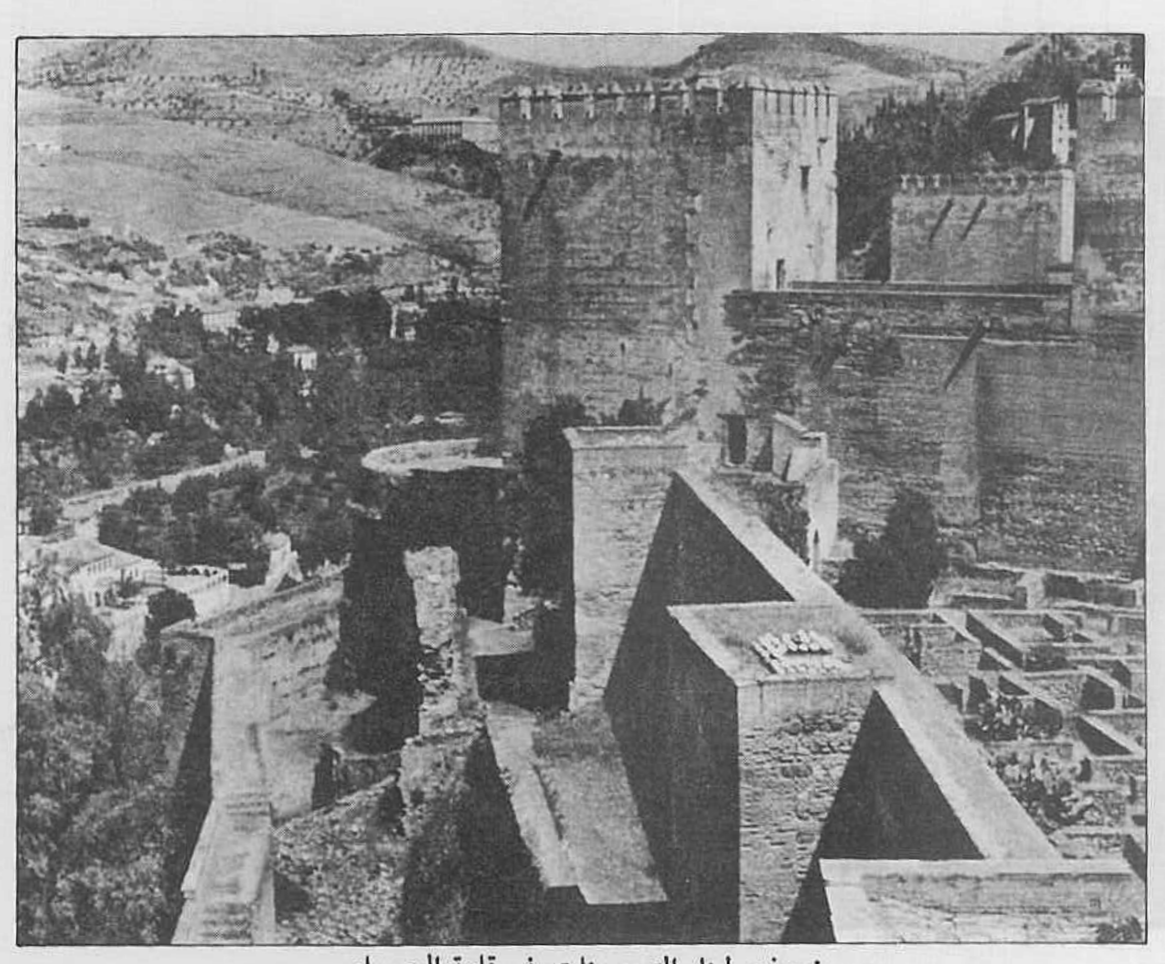
قاعة السباع في قصر الحمراء



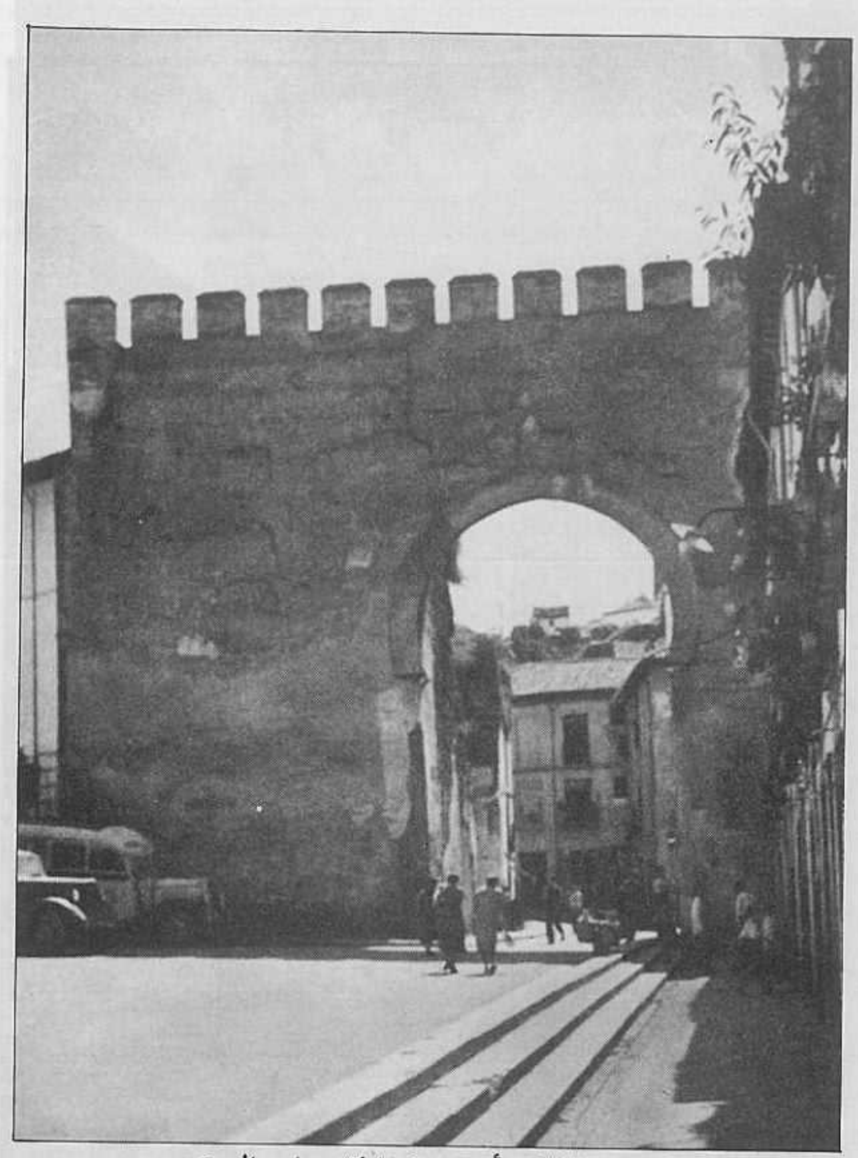
منظر عام لقصر الحمراء



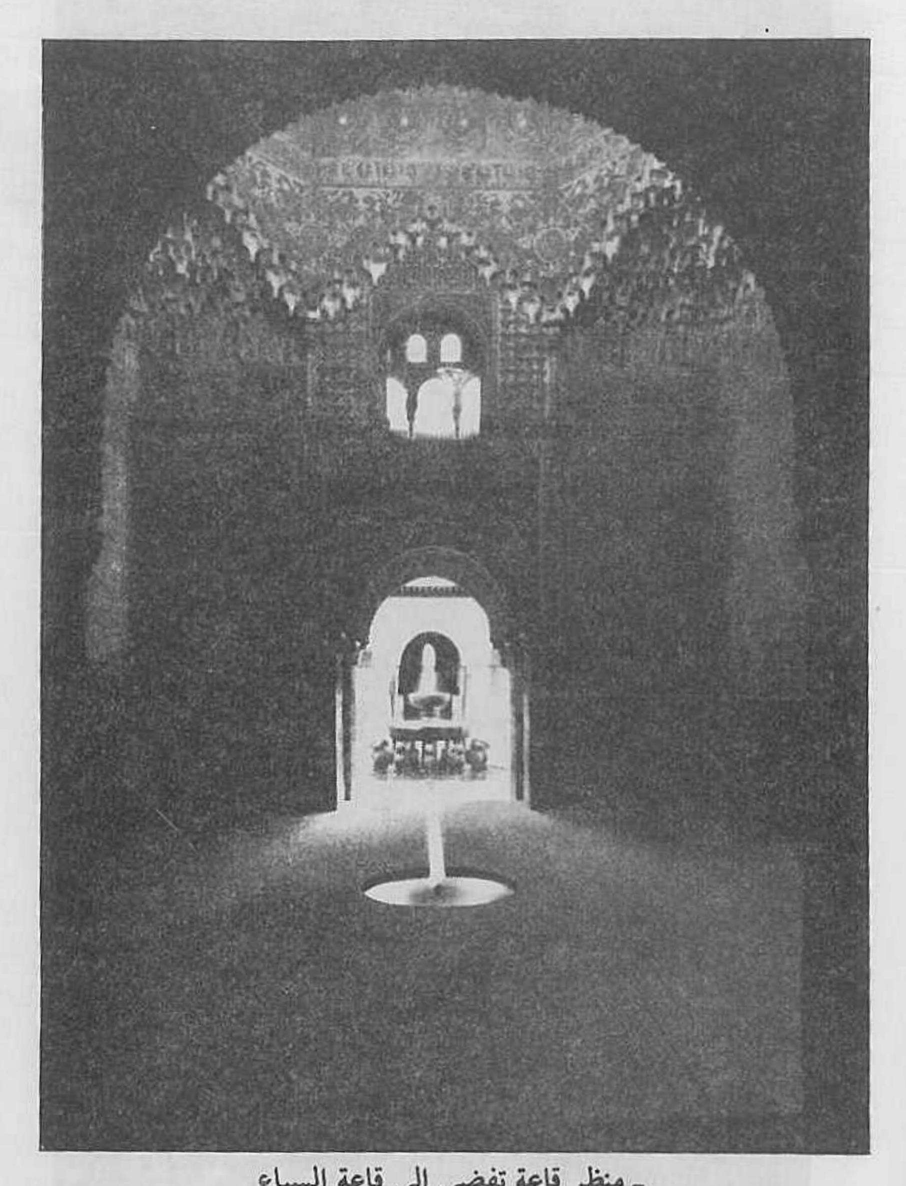
ـ نموذج من البنيان الزيري في قصر الحمراء



- نموذج لبناء التحصينات في قلعة الحمراء



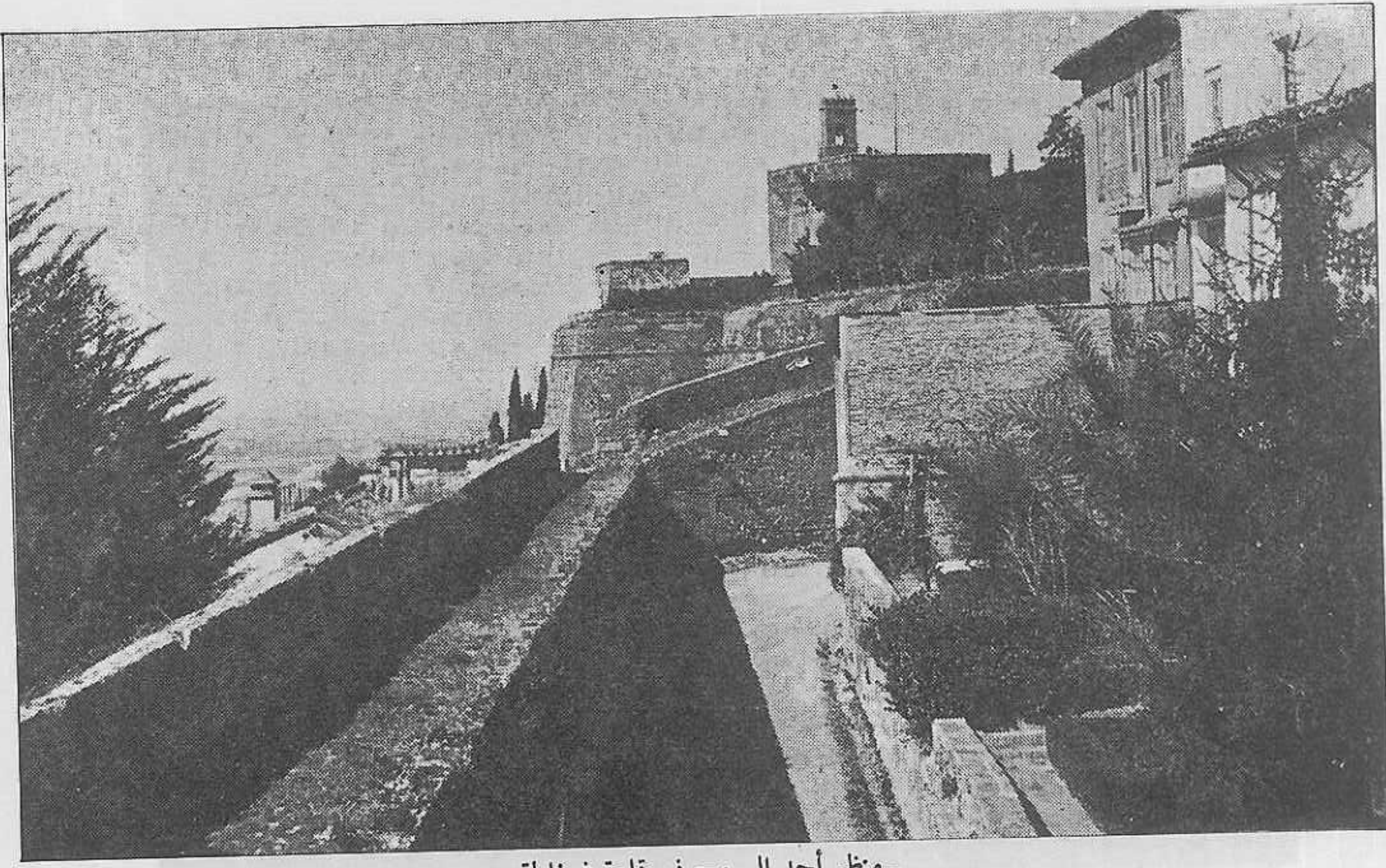
ـ صورة لاكبر أبواب غرناطة : باب البيرة



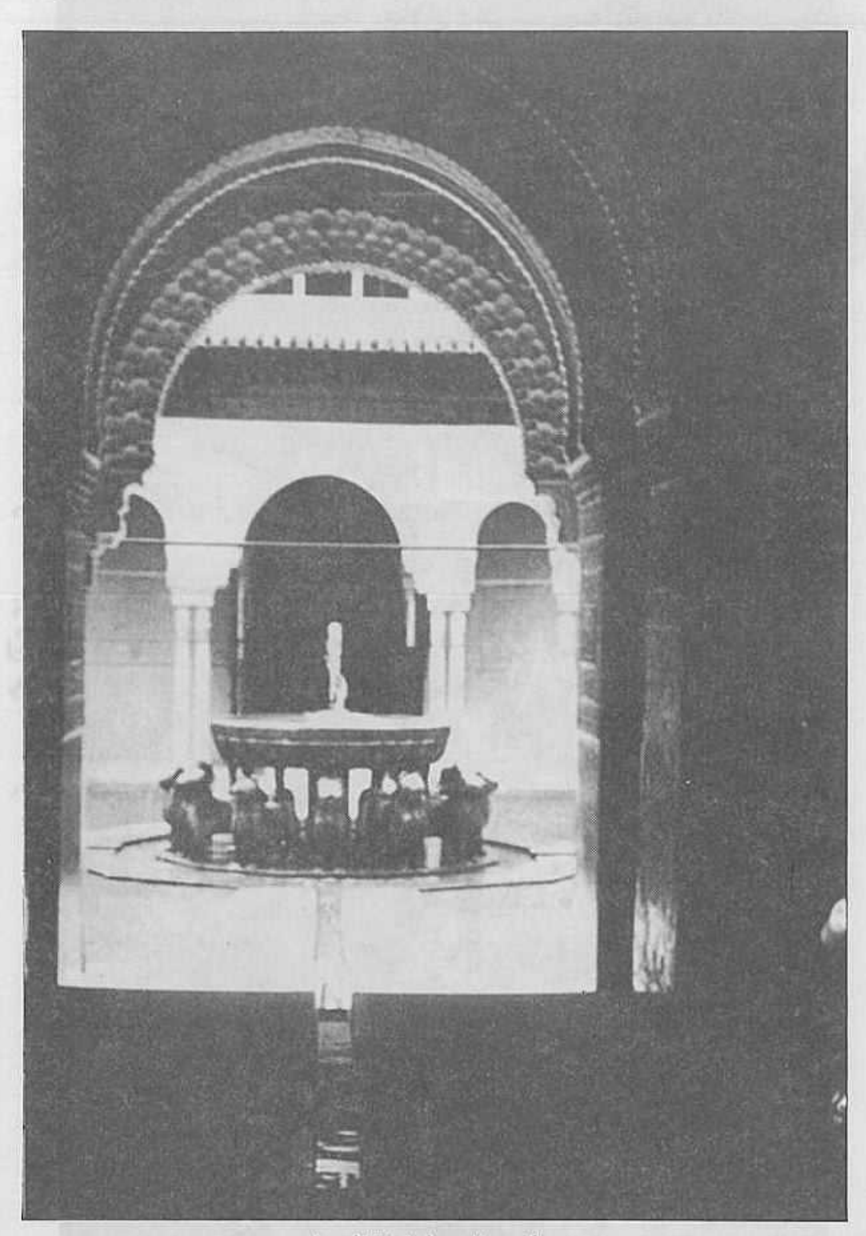
ـ منظر قاعة تفضي الى قاعة السباع



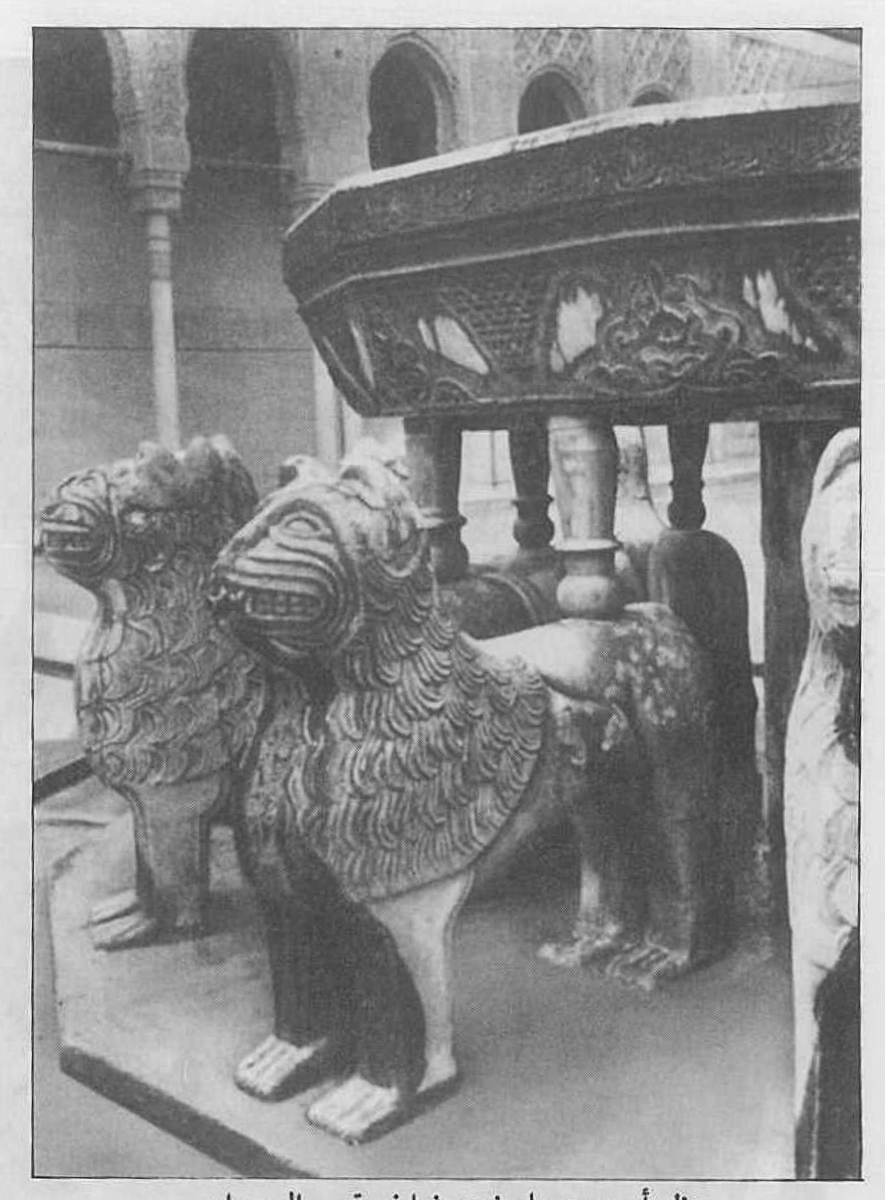
ـ أثر فني من عهد حبوس بن ماكسن



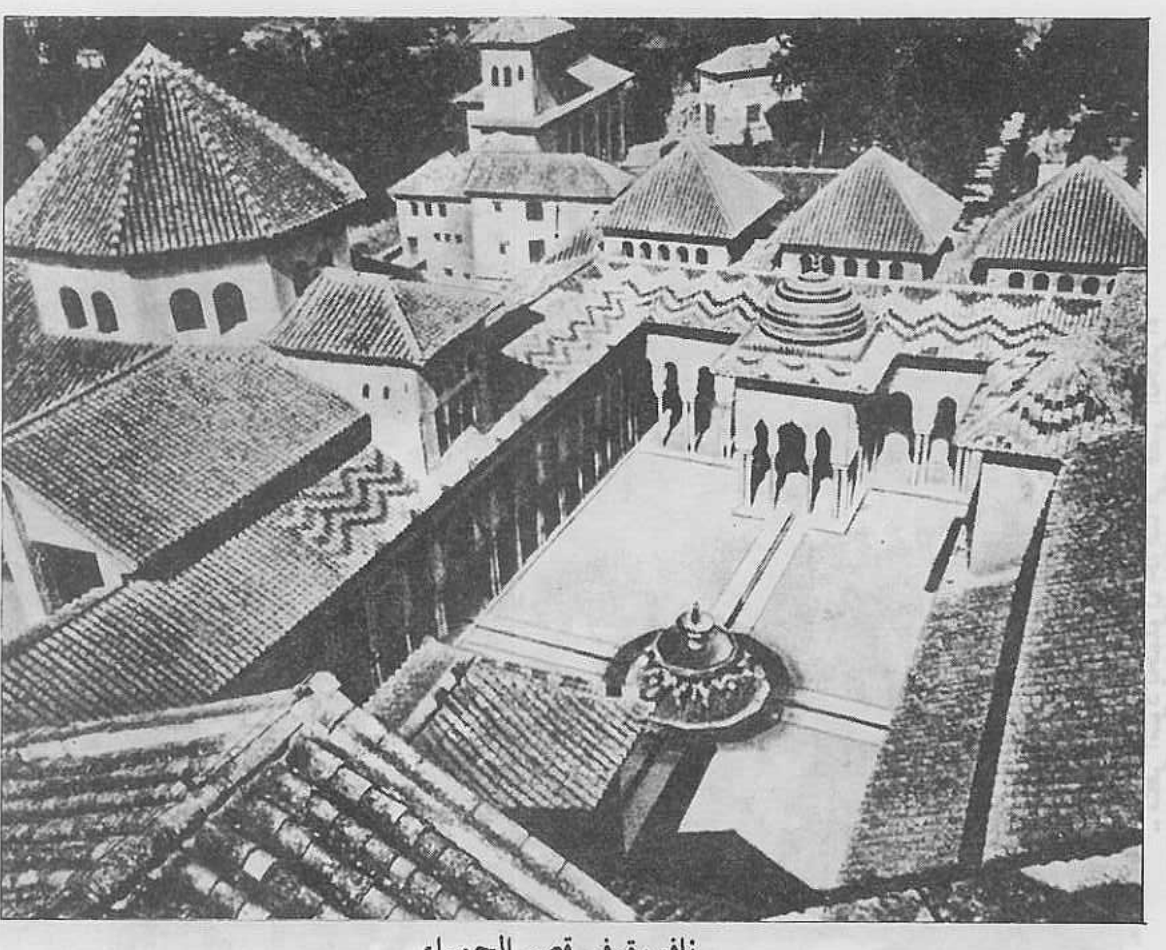
- منظر أحد البروج في قلعة غرناطة



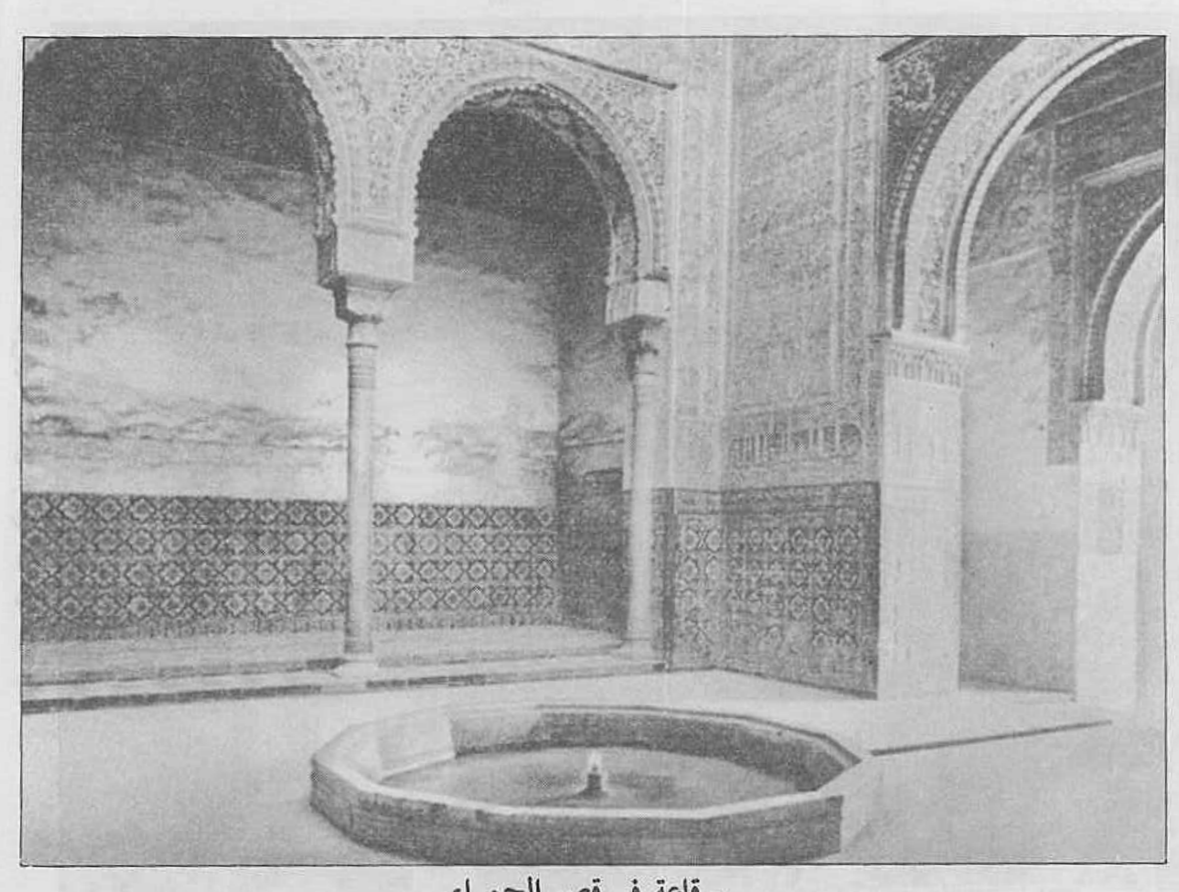
ـ منظر جانبي لقاعة السباع



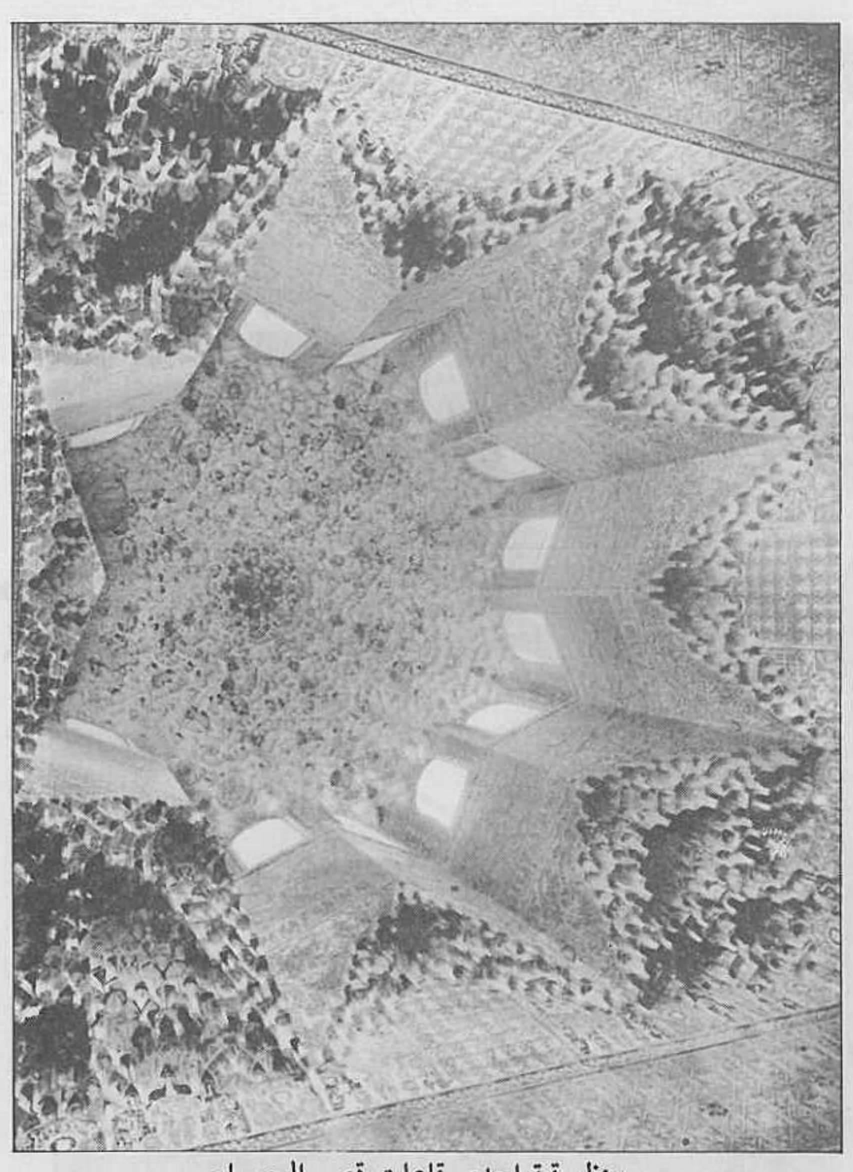
ـ منظر أسود يحملون حوضا في قصر الحمراء



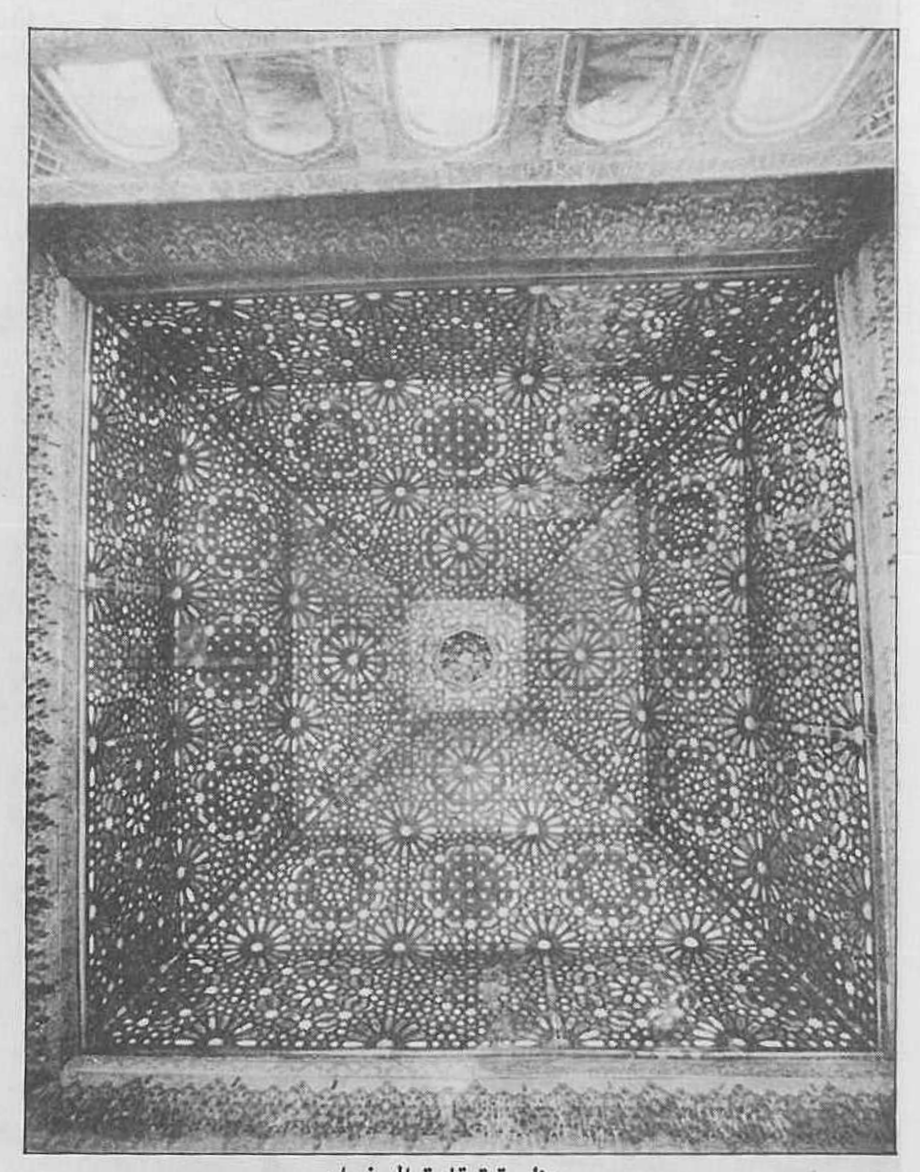
- نافورة في قصر الحمراء



- قاعة في قصر الحمراء



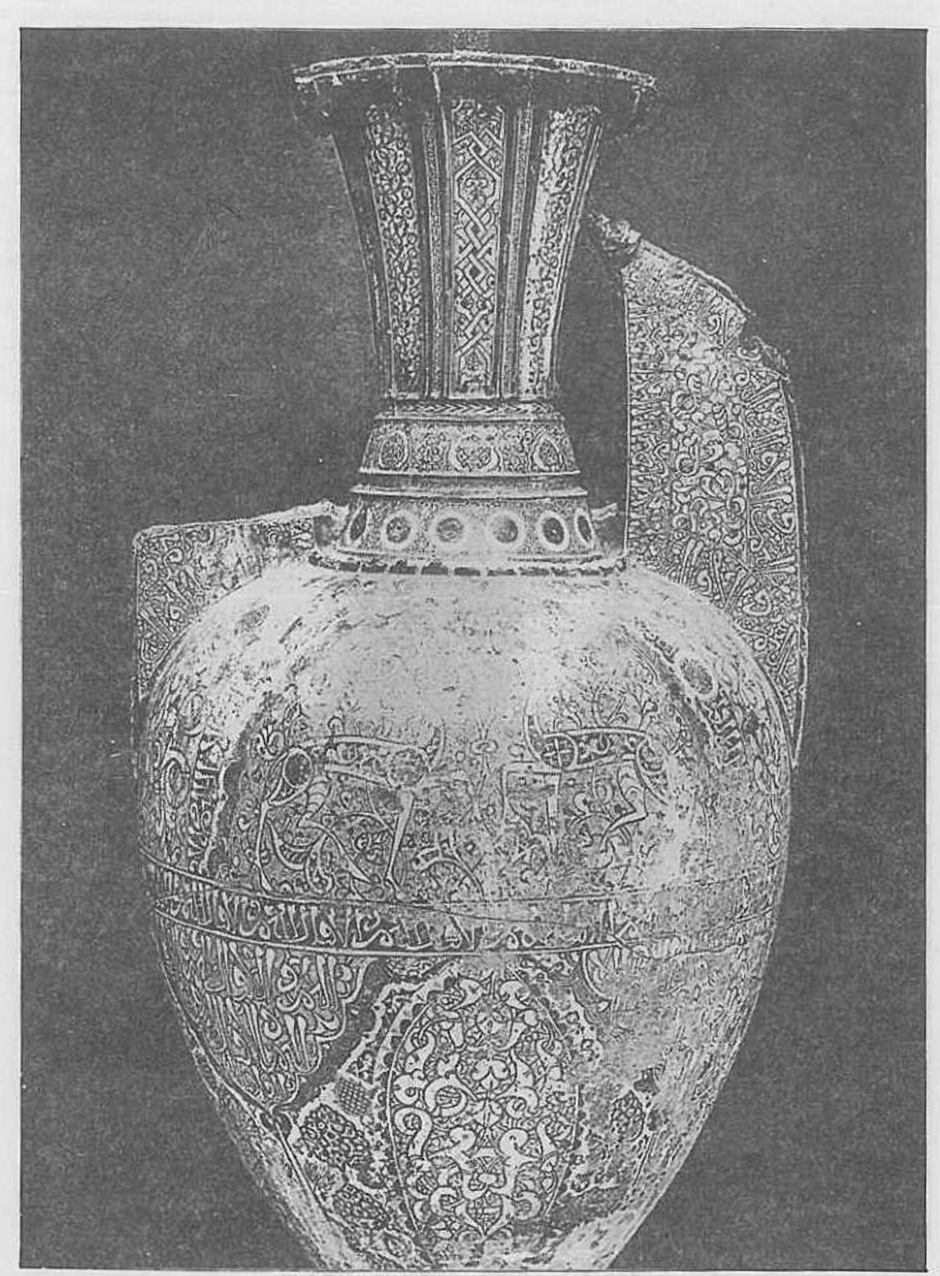
ـ منظر قبة احدى قاعات قصر الحمراء



ـ منظر قبة قاعة السفراء

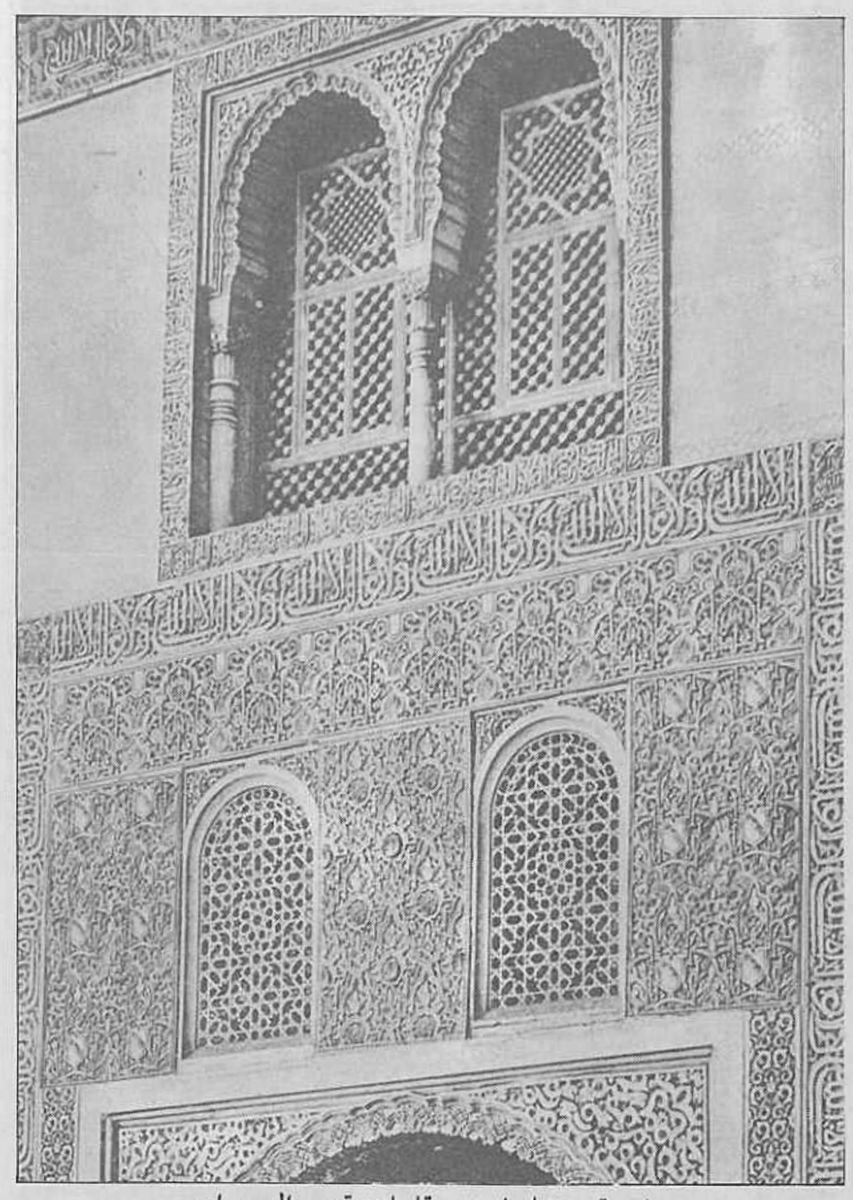


ـ منظر أحد المنازل الباقية في غرناطة من عهد المسلمين

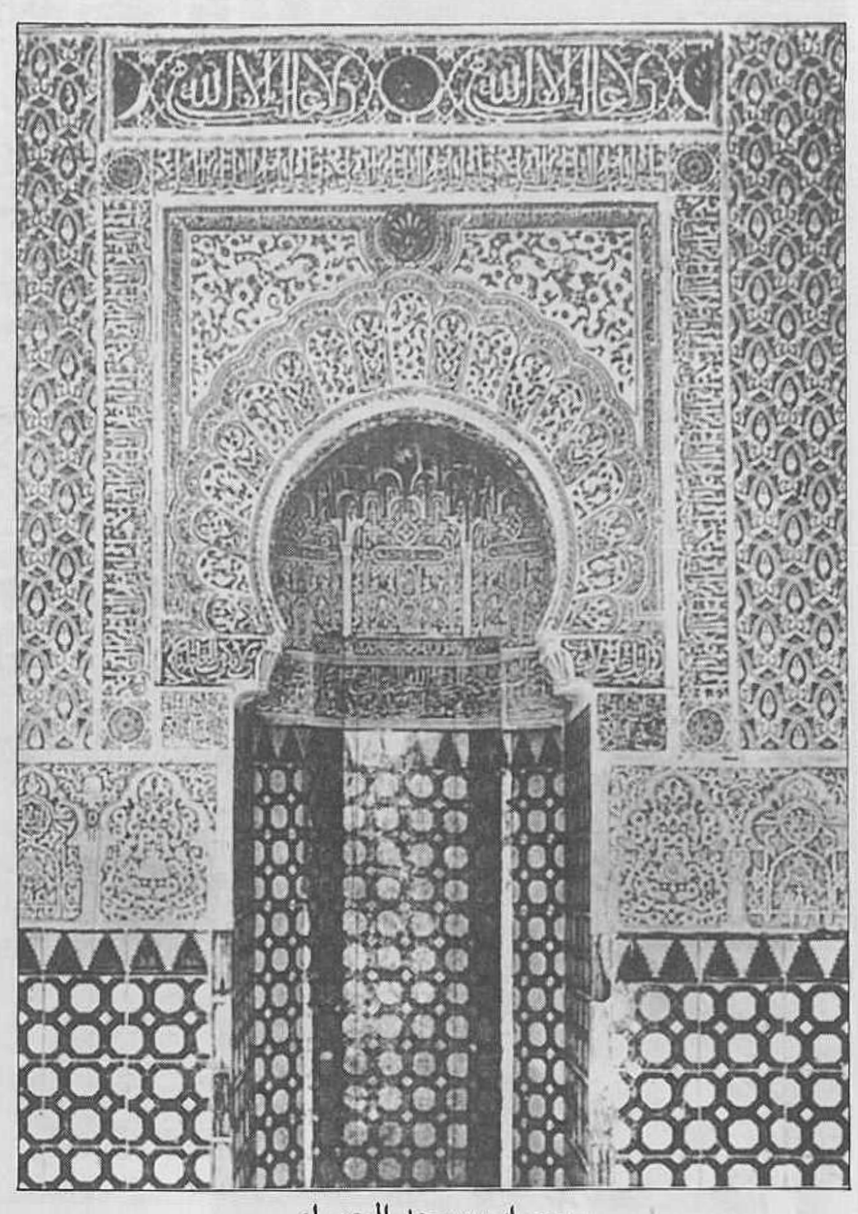


ـ صورة زهرية من آثار قصر الحمراء

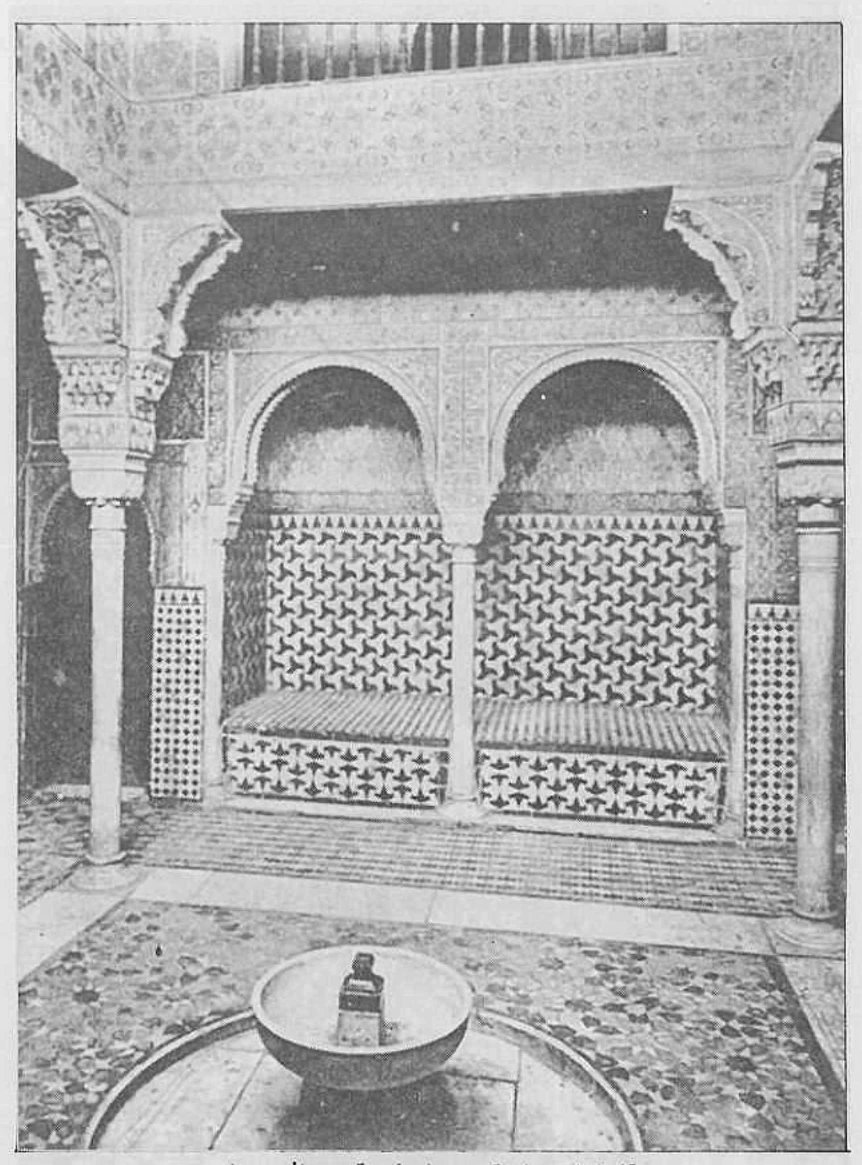
ـ واجهة مدخل احدى قاعات قصر الحمراء



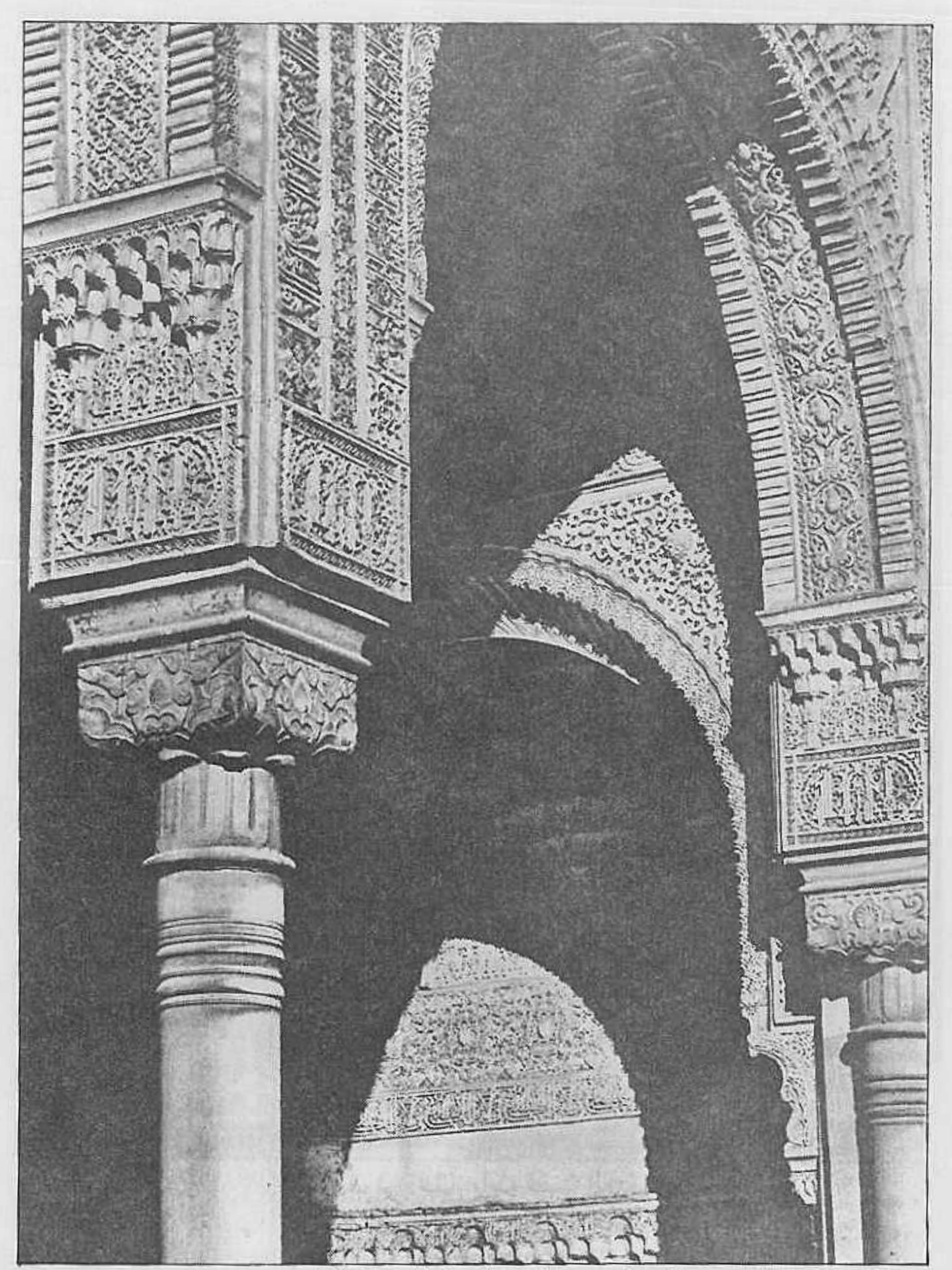
ـ واجهة مدخل احدى قاعات قصر الحمراء



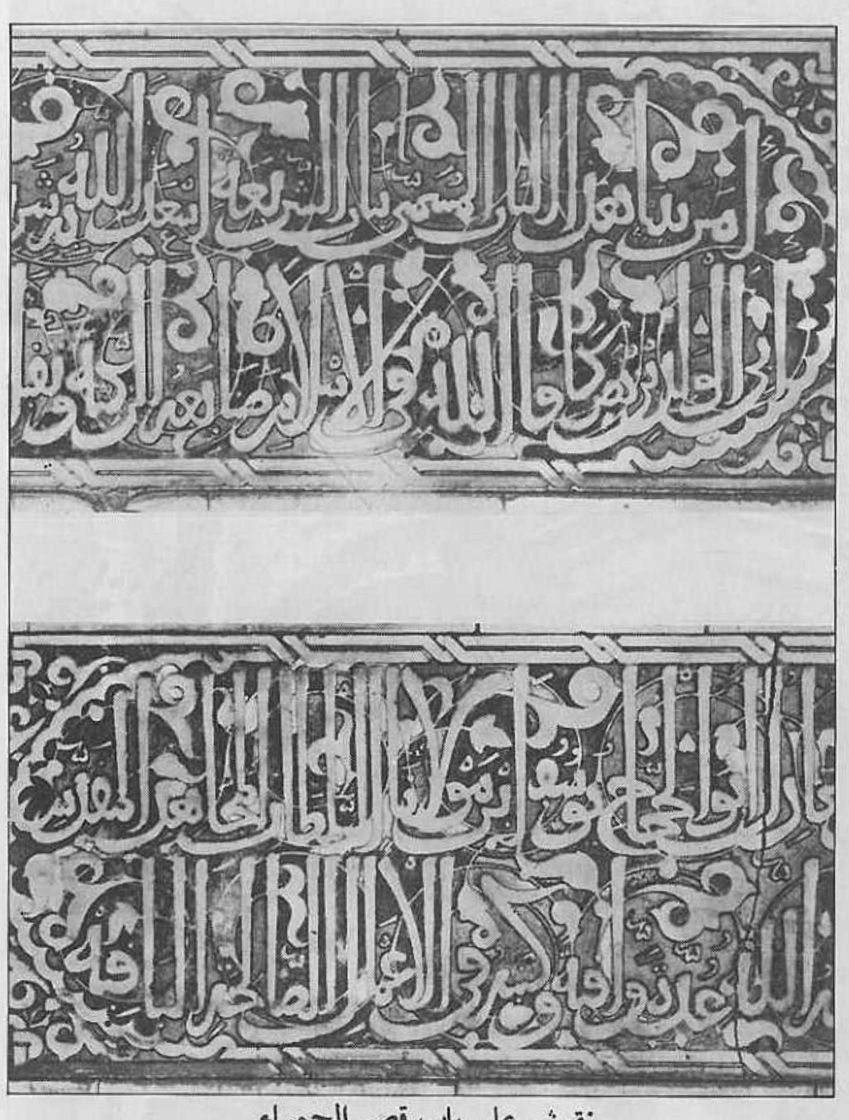
- محراب مسجد الحمراء



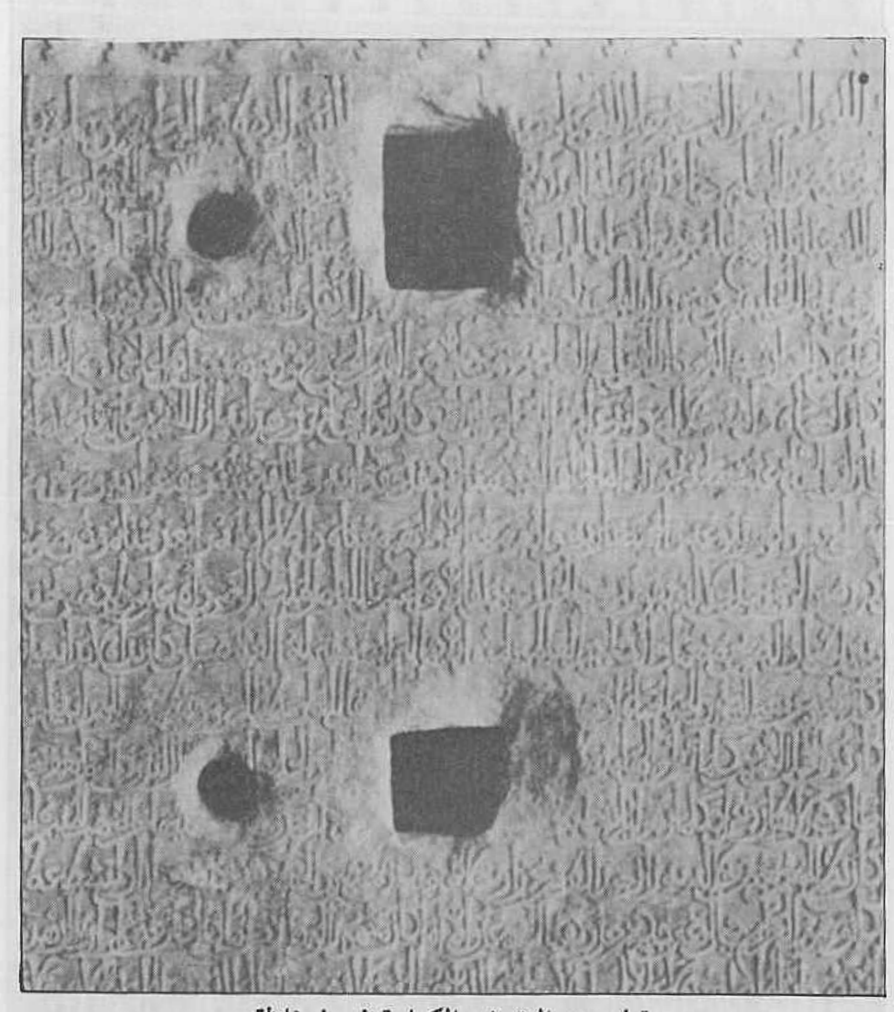
ـ قاعة استراحة بحمام في قصر الحمراء



ـ نموذج من الفن المعماري الأندلسي



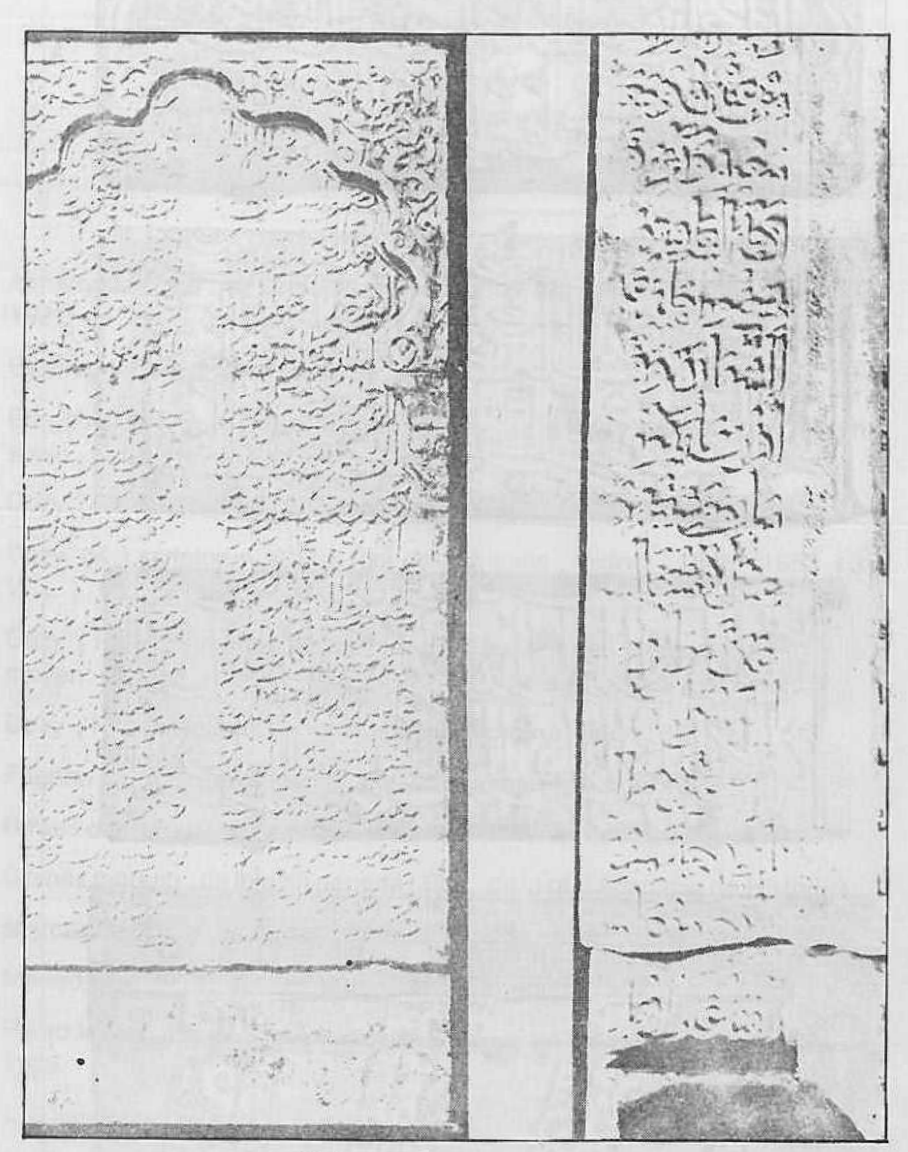
ـ نقوش على باب قصر الحمراء



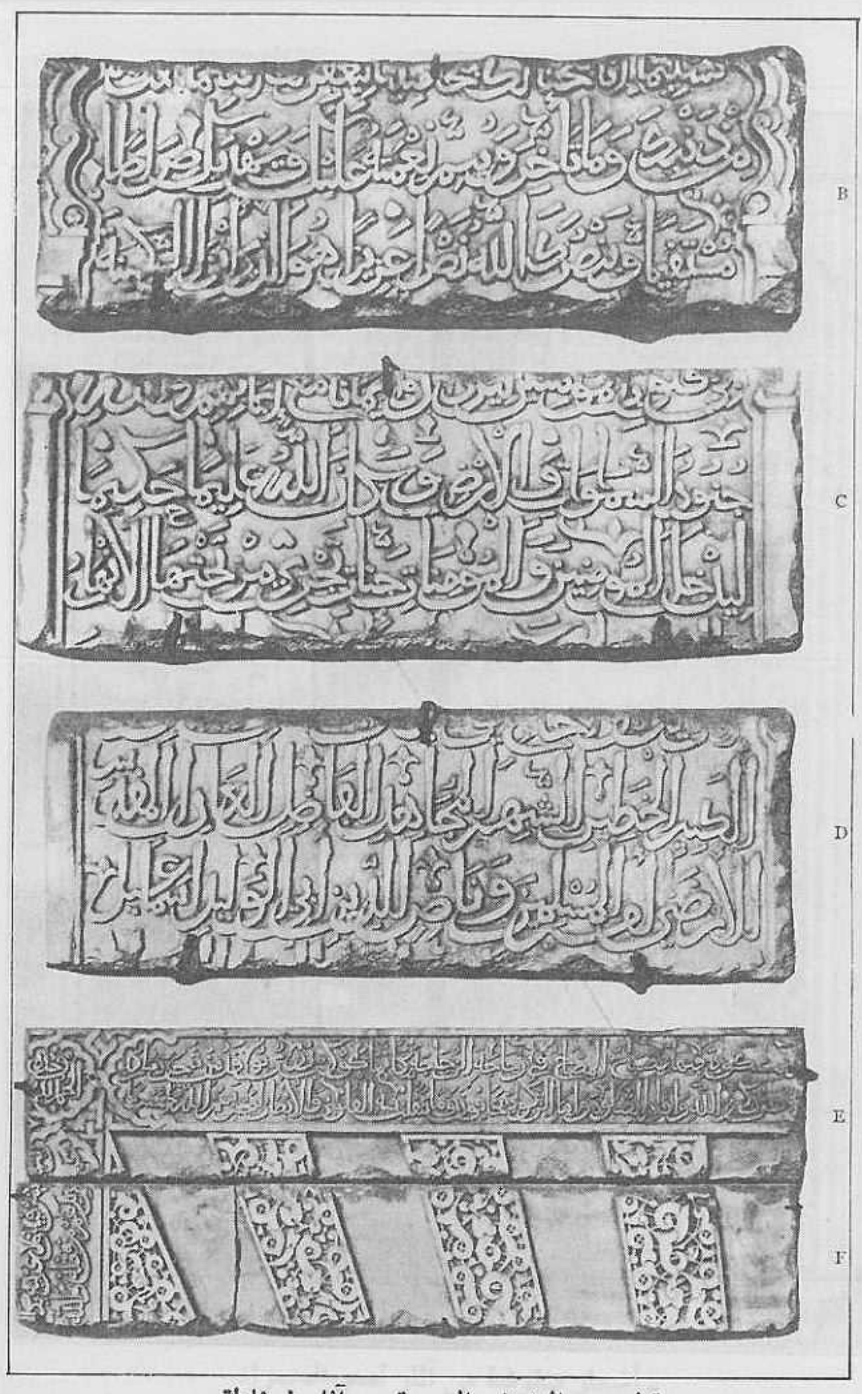
ـ قطع من النقوش الكتابية في غرناطة



ـ أشعار منقوشة من آثار قصر الحمراء



- نقوش كتابية من آثار غرناطة



ـ قطع من النقوش العربية من آثار غرناطة

مـراجع الكتاب

المراجع العربية

الاحاطة في أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، القاهرة 1955 .

أ ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القفطي ، مصر 1326 هـ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق ليفي بروفنسال (تحت عنوان : تاريخ اسبانيا) بيروت 1956 .

الانيس المطرب في روض القرطاس كابن ابي زرع ، الطبعة الحجرية ، فاس 1305 .

بغية الملتمس ، ابن عميرة الطبي ، مدريد 1840 .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي ، طبع دار المعرفة ، بيروت .

البيان المغرب في ذكر أخبار افريقية والمغرب ، بيروت 1967 . وكذلك الطبعة التي حققها ليفي بروفنسال وكولان في 4 أجزاء ، طبع دار الثقافة .

تاريخ علماء الاندلس ابن القرضي ، مصر 1966 .

تاريخ قضاة الاندلس للقاضي النباهي ، تحقيق ليفي بروفنسال اعادة الطبع ، بيروت .

تاريخ ابن عساكر (7 أجزاء) دمشق ، 1329 .

تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف اشباخ ترجمة

عبدالله عنان ، القاهرة 1940 .

تذكرة الحفاظ للذهبي (3 مجلدات) حيدراباد 1333 ـ1334 .

تقويم البلدان ، للملك الصالح اسماعيل ابي الفدا ، تحقيق دوسلان 1840 .

جمهرة انساب العرب ، لابن حزم الاندلسي تحقيق عبد السلام ابن هارون ، القاهرة 1962 .

حذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس الحميدي ، مصر 1952 .

الحلل الموشية في الاحبار المراكشية لسان الدين بن الخطيب (؟) تونس 1911 .

الحلة السيراء ، لابن الابار ، القاهرة 1963 .

دول الطوائف ، عبدالله عنان ، القاهرة 1960 .

دولة الاسلام في الاندلس ، عبدالله عنان 1964 .

دولة بني حماد ، نص مقتبس من نهاية الارب للنويري نشره
José dias - Martin de Calbréra de revista del centro de estudios historico , No 3 - 1917 , tomso 711 .

دولة بني حماد ، ملوك القلعة وبجاية ، اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

دولة الادارسة ، ملوك فاس وقرطبة وتلمسان ، اسماعيل العربي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

ديوان العبر ، عبد الرحمن بن خلدون طبع بولاق (7 مجلدات) 1884 .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام (3 أجزاء) القاهرة 1358 - 1364 .

صفة جزيرة الاندلس ، عبد المنعم الحميري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة 1962 .

الصلة في تاريخ ائمة الاندلس ، ابن بشكوال (جزآن) مدريد1882 .
صورة الارض ، ابن حوقل ، طبع دار الحياة بيروت .
كتاب الجغرافيا ، ابن سعيد المغربي ، تحقيق اسماعيل العربي طبع بيروت1970 .

كتاب الجغرافيا ، للزهري ، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بالجزائر .

الكامل في التاريخ ، عز الدين بن الاثير ، تحقيق طور نبرج اعادة الطبع بيروت1965 .

كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب ، لابن عبيد البكري ، تحقيق دوسلان ، إعادة الطبع ، باريس1965 .

لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (6 مجلدات) طبع حيدرابان 1333 .

المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي ، اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

مذكرات الامير عبدالله الصنهاجي ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مجلة الاندلس1938 .

مراصد الاطلاع لصفي الدين عبد المؤمن البغدادي ، تحقيق علي محمد البجاوي (3 مجلدات) القاهرة1954 .

المطرب من أشعار المغرب لابن دحية ، القاهرة1954 .
مطمح الانفس ، للفتح بن خاقان ، مصر1332 .
المعجب في أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، القاهرة1949 .

معجم البلدان ، ياقوت الحموي تحقيق وستنفيلد ، اعادة الطبع (5 مجلدات) بيروت .

معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق مرغليوث ، طبع مصر- 1925 1907 .

المغـرب في حلـي المغـرب ، ابـن سعيد المغربـي ، تحقيق شوقـي ضيف ، القاهرة 1964 (مجلدين) .

المغرب في ذكر افريقية والمغرب ، للشريف الادريسي ، تحقيق دوزي ودوخوية ، ليدن 1864 .

قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان ، تصوير طبعة باريس ، تونس 1966 .

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، لأحمـد المقـري ، تحقيق احسان عباس ، بيروت 1968 .

وفيات الاعيان ابن خلكان ، تحقيق احسان عباس (8 مجلـدات) دار الثقافة بيروت 1968 .

الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصقدي ، تحقيق هلموت ريتر ، اعادة الطبع 1961 (4 مجلدات) .

دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الاولى والثانية .

المـــراجع الأجنبية

Almany bolufere , la penisula ibirica en los escriptores arabes Grenada 1921

Berbrugger , epoques militaires , alger

Bargebihr (F), CYCLe of studies on the elventh century in moorish spain , barlin ; 1968 .

Dozy (R) Supp - aux dictionnaires arabes , 1968 .

Dozy (R) scriptorun arbrun loci de abbaditis , leiden ; 1848 - 1852 (3 VOL) .

Dozy (R)RecherchessurL'histoireet Litterature de L'espagne pendant le moyen Age

Dozy (R), histoire des musulmans D'espagne leiden 1861 .

Fagnan (E) , extraits inedits relatifs au maghred , alger 1925 .

Girault de frangey , L'architecture des Àrabes et des mores , 1831 .

Gomez moreno , de ibiri de genada (Bolt , de la real Acadimia de Historia) .

Marcais (G) , L'architecture musulmane d'occident paris 1954 .

Menédez pidal (R) , L'Espagne del cid , madride 1947 .

Pietro vivres , los reyes de taifas , estudios historico numismatico , madrid 1925 .

Livi pronincal , grenada musulmane , L'universite D'Alger 1937 .

Simonet , description del Reinsde grenada , grenada , 1972 .

Schirmann (J) le deman de smail hannagid , hesperis .

sordo (E nrique) L'Espagne mauresque paris 1964 .

فهرس الكتاب

الموضوع	صفحة
الباب الاول : عهد زاوى وحبوس	5
الفصل الاول :	
الزيريون بين أشير وقرطبة	7
الفصل الثاني :	
الامارة في غرناطة بعد ثورة البربر	21
الفصل الثالث :	
عهد حبوس بن ماكسن	43
الباب الثاني : عهد باديس بن حبوس	55
الفصل الاول : باديس وجيرانه	57
الفصل الثاني : وزارة اسماعيل بن نغرالة	81
الفصل الثالث : وزارة يوسف بن نغرالة	99
الفصل الرابع : نهاية عهد باديس	121
الفصل الخامس : غرناطة عاصمة	131
الباب الثالث : عهد عبدالله بن بلكين	145
الفصل الاول : عبدالله وجيرانه	147
الفصل الثاني : الطريق الى الزلاقة	171
شجرة نسب بني زيري	195 و201
الخرائط والصور	197
مصادر البحث	227

